

أعلام العرب

١٨

الأصمعي

للدكتور

أحمد كمال زكي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

هذه كلمة لا يد منها ..

لأن ما بين أيدينا ترجمة هي الى التاريخ الفنى أقرب مما هي الى التاريخ العلمى ، وهى قصة حياة لا تجمع الأخبار لتتقدمها وانما تجمعها لتنسقها .. وقد يقتحمها الخيال ، ولكن بشرط ألا يفسد منطق الواقع الذى عاشت فيه !

هذه لا بد منها حتى لا يقال : ما هكذا تكتب السير .

فبعض هذا الفن قد يكون مجرد صورة ، وبعضه قد يكون بحثا أكاديميا ، وبعضه يجمع بين أبعاد القصة واطار التاريخ .

وكل هذا اذا كان يقوم على أساس من واقع حياة صاحب السيرة فانه ينقصه دائما مفهوم السيرة على النحو الذى اصطلح عليه المحدثون ، وذلك المفهوم يحدده تماما أسلوب أندريه مورو فى ترجمته لشلى أو ترجمته لديكنز .

واذا كنت أرى أن أعمال مورو ليست خير النماذج لكتابة

السيرة في أدبنا الحديث فانها من غير شك تعبد السبيل الى كتابتها بما تصطنعه من بساطة وتمسك بالواقعية .. فاعلمكم وآراؤه ومؤلفاته وعصره لا يمكن أن تنفصل ، ولا يمكن الا أن تشكل وحدة ، هي حياته بكل ما فيها من أحلام وأمنيات وتفكير وعمل ونجاح .

فلولا نجاحه ما ذكر .

واذن فالسيرة ترجمة فنية لتاريخ رجل نجح ، وقد رأيت أن صاحب السيرة التي بين أيدينا أضاف الى ترائنا غناء أى غناء ، فكان واحدا من الناجحين . وكان على أن أعرض شهادة نجاحه هذا العرض الأدبي لتاريخه ، دون أن أستبيح لنفسى أن أخصر له أو ضده .. فهو أكبر من أن يتعرض لآفة التحيّز على الإطلاق . ومع ذلك فقد يجب أن أقرر أنى استصفيت ما فى تاريخ الرجل — وهو الأصمعى — من أحداث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ونفيت ما ينفيه الزمن الذى اضطرب فيه ، وأهملت ما يتعارض مع واقعه وهو كثير ، ثم وصلت هذا بذاك حريصا على أن أجعل ما أراه يراه غيرى ، فالخير كل الخير أن تجتمع الكلمة على الغاية .

وحرصت على أن أبيت مصادر رواياتى ، لا فى حواش تملئها المناسبة فترصد فى صفحة صفحة ، وانما فى ثبت مفصل آخرته ، حتى لا تقطع المراجعة اطراد السيرة فى شكلها القصصى . وليس أحب الى من أن أكون بذلك قد قدمت ترجمة فنية فى أدبنا الحديث لأحد أعلامنا العرب الكبار .

ذاك ما أردت مستهلا ، وفي خلدي أن المحاولات التي بذلت
للكشف عن شخصية الأصمعي لم تضعه موضعه الصحيح .
وباستثناء كتاب الدكتور عبد الجبار الجومرد « الأصمعي » ،
يظل الرجل في مؤلفات الآخرين شخصية باهتة تفضل طريقها في
شوارد اللغة ، ومتاهات الأخبار .

ولم يكن ثمة رقيب على صورته الاقداسة القدم ، وغامت
رؤاه بعند حتى أصبح في بعض الأحيان مسخا أو صاحب
فكاهة أو مهرجا يروى النوادر .

ويا كثر هؤلاء الذين حملوا عليه مالم يقله !
وأما نحن فقد رصدنا له منذ ولد في العام الثالث والعشرين
بعد المائة ، والدولة لبني أمية ، والخليفة هشام بن عبد الملك ،
وخلع عشر سنوات كاملة قبل أن يصير الأمر للعباسيين .

ومعنى هذا أنه عاش الفترة الحرجة التي زلزلت فيها الأمة
زلزالتها ، واضطرب فيما اضطربت فيه انقلابات وفتن ، ثم اشترك
في معركة حدد موقفه فيها على أساس من عقيدة ترتبط بالاسلام
ومن تعصب يتمدح كل العرب .

كان خصما للشعوبية فنصب نفسه حربا لها ، ولما اتصل بهارون
الرشيد جعل هدفه أن يذود عن قوميته بكل سلاح .. بالشعر
أحيانا ، وبالرواية التاريخية أحيانا ، وبمقاومة البدع والزندقة
والآراء المتطرفة في كثير من الأحيان .

ثم يدعو المأمون فيأبى ، لأنه يراه صَبَاً ؛ فهو معتزلى .
يقول بخلق القرآن ، وهو عكوىٌ أيضاً ، ويجمع في بلاطه بعض
المارقين من مجوس الفرس .

الأصمعى يرفض سياسة العباسيين ويجاهر بأموية أوقعته
في كثير من العثرات .

والأصمعى يرفض كل ما عدا ما يذهب اليه أهل السنة .
والأصمعى بعد هذا سَمَحٌ ، صدوق ، يرفض أن يتورط
فيما يجعله يكبو على الوجه !

٣

وما دام الأمر دعوة منه الى تمسك بالقومية العربية ، فهو من
هنا رائد من رواد هذه القومية . ولم يكن تفكيره فيها من قبيل
هذا التفكير الهازل المضطرب ، وانما كان نابعا من فهم أصيل
لواقعه التاريخى .

ولقد ازداد ايمانه بالفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب
على تقوية الأواصر بين تاريخ الاسلام وتاريخ الذين بشرُوا
بالاسلام ، ومن ثم قرر أن القيادة لا يصلح لها الا كل عربى
حسن العقيدة !

وكان محقا . فقد كان الشعوبيون قد أجمعوا على أن يفسدوا
التاريخ كله ليفسد الواقع ويتم لهم الغلب .
واثارة الشك هو نقطة الانطلاق .

ويشمل الشك كل شيء بادئا بالشعر الذى أحبه الأصمعى

كل الحب ، وكان الشعوية استهدفت مجتمعاً يكون بلا شعر ،
حتى قال أبو دلالة للمهدى على ما جاء فى عيون الأخبار :
ان كنت تبغى العيش حلوا صافيا

فالشعر أعذبه وكن نخاسا
وثمة أداة أخرى استغلتها الشعوية ، وهى ضرورة التعصب
للسب غير العربى وبعث أمجاد الفرس فيقول بشار بن برد
« فروعى وأصلى قرش العجم » فإذا سأله المهدي « فمن أى العجم
أصلك ؟ » أجاب « أهل طخارستان » .

ويؤلف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب « أخبار الفرس »
وكتاب « فضائل الفرس » .

ثم توضع الأحاديث التى تمجد الأعاجم .
وأما الدين الذى سعى به العرب يضمون اليه الشعوب ، فلا بد
أن يقهر ببعث العقائد المجوسية فيقول بشار :
الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار .

ويقول أحد شعراء الفرس :
أبونا ويزك وبه أسامى إذا افتخر المفاخر بالولادة
أبونا ويزك عبد رسول له شرف الرسالة والزهادة
فمن مثلى إذا افتخرت قروم وبيتى مثل واسطة القلادة
ويقول غيره أكثر من هذا ، فإذا الرقاشى كبشار زنديق ، وإذا
أبان اللاحقى كصالح بن عبد القدوس وابن المقفع ملحد ،
وأبو نواس يبعث كما يريد الفرس أن يبعث ، ويؤلف أبو عبيدة

المجاز في القرآن فيرفضه الأصمعي باعتباره صادرا عن هوى ، لأن
أبا عبيدة كان فاسد العقيدة !

وتبقى اللغة . وقد لاحظ الأصمعي أن الشعوبية تحطم القيود
التي يفرضها واحد كالخليل بن أحمد .

اجترأ شعراء هذا العصر على شعر الخاصة فأقحموا فيه
أساليبهم ومفرداتهم ويطلبون مع ذلك أن يذكروا في كتب اللغة ،
وإذا كل شيء ينهار وإذا الرجز — وهو الفن البدوي الصميم —
يلين كما لأن غيره لضربات الفرس المتلاحقة .

كان الأدباء الأولون يخطئون أو قد يقعون في الخطأ ، إلا أنهم
لم يكونوا يتعمدون ذلك . كانوا يصدرون بحس عربي خالص ،
وأما اليوم فهم يتظرفون باصطناع الخطأ وباقحام ألفاظ العجم
اقحاما .

وهكذا ...

فلم ير الأصمعي بدءاً من أن يربط حياته بالدفاع عن العروبة
في تلك الأشكال ، ويتمثل هذا الدفاع في الوقوف ضد الشعوبية
بعناد واصرار . فظفر بهم في كل مكان وبذل من نفسه الكثير ،
غير أنه ظل حريصاً على قوميته يأخذ بموازينها لا يحور عنها
فإنقص وشوّهت صورته ، ولم ينج من قدح القادحين حتى
وهو يشيع إلى مثواه الأخير !

ذلك ونحوه في هذه السيرة ..

فاذا كان ثمة من يرى في المحاولة قصورا ، فلان الحياة نفسها قاصرة ، وحاولت أنا أن أقدم الحياة !
واذا كان ثمة من يرى أنها حققت ما هيئت من أجله ، فلان النجاح معقود بناصية كل جاد ، وحاولت أنا أن أكون جادا مجدا !

ثم اذا كان ثمة من يرى أنى أعطيت نفسى الحق في بعث أحد رواد قوميتنا — على النحو الذى أردت — فلانى أو من بأننا أحوج ما نكون الى مثل هذا الصنيع . فلقد تبيّن قادة الجيل اليوم أن هناك ضرورة لبعث الأمجاد في اطارها القومى الجذاب ! ومع ذلك فلا أزال أرجو أن يبعث الأصمعى غيرى ، فان فيه صفحات أو من بأن نشرها على نحو غير هذا النحو يحيد بنا عن عطب قريب أو ينكبنا مفسدة وشيكة .

الباب الأول

في البصرة

البادية

— أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي؟

— نعم بشرط ألا يعرف أهل الجنة ذلك !

وكان السؤال موجها من أحد العابثين الى أعرابي ترسم الرواية صورته كارها باهلة ، وتدل اجابته على أن الأساس الذي أقيم عليه وجود القبيلة كانت تزلزله وضاعة أو تحط منه مهانة .
والأمر بعد ذلك عجيب حقا ، فباهلة التي يملأ أبنائها البصرة فخارا ذات فترة من فترات التاريخ ، تدور في الألبات مهينة ذليلة حتى ليقال فيها :

ولو قيل للكلب يا باهلي

عوى الكلب من لؤم ذاك النسب .

ويقال :

لا تنفع الأنساب من هاشم

إن كانت الأتقى من باهله

ويقال أكثر من هذا وذاك ، فكأنما لقنه الآخذون بأسباب المعرفة ، فهمنوا المنافذ الى تحقيرها ، بحيث لم يعد شيء — فعلا كان أو قولاً — الا اتخذ سبيلا الى النيل منها .

أكانت هي على هذا النحو المهيمن حقا أم تلك تقولات جرت
مع الأيام ، والأحداث شتات ؟

لا ندرى تماما . فالتاريخ وإن صدر للحق لا يمنحنا هذا الحق
كله ، ونظل بعد أن نظن أننا نقضى منه لبانات أى لبانات على
الجهل بما أخذنا أنفسنا باستجلائه ، ثم تبدو باهلة يتردد اسمها
مع الباهلى سلم بن قتيبة والصحابى أبى أمامة والعالم الفذ
أبى سعيد الأصمعى .

هذا مع الغاية المرساة ، أما مع التنقيب وراء التفصيل فلا بد
من أن نخرج عليها وهى فى البدء تستوى على قدميها وتخطر فى
البادية خطرات الصغار ، ثم تقوى على أن تتقدّر وتدبّر وتؤلف
بين طارفيها وتالدها ، وتستمد حولها من كل أسباب البقاء .

باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج !

هكذا هى كما يقرر ابن حزم الأندلسى فى جمهرة أنسابه ،
وهذا ما يجب أن نعرفه بعد مقارنته بما قال سائر النسايب .. فنحن
لا نزال نأخذ الأمور بمستورها ، ومن ثم ليس أمامنا مفر من أن
نصف — ولو فى اجمال — كيف انحدر منها رجلتنا ، ذلك أن
المزاج الاجتماعى مرهون بالعرقرقه بالبيئة والزمن . وعندما تؤكد
أن باهلة همدانية من كهلان يجب ألا ندهش أن يرتبط بها عرب
شماليون ، لأن النسبة إليها كانت نسبة شهرة لا نسبة دم .

وإذا كنا لا نرى بعد هذا أن شيئا لم يستقم ، زواجنا بين فرائد
الأخبار فقلنا كما يقول القاصون :

كانت باهلة زوجا لمالك بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان ،

وكان لمالك ابن من زوج أخرى يسمى معنا ، فلما مات خلفه على
باهلة وأولدها أولادا كما أولد غيرها ، ولكنها حضنت الجميع
فنسبوا إليها ، وياكثر هؤلاء !

ان المؤرخين يطمثون الى هذه التفصيلات ولكن الناس
— بعد أن تعقدت حياتهم — غيرهم ، فهم لا يلتفتون الا الى
ذلك الشاب الذى يبنى زوج أبيه وينسون مثلا أن ذلك الزواج
كان مما يألّفه القوم فى الجاهلية ، بل ينسون أن كل من يعرف
بباهلة ليس ينبغى أن يكون من رحمتها .. فلمعن زوجات آخر ،
وله أولاد أشهرهم فراض وزيد ووائل والحارث وحرب وقعب
وقتيبة ، ومن قتيبة وكانت أمه بنت عمر بن تميم جاء الأصمعى ،
ولهذا يقول :

— لست من باهلة لأن قتيبة بن معن لم تلده باهلة قط !

ويقول حين سئل ممن هو :

— أحد بنى سعد بن قيس ثم أحد بنى أعصر بن سعد !

على هذا تجرى الأمور ، وتلك كانت حقائقها . وما رأينا
ما يغيرها رغم تشابك التاريخ بالأساطير واضطراع الحقيقة
بالخيال ، وهو ان يكن مجديا فأكثر جدوى منه أن تتبع القبيلة
فى أرضها .. تلك التى تفرض عليها لونا من المعاش لا سبيل الى
ردّه ولا مفرّ من التسليم بأثاره ، وكل همّنا ألا تنقطع أسبابنا
بتشعيب يدفعنا الى خبط العشواء .

أما هذه الأرض ففى جنوبى اليمامة ، وقيل وسطها — فلا بد
من الخلف — واذا يشرع فى بناء البصرة تنزع هى إليها مع من

ينزح ، وتحتل بئر الخفير على أربعة أميال من جنوب غربى البصرة ،
ثم تدخل بعدئذ في أهل العالية الذين سكنوا تحت نهر الأبله وامتدوا
جنوبها نحو الصحراء .

ومن المحقق أن الانتقال لا بد يهيم لها ضربا من الحياة مهما
يقل فيه الدارسون فانه كان أكثر خفضا وأعق اتصالا بأسباب
التمدن . الا أن ما كان للعرب من هوى للبادية قد استطاع أن
يربطها بالرعى وتربية النعم ، ومن ثم راحت تحيا بين بين ؛
فلا هى متبدية ، ولا هى متقبلة كل ما تقدمه الحياة الجديدة ،
وكانت البصرة اذ ذاك تتعرض لما يضائل من حفاظها على التليد .

* * *

ولكن هذا حديث العشيرة ، فما حديث الأصمعى ؟
لنبدأ بأبيه عاصم — وكان يلقب بقريب — وأبوه على
ابن أصمعى بن مظهر بن رباح بن عمرو بن عبد الله الباهلى ، وقد
أدرك كل من مظهر وأصمعى محمدا رسول الله وأسلما جميعا ،
وقرر السيرافى أن أبا محمد اليزيدى لم يرتح لهذا وهجا الأصمعى
بنسبه قائلا :

أين لى دعى بنى أصمعى أقفر ربياعك أم أهله
وما أنت هل أنت الا امرؤ اذا صح أصلك من باهله
ولسنا الآن بسبيل ماثار حوله ، فان من المؤكد أن اليزيدى
كان واحدا من الذين ينفسون عليه ، وللأخباريين قصص فى تعرض
الخصوم له حتى وهو صغير ، وكان هو كلما ضاقت حوله الدائرة

وجد مخرجا يدلّه عليه ذكاؤه ، حتى لقد رأى بعض ذوى الرأى أنه احدى العجائب المعدودة .

ولقد عهد أبوه قريب الى أمه بتربيته الأولى ، لأنه كان يأتى البصرة مع أخيه شريان — وهو من أهل العلم — فيصحبهما سلم بن قتيبة فى أسفاره ومعاركه ، ويعطيهما المال أو العير حتى يوفرا لأهلها حياة آمنة فى بئر الحفير .

وليس ينبغى أن ننسى أن قعود الأمير للعلماء كان يفتح لقريب آفاقا من العلم مختلفة ، فتمرس كأخيه على العربية وأخذ بالرواية والقصة ، فكان فى الأوقات التى يفرغ فيها لابنه عبد الملك — وهذا اسم الأصمعى — يحكى له ما يثير خياله ويدهشه . وللرجل ولد آخر يكبر عبد الملك اسمه عبد الله ، يمدّ يد العون لأمه ويهيء نفسه للعمل وسط قامات النخيل وهو يرعى الماشية ويشرف على حظائر النعم التى وكل لها الأجد مولى الأسرة .

والبيت الذى ولد فيه عبد الملك سنة ١٢٣ كان متوسط الحجم ولا يختلف عن بيوت حى « بنى أصمع » فى شكله المربع وفى احتوائه على بئر تتوسط فناءه ، وأمامه الطريق مستطيبة تذوب معالمها فى هضاب صفر خفيفة ، وقد تتسع أحيانا فتكون ساحات يلعب فيها صغار الحى ويشاركهم عبد الملك بمشاهدة الحجيج ومشاكسة المارة .

ودأب الكبار من باهلة على أن يروا ذلك كله فلا ينكرونه ، فالشطر الأول من حياة المرء للهو البرى . الا أن عبد الملك يلتفت اليه النظر بتوقده ، ويرز من بين الصغار قادرا على أن يعيد

حكايات آييه وما ترويه له أمه ، بعبارة حلوة ولسان طلق ، وان
يكن وجهه لا ينطق بحسن وملاحة !

واذ كان هدف الباهلين التنويه باسمهم في مجالات الرفعة
لتسحق عنهم سببة كئود ، فقد نظمت حياتهم على قواعد من الاشادة
بعظمائهم .. يكاد يكون لهم في كل جيل كبير ، وبين باهلة خاصة
والمهالبة ثمة حرب مشتعلة لا تخدم أبدا . فلا بد من أن يكون هناك
القائد الذى يحمل رايتهم في كل وقت ، ومن ثم هم يستبشرون
خيرا حينما يرون فيهم واحدا كعبد الملك . وبعد أن يقضى الطفل
سنوات في التسمع الى بطولاتهم وثاراتهم ، يلحق وهو فى السادسة
بواحد من الكتائب ويحفظ القرآن ، ويتعلم الكتابة .

وكانت العادات البادية تتوزع علاقات الصبية ، فكانوا عندما
يخلصون من سطوة العريف يتغالبون بنوى الثمر ، ويتهاثرون
بالفاظ السوق ، وينشدون الرجز الخفيف ، ويطلقون أهارج
الفراغ . فاذا تصارعوا ، كان ذلك حلقة من سلسلة المران الذى
تأخذهم به الطبيعة !

وما وطئت قدما عبد الملك أرض الكتاب حتى ظهر على
أقرانه فى الكتابة والقراءة ، فلم يبض عام واحد حتى راح يشغل
نفسه بما كان يتناقله القوم فى حى بنى أصمع من أبناء البصرة .
وقد أحس بغريزة يقظة أن خطرا يهدد الدولة والخليفة عاجز عن
مقاومة ما يحدث ولا سيما فى مرو ، ثم سمع من آييه فى احدى
الأمسيات أن مولى خراسانيا اسمه أبو مسلم اقتحم دار الامارة
فهرب الأمير الأموى نصر بن سيار . ثم هزته أخبار عن شخص

اسمه ابراهيم بن محمد نصب نفسه اماما محتضنا أبا مسلم
الخراساني وأرسل له بقائد يقال له قحطبة .

هنا وجد الصبي نفسه موزعا بين درسه وبين هذه الأنباء ،
وتصور كل ما يحدث في صورة بشعة ؛ فما طلعت شمس الا على
معركة ، ولا غربت الا مع أهبة لأخرى . وبين يدي خليفة دمشق
تموت آماله الصغيرة ، ألم ينتصر قحطبة على يزيد بن هبيرة أمير
العراق كله ؟ وما يلبث أن يفجع بقيام خليفة آخر بالكوفة يخرج
الى خليفة دمشق ويكسر جيوشه بالزاب ، وينتهي كل شيء
عام ١٣٢ .

* * *

وفي أحد الأيام يسمع كما يسمع غيره أن الخليفة الجديد أرسل
رجلا من المهالبة يريد البصرة من أميرها الباهلي ، فتضح معالم
الطريق لا يتكبحها أحد ، ويحال بين المرء وبين التماس ما تعود
أن يلتمسه . ويحس عبد الملك — وهو الناشئ ذكي القلب —
أن قوى تريد أن تحرم أهله حقهم في الحياة فيثور ويشير أقرانه ،
ويتمنى الصغار أمنيات الكبار أنفسهم ، ويتذكرون قصة قديمة
عن المهلب الأزدي الذي قتل قتيبة أبا أمير البصرة الحالي وذلك
أيام سليمان بن عبد الملك الأموي !

أفتستطيع نفوس باهلة التي قبست من نار النار المستعرة أن
تدع الحكم للسيف ؟

لسلم بن قتيبة وحده حق الجواب ، فلما هب للخرب يذكي
أوارها سعد الباهليون سعادة أجيال أقذنتهم الضغينة ، ثم راحوا

ينفخون في الكير يرجون الغلبة فتم كل شيء على ما يرجون .
وسمع عبد الملك وهو في الحفير أن الأمر سار على هذا
النحو .. انقسم البصريون على أنفسهم بانضمام ربيعة للأزد على
سلم ، وتمكن هذا من ضربهم جميعا ، ثم ذهب الى أبعد من ذلك
فاستباح حتى الأزد كله ونكّل بيوت المهلبين منتقما لأبيه شره
انتقام ، فكانت فرحة لم ينل منها اضطرابه الى أن يعهد بالبلد
للعباسيين من غير حرب !

ولكن المشاحنات لم تلبث أن فزعت القلوب ، اذ لم يكد
سليمان بن علي أمير البصرة الجديدة — وهو عم الخليفة
السفاح — يستقر حتى أعمل السيف في رقاب الأمويين ، وذبح
المئات منهم ، وأمر فألقيت جثثهم على قارعة الطريق .

وأسرع عبد الملك في نقر من أصحابه وصعدوا للشمال يشهدون
آيات المذبحة ، غير أنهم لم يكادوا يقطعون بعض الطريق حتى
فوجئوا بالموت الأحمر قبالتهم .. فقد شاهدوا أول جثة لم تزل
تقرز عصارتها الدامية القائمة ، وبدت العقبان في السماء محوطة
فوقها والأرض تتشاب عن نخلات راحت تنشي وتعتدل كأنما تقرأ
في هبات الريح صلوات الجناز .

أجل هذا هو الموت !

رآه عبد الملك لأول مرة فاستبشعه ، غير أنه لم يكن يحجب
عينه عما يريد أن يرى .. اذ كان ثمة كلبان يقران أحشاء القتيل ،
بينما انقضت عقاب تنهش الجسد الدامي ثم تبتعد وفي منقارها

اصبعان من كفه أو ثلاث ! وانتفض جسد الصغير ، قال له واحد من رفقاءه :

— ألن نواصل السير يا عبد الملك ؟

فقال وهو كالشارد :

— أجل .. فانا أكره الموت .

لقد حزنه ما اقترفته يد السفاح وعجب كيف أن أهله كانوا ينشدون شيئا مثل هذا طوال عشرات السنين ، فلم يغمدوا السيف ، ولم يعقدوا لهم حبة . فلا بد إذن أن يكون النار أكبر من هذا ، ولا بد أن يكون هذا الأموى الملقى للكلاب والعقبان قد أوجع أصحاب الأمر في الدولة الجديدة .

كان يفكر على هذا النحو الساذج ، ثم قطع جبل تفكيره ظهور شاب في نحو العشرين يركب حمارا أعجم هزيلا . وأدرك من قبائه الفضفاض أنه أحد الموالى ، فلم يشغل نفسه بأكثر من التفرس في أظافره السود وصدره العريض وسحته المحمرة .

على أن طول توقف هذا المولى فوق الميت دون أن يترجل أشعره بالأسى ، ولحظ أنه مغتبط وإن يكن متكلفا الصمت ، فقال له وهو يرجو أن يفهم تماما تحدّيه له :

— كان عليك أن تترجل ثم تترحم على القتيل .

فقال بصوت خشن وبلسان ثقيل :

— أموى قدر .. أنا لم أوكل به حتى أترحم عليه !

وودّ عبد الملك لو صفعه أو بصق فوق لحيته ، ولكنه كان يحس بعجزه المطلق وبأنه لا يملك إلا أن يتكلف الصبر . بينما

اقترب الصبية من صديقهم كأنما شعروا أنه في حاجة اليهم على الرغم من ايمانهم أنه يستطيع أن يكون ندا ، أفلم يختم القرآن في عام واحد ؟ أفلم يحفظ المتون الكبار ويملك أن يتفصح وهو بعد الناشئ ؟ وقد سمعوه يقول بلسانه العذب :

— أنا لا أسألك أكثر من حق الموتى على الأحياء .

قال :

— الا أن يكونوا من الأمويين !
وذكرى قوله الألم في صدره وأثار الحسرة ، ثم ضاعف من احساسه هذا استهاتته بمن كلفوا أمثاله شططا ليحفظوا للعرب عزهم ، فقال :

— لولا أن دالت دولة هؤلاء لما استطعت أن تظل على حمارك ونحن وقوف .

وتكلف المولى السرور وقال متمازحا :

— أتعيرنا بأمور سكتنا عنها دهورا ؟ ومع ذلك فما اسمك

يا فتى ؟

أجاب تياها :

— عبد الملك بن قريب من باهلة .
وكانما سمع المولى احدى الفكاهات الصارخة ، فاتفجر يضحك حتى كاد يسقط عن حماره الهزيل ، ولما استجمع أنفاسه قال وهو يتصنع الانكار والدهش :

— هذا لا يكون قطعا .

فتساءل الصبى :

— لماذا ؟

أجاب :

— لأن الناس اذا كانوا من باهلة تبرأوا منها ، فكيف يأتى

من ليس منها وينتسب اليها ؟

وتلمل الصغار وقد ساءهم أن يعيب بهم هذا المولى ، وتوقعوا
أن يأخذه الأصمعى بعبارة من عباراته اللاذعة التى شهر بها ، ولكنه
قال له بهدوء :

— قد أغفر لك تطاولك اذا عرفتني من تكون .

فقال الشاب :

— معمر بن المثنى .. من تيم قريش !

وهنا انفجر الصبى ضاحكا ، تماما كما فعل هو ثم صاح :

— لا تقل من تيم يا هذا ، فالأصح أن تقول من موالى تيم ،

فليس المولى كالعربى وان يكن من باهلة .

فتتم معمر وقد أطرق كالخزيان :

— دون شك .. ومع ذلك فقد كان أبى يهوديا من باجروان .

وضرب على حماره الهزيل فاهتز ، ثم تحركت قوائمه فوق

الدم المتجمد على الحصى ، ومضى مصعدا فى طريق البصرة .

وأما الصغار فقد عادوا من حيث أتوا ، وهم يشعرون بأنهم على

أبواب عالم جديد .

المدنية الكبيرة

كان شغفه بالورق والألواح ، واحتقاره للألعاب فجأة ،
ودمايته التي لم تكن تخفى على أحد ، وإيثاره نفسه بما يناله
لا يجرؤ مجترئ على أن يأخذ منه .. كان كل أولئك يشكله
تشكيلا أحس أقرانه بغرابته ، وكان قد خيل اليهم أنه يدينه
النحيل غلام عادى الا أنهم سرعان ما تبينوا أن كل اختبار يدفع
به الى التقدم السريع . وكانت عيناه اذا هدأت نفسه لمعتا بريق
حبيب ، وانساب صوته يمسح على كل أثر سيئ تتركه كلمة
« البخيل » اذا نعت بها .

بل كان الذين يدعونه بالبخل لا يكفون عن الاحداق به
ما وجدوا أنفسهم في فراغ يستطيع هو ملأه . فكان يحاول الهرب
فاذا عثروا عليه في الأبله مرفأ البصرة الجميل أو في المربد سوقها
الكبيرة أو في مسجدتها أخذوه فجلس اليهم الساعات وهم
يسمعون .

كان البخيل اذا تهيات له أسباب الهدوء يستحيل أكرم ما يكون
حديثا ، وغادت أمه واحدة من سامعيه . وكان أبوه يعود الى
بيته بالحفير فيسمع منه أيضا ويمتحنه في تفسير آية أو شرح بيت

ثم يردد على مسامعه ما يقول عنه « عمه » سلم بن قتيبة ويعده
بزيارة ما له ، ثم يصرح بأنه يرجو أن يراه كابن المقفع الكاتب
الكبير وان لم يكن فكرؤبة بن العجاج .. وكان ذكرهما يملأ
البلد !

* * *

وفي ذات يوم اصطحب الأب عبد الملك الى البصرة وكانت
اذ ذاك تموج فرحا بما سمعته من أخبار المنصور الذي خلف
السفاح في الكوفة وأعاد سلم بن قتيبة الى اماراة البصرة .. كان
هذا الخليفة أكثر بغضا للموالى من السفاح ، وقد أوقع بأبى مسلم
الخراساني . فأحس العرب بكثير من الراحة ، الا أنهم ظلوا على
ما يشعرون به من قلق خفى . وكانت فرحة عبد الملك لا تعدلها
فرحته بصحبة أبيه لكى يقدمه الى أحد شيوخ المسجد الجامع .
كان قد وصل الى السن التى تعطيه حق تلقى العلم على أيدي
الشيخوخ الكبار ، وكان قريب قد قرر أن يقدمه الى أبى عمرو
ابن العلاء .. شيخ البصرة ومعلمها الأول ، وأشهر من تعمق في
القراء والعربية . ومثل هذه الظاهرة تدخل السرور دائما على قلب
أى رجل ، بله على قلب رجل من باهلة !

ورأى المجلس حافلا .. مئات من القوم ، وعشرات الحلقات .
والأصوات هدير كم سمع مثله وهو على شاطئ دجلة أو في
عراء الصحراء ، وثمة جماعات من الشباب تلهو وتطلق ضحكاتها
بين حين وحين . وجفل عبد الملك لا خوفا مما يرى ؛ فقد طالما تردد

على المسجد قبل ، وانما جفل تهيبا من الرجل الذى سيتقدم اليه .
كان مقتعدا الأرض تحت عمود من أعمدة الجامع فى بساطة ،
وفى تودد ! وكان وجهه ملائكيا بلحيته البيضاء ، وعينيه
الصفيتين ، ولما لمح أباه تبسم له ، واستدناه فانحنى قَرَيْنَبًا
على يده ، كأنما يهيم بتثقيلا ، وقال :

— هذا ولدى عبد الملك . انه يهوى العلم ، ويحب الشعر ،
وقد دوت فى أوراقه أشياء كثيرة !

ولم يشعر عبد الملك بشئ واضح على وجه التحقيق ، فقد
كانت الأمور تجري على نحو لم يألفه قط ، غير أنه أحس أنه
أصبح كبيرا ، وأنه قادر على أن يناقش كما يناقش هؤلاء
المتحلقون حول أبى عمرو . وألقى نفسه فجأة جالسا الى جوار
معمر ، عرفه برغم ازدياد جسده ترهلا ، ورآه يحدث فيه ، ويريد
أن يخاطبه بأى شئ ، الا أن تحفظه الشديد جعله يحجم
ولو لبعض الوقت ، وقد مضى قليل قبل أن يقول له :

— مرحى بالباهلى .

قال الأصمعى ، وهو يخافت بصوته خشية أن يفسد على
أبى عمرو درسه :

— ولا مرحى باليهوى . يقال انهم يطلقون عليك هنا سُبَخْتًا!
فتمللم معمرو قال :

— أفقد وصلتك ؟

فأجاب وهو يظهر عدم استعدادده للخوض معه فى أى حديث :

— ان شيئا عن الحمراء لا يغيب عنا هنا !

ولكن معمر بن المثنى قال بالحاح :

— ما رأيك في مصالحة ؟

فضحك عبد الملك وقال :

— ليس بين الأعراب والأغراب !

على أن الدرس لم ينته الا وقد وجد الاثنان أكثر من موضوع يتحدثان فيه ، وبدا أنهما يؤثران نسيان واقعة الأموى القتيل ، وتحولوا الى مطالعاتهما ، بعد أن عجزا عن المضي في نقاشهما الحاد .

— هل سمعت غزلية بشار بن برد ؟

— لولا أنه من المنقطعين لباهلة لكرهته .

— كأنك سمعت بها .

— ان الشعر العربى هو خير ما جادت به القرائح ، وبشار

ليس أحسن من الأولين . وابتسم معمر ، وقد أحس أنه أمام

نفس كبيرة . أحس أن هذا الباهلى بجسمه النحيل ، وعينيه

اللامعتين يقدر على أشياء ربما عجز هو عنها ، وقد غبرت عليه

عشر سنين لم ينقطع خلالها عن أبى عمرو وأضراجه ، وقال له :

— اذن فيجب أن تتقدم الى أبى محرز أستاذ البصرة فى

الشعر .

قال وكأنه يردد شيئا محفوظا :

— انه يقول الشعر فيجيد ، وقيل انه ربما نحلله الشعراء

المتقدمين ، وهذا ما سأعرفه بنفسى .

قال معمر :

— كم تبلغ من العمر يا باهلى ؟

أجاب :

— لا تقاس الرجال بأعمارها ، وأنا فى الرابعة عشرة .

وأثارت هذه العبارة كل ما فى نفس أبى عبيدة من عناد ، وتلك كانت صفة فيه ، وفتحت الباب ثانية لجدل طال حتى أطبق الظلام ، وتسلسل الدارسون خارجا بينما بقى المسجديون فى لهوهم لا يحورون عنه ، وقال معمر :

— يجب أن تصحبنى الى أبى محرز ، ونستطيع أن نتم حديثنا هناك .

ورحب عبد الملك بالاقترح ، الا أنه أضاع فى الطريق حماسه ، وبينما كانا يطرقان قال لمعمر :

— اننى لست أهلا لمقابلة أبى محرز حتى أتم حفظ ما عقدت عزمى عليه من رجز !

— وكم حفظت ؟

— أحد عشر ألف أرجوزة .

— كم ؟

— أحد عشر ألفا .. وأتمها اثنى عشر ألفا قبل نهاية هذا

العام .

— فيها البيت والبيتان .

— وفيها المائة والمائتان !

وخرج اليهما أبو محرز . ربعة عريض ، دقيق الملامح ، رحب

بهما أيما ترحيب ، وبينما كان يوقد القنديل الكبير قال لهما انه
ظن أن أحدا لن يسأل عليه في مرضته هذه ، ولكنه سعد ، ولا سيما
بالضيف الصغير ، فقال معمر :

— وقد تتضاعف سعادتك اذا قلت ان هذا الضيف كتاب
كبير .

قال أبو محرز :

— في العربية ؟

أجاب الأصمعي قاطعا الطريق على معمر :

— كل ما في الأمر أني أحفظ أحد عشر ألف أرجوزة .

وأصر معمر على أن يتكلم ، وقال ان حفظ هذا العدد الهائل
من الأرجاز قد يفيد صاحبه الا أنه لا يجعله عالما ؛ لأن العلم هو
ما يلتقى في حلقة أبي عمرو ، ويونس بن حبيب ، وأضرابهما .

قال عبد الملك :

— ولكن الشعر ليس الا سيلا الى هذا العلم .

وتدخل أبو محرز ، وقد أخذ مقعدا أمامهما ، وكافا قد
استويا جالسين في غرفة ضيقة حشدت بأرفف تنوء بالمجلدات ،
وقال :

— الحق أن عربيتنا شيء غريب .. ربما بدت لغة ، وربما بدت
أخبارا ، وربما ظنها قوم تفسيرا لآية كريمة من القرآن ، ولو قد
أدركنا أنها كل ذلك وأن الشعر هو المفتاح الذي يفتح كل
الأبواب اليها اذن لما اختلفتما على شيء .

ثم انطلق يتحدث على هذا النحو في صوت عال ، ولسان

يتن ، وبحماسة قربت اليه عبد الملك ، ولم يكن أكثر ما عرض
له يستهوى ابن المثنى ، فأخذ يتطلع الى صديقه الصغير ، ويتأمل
مظهره ، فرأى ثيابه رخيصة ، مهوشة ووجهه أليفا برغم ما فيه من
دمامة ، وبدا كما لو أنه أكثر طولا لأنه كان نحىلا .. وكانت
حركاته وديعة حلوة ، وبشرته السمراء تتفتح لبعض شعرات فوق
شفتيه ، غير أن قسماته كلها تتدفق حيوية ونشاطا .

وكان أبو محرز لا يزال مندفعاً في بيانه ، وقد بدأ يلقي من
الأشعار بعض ما يحفظ حين صاح عبد الملك :

— عفوا .. فقد أزف الموعد لألحق بأبى فى دار الأمير سلم .

وقام يحيى ، ثم انطلق يعدو ، وقد خلف وراءه الرجلين ..
معمر بن المثنى يظنه مغرورا ، وأبا محرز يقول فى هدوء :

— تشهد ملامحه برجل خطير ، فان صدق فيما زعم فهو
أعجوبة من أعاجيب القدر !

مُعْتَرِكُ الْحَيَاةِ

فتن عبد الملك بأبي محرز خلف الأحمر ، ولكنه لم يهمل درس أبي عمرو قط ، وبين الاثنين كان يحضر أحيانا لشيوخ آخرين ، ويقراء لمن يضعون الكتب ، وينشرون الرسائل كابن المقفع .. وقد لاحظ أن العلم تحول لكثير غير العرب ، فكان يعجب ، ولكنه اعتاد أن يردد ما قرأ لابن المقفع في بعض كتبه التي قرأها عند سلم « الدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك » .

وآمن أن ما على العرب برغم يقظة أبي جعفر المنصور لا يستطيعون دفعه الا أن تسكت هذه الأصوات التي تريد أن تنال من الأمويين فتنبش قبور الأولين بقسوة ، ودم بارد .

واذا كان الدين أفضل ما من به الله على الخلق فإن من أبشع الأضرار أن يعيث به في غمار الفتنة التي يحركها الموالى . وقد بلغ من سوء تدبير هؤلاء أن راحوا يعيشون فسادا في مجالسهم ، ولقد حضر مجلسا من هذه المجالس في دار بشار بن برد ، وهو يسميه « البردان » فراعه ما كان يقع فيه من تهتك ، واقبال على النساء ،

وتعريض بالثقة من رجال الدين ، وانكباب على أقذاح الخمر حتى تسلب العقول .

وسمع لأول مرة فيه عن أمور فاضحة نشبت بين أبى حنيفة الفقيه ، وبين حماد عجرد ^(١) ، واذا يكون هذا ندا لبشار ، وصديقا لحمام الراوية ، وحمام الزبرقان — وكانوا يتنادمون على الشراب في الكوفة — فالمسألة كانت اذن رغبة في اثارة الشك حول مسلك الرجل .. قد يكون نادمه حقا ، وقد يكون زميل شراب له ، ولكنه اليوم ناسك يطلب العلم الذى لا يستطيع حماد ، ولا بشار أن يصلا اليه !

وكانت اتصالاته بالمسجدين — وهم الذين يطيلون القعود الى مثل أبى عمرو وخلف ، كما يطيلون القعود الى عشاق مجالس اللهو — تكشف له عن ذلك الانحلال الذى أخذ يدب فى كيان المجتمع .. عن هذه الزندقة التى يحمل لواءها أغلب الموالى ، ورأى أن أبا عبيدة — صديقه — لا يألو جهدا مثلهم فى التعرض لأموال الدين ، وفى النيل من التراث الذى يشهد أنه يحفظ منه كثيرا .

وبدأ يأخذ نفسه بنقد كل شخصية تعترض طريقه ، فأما عيسى ابن عمر الثقفى فهو كأبى عمرو .. ثقة واخلاصا وايمانا بالعربية ، غير أنه كان يروعه بتقهره ، وانتهى الى أن أسلوبه فى العدول عن سهل الألفاظ الى الوحشى والغريب سبيلا نحو الأستاذية الصعبة .

(١) يحسن هنا مراجعة الأغاني ١٣ : ٧٥

وأما يونس بن حبيب فإن شبابه كان يملؤه ثقة بالغد ، ولكنه فيما يبدو لا يقدر على ما يقدر عليه أستاذاه : أبو عمرو ، وأبو محرز ، ولقد شهد أن رؤية بن العجاج قال له بعد أن اتصلت دراساته المجدية : حتام تسألني عن هذه الخزعات ، وأزخرها لك ؟ أما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك ! أترأه كان يدلس ، كما يقال ان خلفا أستاذه يدلس ، وكما يقال ان حمادا الراوية ليس أقلهما تدليسا ؟

وأما عمرو بن عبيد فهو يخوض دائما فيما يصعب تقبله بسهولة ، ويجمع مجلسه كثيرا من الملاحدة ، والصابئين ، كان هو يعرف منهم أفرادا رأيهم بين المسجدين ! وكان يحس بالاشفاق عليه ، لا سيما حين يرى ابن المقفع يأخذه بفصاحته ، وبما يقال انه ينقله عن الأولين .

وأما الخليل بن أحمد فلولاً أنه يدرك بفطرته صدق عقيدته لظن به الظنون ، انه شخصيا يحبه ، ولكنه لا يجب جلوسه الى هؤلاء المتكلمين الذين يملثون المسجد صخباً .

وأما هؤلاء القاصون — وهم كثيرون ، وفيهم من النقا قدر ما فيهم من المدلسين — فقد أحس أنهم يشكلون خطراً كبيراً على العقيدة السليمة ، وهو يذكر أنه كان يستمع الى أحد القاصين ، وهو يعرض للجنة بالوصف ، وصادف أن كان بشار ابن برد يرفس القاص يقول : من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ

في مثلها ! وهنا توقف بشار ، وقد كان يجوز الحقة ، وقال وهو
محتد : بسئت والله الدار هذه في كانون الثاني !
كان عبد الملك يروع بمثل هذا ، وكان كلما أطال فكره ازداد
إيمانا على الأيام بأن الأمر ليستقيم شديد المشقة ، وأن الخير في
هذا البلد ممتزج بالشر الى حد تضعيع معه الجادة ، فلما خرج
ابن المقفع بكتابه الذي نشره باسم « رسالة الصحابة » كان كمن
أصاب كبد الحقيقة !

ولكن عبد الملك كان قد وصل الى السن التي يستطيع فيها
أن يفلسف الموقف ، وكان قد انتهى منذ عام الى أن آثاره التي
اطلع عليها تؤكد أنه يصدر بها عن احساس هو خليط من نزعات
تضل الأوهام في تحديدها .. ولكن رأى غيره فيه ما يكون ،
وليكن عند بعض القوم رجلا قويا مسدد الفكرة لا التواء
فيه ، فهو على أية حال طائش الخطى على نحو ما من الانحاء .
انه يحس أن أسلوبه يزرع بأثقال التفكير فيما شغلت به
الموالى نفسها فاذا كان يدفع المرء الى أن ينقد أوضاع العصر
الاجتماعية نقدا نزيها على ما ظهر في كتابه الأخير الذي بعث به
الى المنصور ، فان العين العربية لا شك مكتشفة أمورا ترمى الى
تلميز مجتمعهم هم .

هو في الظاهر صادق حين قرر في رسالته أن كل شيء فسد
في المملكة ، وأن الفقهاء ضاعوا ، وضيّعوا الحق في فتاواهم ،
غير أن القيم الفارسية التي انتشرت في البصرة كانت حلما من
الأحلام التي ينبغي أن تتحقق .. ومن ثم فان الداء العضال كامن

في رأس الدولة ؛ لأنه لا يعزز جيشه بجند الخراسانية ، ولا يرفع يد المقاتلة عن نظام الخراج ، ولا يريد أن يقيد سلطة القضاة العرب ، ولا يقيم نظاما سياسيا بعيدا عن السنة والكتاب الكريم ! هكذا .. هكذا الأمر بمتهى السهولة ، وباقتناث على الماضي الذى جاهد العرب فى بناءه ، فان كان يأخذ رأسه بدوار فلا أنه رهيب مدمر ، ولأن الاكتفاء فيه بحسن النية ، والرغبة الصادقة لا يجديان . فلا عجب بعد أن يحمد للخليفة صنيعا لم يختلف كثيرا عن صنيع السفاح بالأمويين .

ذلك أن عام ١٤١ كان قد أقبل على حركة غريبة من الخراسانية الذين نادى ابن المقفع بأن يكون الجند منهم .. كان هؤلاء قد هيصوا بموت أبى مسلم ، ولكنهم كانوا يتطلعون الى الانتقام فى أى وقت ، فخرجت منهم طائفة تقول بالتناسخ ، وتسمى نفسها الراوندية ، ولما كانت تخشى بطش الخليفة فقد ظنت أن الانتساب اليه يطمس حقيقتها .. فادّعت من ثم أن المنصور رب الراوندية . وبهذا الادعاء زجفت مئات الى الهاشمية فتمكن الخليفة من القبض على مائتين من زعمائهم .

وتطورت الأحداث بسرعة .. فقد تظاهر الراوندية وهاجموا السجن ، وأطلقوا سراح هؤلاء الزعماء . فلما انتهى الأمر الى الخليفة خرج بنفسه شاهرا سيفه ، ومن ورائه بعض خاصته ، فألهب خروجه صدر العامة فانضمت اليه ، وكان فيهم محارب لفت الأنظار بلثامه الذى يضعه على وجهه ، وبجرأته التى كانت تذوب أمامها حماسة الثائرين .

وكان لابد أن ينتهي كل شيء على ما قدر المنصور .. ولما كان لا ينقص رجاله الحماسة الى جانب العقيدة السليمة ، فقد أيد الراوندية عن آخرهم ، وألقيت جثثهم في الطرقات تأكلها الكلاب ، وأسرع عبد الملك الى جماعة من المسجدين شهدوا آثار المعركة التي بدأت ، وانتهت منذ يومين .. وكان شديد الرغبة في أن يسمع منهم تفصيل التفاصيل ، ولكن هيهات فقد اكتفوا بأن قالوا انهم كانوا يشاهدون هنا وهناك جسدا نهشته العقبان أو الكلاب ، وكان المنظر يبعث على الاشمئزاز والقسوة ، الا أن ذلك لم يكن منه بد ، فقد كانوا ملاحدة ينكرون الله ، وقال له معمر بن المثنى :

— أرايت الى ساحة القتال ؟ انها لحم ودم ، وكان من أشق الأمور علينا أن تتبين لحم من هذا ودم من ذاك ، وهكذا عدنا لنحيا على السيف ، ونموت بالسيف !

قال عبد الملك في دهش :

— ماذا تعنى يا معمر ؟

— خرج المنصور من القصر ، وقفل ، وكأنه عاد من حانوت قصاب .

— أفكرهه ؟

— ولم أكرهه ؟ انه جندي صندي يحارب زنادقة كما يقول ، وان كنا نعرف أن الراوندية كانوا شيعة أبي مسلم الشهيد .

— أتسميه شهيدا ، ولم يقتل في سبيل الله ؟

وتذكر كيف كانت الخراسانية تخرج على قتيبة بن مسلم الباهلي ، فامتعض ولم يملك الا أن يقول :

— أنت منهم يا معمر .. افك تكره العرب ، وقد أغفر لك ما دمت لا تقدم شرا كهذا الشر الذى يقدمه بنو جلدتك .
قال معمر :

— يا عبد الملك ، ان ما يربطنى بك هذا العلم الذى نجتمع عليه ، وما بعد ذلك فهو للأقدار يوقتها الله ، ويهيىء السبل الى غاياتها ، فان أردت ما يغذى كبرياءك فاليك حكاية المقنع الذى ظهر فقلب ميزان القوى ، وكما أن الحبة لا تقدر أن تخلع يابسها الا بالماء لتظهر ، فكذلك هذا الرجل .. كان طريدا ، لأنه واحد من الفئة الضالة أحبابك يا عبد الملك ، ولكنه تعرف الى الماء فى الحين المناسب !

ووثب عبد الملك وصاح :

— أتعنى أنه أموى ؟

أجاب :

— أجل ، ومن شيان ، يسميه خليفة المسلمين أشد الرجال ، وبالأمس كان معن بن زائدة .

— هو اذن .. تعنى قائد ابن هيرة ، يا لك بطلا عربيا !

فقطب معمر ، وقال :

— انى كثيرا ما أسائل نفسى أجاء مخلصا للحق أم جاء مخلصا لنفسه ؟ ولكنه على أى حال قلب ميزان القوى ، لقد رآه المنصور تنشق عنه الأرض ، ولم يكن ليبعد عنه أكثر من خمسين أو ستين قدما ، وبدأ يشق طريقه قادما اليه ، وهو يصيح « أنا لك يا أمير المؤمنين » هكذا يحكون ، وكان أمره عجيبا .

فهو لم يكن عملاقا كالمصور ، ولكنه كان خفيف الحركة كالقط .
قالوا وشق طريقه الى أمير المؤمنين بعد أن صرع عشرين رجلا في
أحدى هجماته الوحشية ، ولما كان يرتد ليستريح كان يداعب
بسيفه مقاتلين أو ثلاثة ، وهكذا حتى قضى على الخراسانيين .
وارحمتا لهم !

قال عبد الملك وهو يتنفس الصعداء :

— بل وارجمتا للمسلمين !

بَدْءُ الْحَيَّةِ

انقضى شهر أو نحوه على هذه الواقعة المشهورة ، ثم شاع خبر موت سليمان بن علي أمير البصرة ، وعم المنصور ، وانقطعت بذلك تلك المجالس التي كان يعقدها في داره للشعراء والعلماء ، والتي كان يلتبس فيها عبد الملك الخلاص من تفكيره كمراهق له بغية في بيت الأمير الباهلي ، وكان في هذه الأثناء لا يزور داره الا لماما . وقد انتهى الى أن الناس يجب أن يكون لهم عمل أصيل ليقولوا قولاً بديعاً ، أما أن يكتفى المرء بأحلام ليجمع فيها الى كل لون شبهه فهو أمر لا يمكن أن يكون ، لا سيما أن الموالي قد تمرسوا على ما كان ينبغي أن يقتصر على العرب وأصبح خطرهم واضحاً .

والحق أن البصرة في هذه الفترة قد تعقدت تعقداً شديداً ، واستحالت بعد موت عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة على شفا حفرة من الانهيار ، وإن كانت تتقنع بقناع البحث عن الحقيقة دائماً .. حتى تبدو للرأي بوتقة علم تنصهر فيها الرواية بالخطبة بالقصة بتفسير الآية بمناقشة حق أي « علوى » أو « خارجي » في

الحكم ، وامتدت هذه الحركة المحمومة الى الدور نفسها والى مساجد القبائل التى كانت تنتشر فى أحياء البصرة .

كان آل موسى بن عمران يجمعون فى دورهم المعتزلة ، وأهل الحديث ، والمرجئة . وكان آل نوبخت — الذين وفدوا على البلد مؤخرا — يفتحون بيوتهم للأدباء كافة . وكان المهالبة والباهلون يتنافسون — كما يفعل آل سليمان — فى اجتذاب رواة الأخبار والشعر ! وبدا واضحا أن مثل هذه الدور تمثل فى حيويتها حيوية البصرة نفسها ، ولكنها كانت تتقبل كل شىء حتى عمليات احياء تراث الفرس وغيرهم .

كانت عين عبد الملك اللاقطة تسجل كل أولئك ، فلما تحولت الى المريد — وهو سوق وأهم أحياء البصرة — اجتذبه اليه اجتذابا .. فقد صادف هوى فى نفسه بما كان يلقي فيه من شعر وخطب ، وبما كان يفتن فيه من مساجلات ومناظرة ، وأدرك أن ما سمعه عن جرير والفرزدق والزاعى والعجاج كان استجابة طبيعية لنوع الحياة فيه . لقد طالما دخله صغيرا قبل ، فلم يدرك قيمة ما كان يسمع فيه ، وأما اليوم فهو قادر على أن يرى فيه الياقوت والزبرجد والمرجان ، فينظم كل هذا قلائد وسموطا .

وربما أحس أنه يفتقد أمثال الفحول ، غير أنه رأى جدواه مؤكدة وهذا هو أستاذه يسأله حين قفل عنه أمس : من أين أقبلت يا أصمعى ؟ فلما أجاب « من المريد » قال : هات ما عندك !
أبو عمرو بن العلاء عاد يسمع منه ما يحصله من المريد ..

ولما راح يقرأ عليه ما كتب في ألواحہ ، ومرت ستة أحرف لم يعرفها
خرج يعدو وهو يصيح :

— شمرت في الغريب !

واليوم يشهد ابن المقفع يقبل على جماعة من أهل العلم
والأدب .. كانوا يجبونه وكان هو يشبش بهم ، وقد بدأهم
السلام ، ثم قال :

— لو ملتم الى نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ،
ونسيمها العجيب فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم
دوابكم من جهد الثقل ، فان الذي تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما
قضى الله لكم من شيء تنالوه !

كان فصيحاً .. ولولا سوء ظنه به لأقبل عليه عبد الملك ، وقال
له « كم أنا معجب بعلمك وفضلك ، فهلاً اتخذتني تلميذاً أنهل
من بحرك » وتبعه بنظره من بعيد ، ورآه حين يستقرون في الظل
يقول :

— أى الأمم أعقل ؟

فعجب لسؤاله ، ولمح أصحابه ينظر بعضهم الى بعض ،
ولعلمهم عجبوا أن يلقي عليهم السؤال ، وقال أعرابي : لعله أراد
أن يمتحنه أو يتقرب اليه :

— الفرس !

فهر رأسه بعنف وقال :

— ليسوا بذلك . انهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا
عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبت فيهم عقد

الأمر فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم .

سكت ، فقال بعضهم مجاورا :

— الروم !

فقال :

— أصحاب صنعة .

قالوا :

— الصين !

قال :

— أصحاب طرفة .

قالوا :

— الهند !

فقال :

— هم فلاسفة .

وما زالوا بين ذكر الترك ، والخزر ، والسودان ، وغيرهم حتى

سئموا فقال واحد منهم :

— لعلمهم العرب !

وهنا انبرى قائلا :

— أجل العرب .. أما انى ما أردت موافقتكم ، ولكن اذ فاتنى

حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة . ان العرب حكمت

على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ! أصحاب ابل وغنم ،

وسكان شعر وأدم ، وجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بجهوده ،

ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة
وفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء
فيقبح .. أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم همهم ، وأعلتهم قلوبهم
وألستهم ، فلم يزل حباء الله فيهم ، وجباؤهم في أنفسهم حتى
رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم على
الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر !

واهتز الأصمعي . أهذا هو ابن المقفع على حقيقته ؟ أم تراه
تتقرب الى العرب ، وفيهم شبيب بن شيبة خطيب البصرة الكبير ،
وأبو الجاموس ثور بن يزيد شيخ الأعراب ؟ انه يخوض في مدح
العرب خوفا .. فمن له بمن يأتيه بمعمر بن المثنى ليسمع ويرى
سيدهم ، وأستاذ البيان عند الجميع ، وأكبر كتاب البلد ! ولكن
هيهات ، فقد قطع عليهم خلوتهم بعض الشرط ، وهمس واحد
منهم في أذنه بشيء فأسرع الى برذونه يخبئ به مصعدا الى الشمال
ومن ورائه ثلاثة من الفرسان ، ثم لم يره بعد ذلك .

وسمع بعد أيام أنه قتل .. قتله أبو جعفر وان يكن أجبه
يوما ، ولكن المحبة مهما تبلغ المرء مبلغ الفضل فانها لا تغنيه من
مسئولية شططه ، وحسب رسالته جراءة على مكانة الخليفة لكيلا
تغنيه ما يريد ، بل لتودي به في آخر الأمر .

ولكن مقتله وان هان عليه شيئا فقد فرض عليه التثبيت
فيما كان يطمع فيه ، فان الطلب لا ينفع الا بالتخير الرشيد ،
ولم يحسن ابن المقفع ما تخير ، ولم يكن الى ما يمسك رفق
بأحوج منه الى ما يتثبت به على تخيره . وهكذا ضاع ، فكم

ينبغي أن يضيع غيره ما داموا ليسوا أهلاً لما يتخيرونه ؟ هذا هو
بشار ، ومعمر ، وسلم الخاسر ، وحماد ، وعبد الكريم
ابن أبي العوجاء ، وغيرهم .. كلهم يتكبون الجادة ، ولا يستطيع
هو أن يفهم لماذا لا يلتزمونها .

هكذا يتحدث الى نفسه ، والى عشيرته فى حى بنى أصمع ،
ولقد راح يصفى على حكاياته الكثير من السحر ، وربما كان فى
هذا اليوم واثقا كل الثقة من أنه على صواب فقد كان كل ما يتصل
بماضى العرب مبعث اثاره وتقديس ، وكان اذا صور هذا الماضى
وعبث العابثين به من الموالى اندفع بحماسة وتأثر ، وراح صوته
النفاذ يأخذ بالألباب ، ولم يكن فى طبعه انتكاف ، فكانت بساطته
فى اقامة الحجج تمتلك القلوب امتلاكاً .

واتضحت الصورة التى كان اعتاد أن يرسمها لأخيه عبد الله ،
فقى جانب منها يقوم الحق .. الشعر ولفته ، ومذهب السنة
ببساطة ، وفى الجانب الآخر ينهض الباطل .. تطلّع الموالى الى
تصدّر الحياة فى البلد العجيب ، وجدل المعتزلة الذى يفتح السبل
أمام الزنادقة !

فى جانب يرى الدين يظاهر العلم والرواية والصدق ، وفى
جانب مضاد يرى المجون والتشيع والافتراء فى خدمة واحد
كالذى قتل ، وبشار أو معمر ، وإن موضوع « حسن الاعتقاد »
لهو الشئ الذى يجب أن يتسلح به العاقل الذكى .

كان المعتزلة يزعمون أن العقل ينظم شتى المعتقدات ، وبأسوء
ما يزعمون ! ان العين اذا وقعت على كتاب « الألف مسألة » الذى

وضعه واصل بن عطاء مثلاً لا يدري أهو في خدمة الدين حقاً أم في خدمة مؤلفه الذي يتيه بقدرة العقل على كل شيء ، حتى على وجوب معرفة الله عن طريق الاستدلال به ، ومن غير منبه أيا كان هذا المنبه !

ولكن التشكيك في القيم والأصول والأخبار والقياس الشرعي الذي شغف به علماء البصرة برغم دعوات المعتزلة .. كل هذا إذا مس نفس عبد الملك أصبح لونا من الصبا لا يتقبله ، وقبلما يتقبله العقلاء ؛ فإن هؤلاء إذا اقتنوا أحيانا بالنزعات المتحررة فهم يشتمون فيها كثيراً من رائحة التدبير ، الشيء الذي ينبغي أن يثقت إلى أبعد حد .

قال عبد الله ، وهو يردد كلامه :

— العقل ، القياس ، ولكن ماذا إذا كان هذا العقل يهدي إلى الرشد ؟

فهتف الأصمعي الشاب :

— أكثر ما أخشى على طالب العلم مثلي إذا اعتد به هلك ، والا فكيف نعتد بما تركه الأولون ؟ اننا نشترط الصدق ، فيمن يحمل لنا تراثهم ، فلماذا نسلط عقولنا عليه بالطريقة التي تبعث على الشك فيه .. قل لي يا عبد الله ما دخل العقل إذن هنا ؟

قال عبد الله :

— ولكن الدين ...

فقاطعه عبد الملك صائحاً بصوته النفاذ :

— الدين أن تصدق بما في كتاب الله وسنة رسوله ، ثم تتسلح

بأسباب الصدق بعد ذلك ، أعنى اللغة الصحيحة ، وفى رأى مثلا
أن من لم يدرس النحو يدخل فى جملة قول الرسول « من كذب
على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » لأنه عليه السلام لم يكن
يلحن ، فمهما رويت عنه ولحنت فيه فقد كذبت عليه .

وصوب أخوه نحوه نظرات شاردة .. كان دهشا غاية الدهش ؛
فلقد كان يسمع اليه كثيرا ، ولكنه لم يسمع شيئا كالذى يسمعه
الآن ، ولكن لم يكن فى طاقته أن يناقش هذا الشاب قسيم العلماء
الكبار ، بلغته الواضحة ، ومنطقه السليم ، وعينه المتقدتين !
ولما أراد أن ينهض لبعض أموره استوقفه قائلا :

— ألا تريد مزيدا مما عندى فى هذا ؟ أقولها صريحة يا أخى ..
ان تزندق أكثر القوم فى البصرة راجع الى جهلهم بالعربية ،
ولو كانوا مطلعين على خفايا اللغة لفهموا حقيقة القرآن والحديث ،
ولما اعتراهم الشك فى الدين . هذا ما هدانى اليه التفكير حتى
الآن ، ومن يدرى فقد يأتى الغد بما لم يكن فى الحسبان .

الشعر... الشعر

دخل على الأمير سلم ، وهو جالس على طنفسة خز ، وكان يستمع الى غناء يأتيه من وراء ستار .. غناء رقيق لم يكن بحاجة الى أن يخبره أحد أن صاحبه لباب الجارية التي يهوى اليها . فتحركت نفسه ، ولكن لم يكن يملك شيئا يفعله وكان قد انتهى الى ضرورة الكف عن التفكير فيها .. فقد أدرك أنها لا يمكن أن تكون له شيئا وآل سلم متعلقين بها ، فأخذ مقعده دون أن ينبس ، فقال سلم :

— العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ؛ فيختار ما يسره .
فان رأيت ما يسرك غير هذا رفعت هذا الستار .
وقبل أن يجد الكلمة المناسبة صفق بيديه ، فما أسرع ما أزيل الستار لتظهر لباب في ازار له ذبان ، ويدها دف ترمي به ، وتتلقاه ، وتغنى :

يا ليسلتى تزداد نكرا من حب من أحبت بكرا
وهمس سلم :

— الشعر لبشار ، وحركات الدف لجابة ، أفأخبرك عنها ؟
قال الأصمعي :

— جارية يزيد بن عبد الملك ؟

قال الأمير :

— أجل ، وكان قد عشقها الى حد الموت ، وقيل انها كانت تاكل معه رمثانة ، فشرقت بحة منها كان فيها النهاية ، فأقام لا يدفنها ثلاثا وهو يشمها ويرشفها حتى أتتت . بالله يا لباب دعينا الساعة لأخبار الأولين ، فما عندك من أخبارهم ؟

وانطلقت لباب ، فانطلقت أيد الأصمعي .. ولكنه تمالك ، وشد نفسه ، وسرعان ما واثته ذاكرته فقال :

— أفتريد اليتيمة أم غيرها من مولد المحدثين ؟

— والله لقد شوقتنى الى اليتيمة يا عبد الملك ، وأذكر جلستك الأخيرة حين شرعت تتحدث عن صاحبها سويد ، وقلت انه شاعر يشكر !

— بهذه القصيدة فقط ، ولكنه كان مغلبا .. وكان تردده بين ديان ويشكر قد أوهن عزمه ، فلم يظهر ، وظهر عليه الخصوم . — فما تراك جاعلا منه ؟

— يوضع مع عنترة أو أبى كبير الهذلي ، أو نحو هذين .. لقد أدرك الاسلام شيئا ، وكان أبوه شاعرا ، وهو الذى يقول :
كان رحلى على صقعاء حادرة طيا قد ابتل من طل خوافيها
وانما دعنى الى قصيدته هو :

بسطت رابعة الجبل لنا فوصلنا الجبل منها ما اتسع
وراح صوته ينساب ، ويداه تهتران ، ويقوم شيئا ثم يقعد ،
والأمير قبالة مأخوذ بما يرى ويسمع . وقد كان ذلك دأبه ، فاذا

صار الى التعليق والشرح بدا للسامعين أحد هذه الفئة التي ابيضت لحاها تحت عمود من أعمدة المسجد الكبير ! ولقد كان الأمير يفتن به ، ولا يجد غضاضة في التعرف منه على أمور ، اذ اعتاد أن يقول انه لا ضير اذا وقف الرشيد نفسه على غيره ، فانهم بتجربتهم عليها يصيرون حرسا لها ، فلا تتعفن ولا تتأسن ، وتفيض دائما بالفضل الكثير .

وكان عبد الملك اذا جلس جلسة المعلم لا يغيب عن باله أنه لا يزال طالب علم ، وأن لباسه هذا الى حين ، ثم يخلعه اذا كان من خلعه بد .. فمن نصب نفسه للناس هاديا فعليه أن يأخذ بالعلم من أطرافه ، وأنتى له هذا كله ؟

ولكن الشعر كان نقطة البدء دائما ، ولهذا كان أساس تقويم السيرة والرأى تفهيم القصد القديم ، ومن غير أبي محرز خلف قادر على أن يساعده عليه ؟ من سواه يجعل تعليمه الشعر أبلغ من تعليمه بالأخبار والقصص والتاريخ ومتون اللغة ؟ أليس في القصيدة الواحدة كل هذا ؟ أليس فيها الغريب ، والمسألة النحوية ، والخبر الصادق ، والتاريخ البعيد ؟

لقد وصل الى المرحلة التي عرف فيها قيمة الشعر الحقيقية ، ولعل هذا هو ما دعاه الى أن يغضى عن كثير مما تجرّه اتصالاته بخلف . انه يحس أن أبا محرز يفتت أحيانا ، ويرى أن علاقته بحمّاد — وهو الزنديق المتهم في روايته — تناله هو بشيء من الشر ، غير أن أستاذه أبا عمرو — وقد كان يقدمه على نفسه ما أنه يروى عنه أحيانا — كان عاملا من عوامل اطمئنانه اليه .

ومع ذلك فللمسألة وجه آخر ، فقد كان حماد أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها ، وكان أبو محرز خلف — الذى روى عنه — أفرس الناس ببیت الشعر ، وأعلمهم بالقصيد . وعلى أساس القاعدة التى بسطها لأخيه عبد الله يستطيع أن يفيد بهذا الوضع ، حتى وإن قامت التهمة حائلا بينه وبين التصديق ، ومن ثم لا عجب أن يلزمه دائما ، وأن يقصده ما وجد الى ذلك سبيلا .. فبدا أن أحدهما لم يكن ليفترق عن الآخر الا ليلتقى به فى المربد أو فى الأبلّة ، وربما سافرا معا الى اليمامة أو بادية بنى أسد . وكانت حلقاته فى المسجد الجامع من أحبّ الحلقات الى نفس عبد الملك ، وأصبحت بالنسبة له شغله الشاغل ؛ فكانت أجدى عليه من حلقات غيره من الأساتذة كالخليل ، ويونس ، وشعبة ابن الحجاج وعطاء الملط .

كانا اذا فرغا الى تقسيمها راح عبد الملك يستمده شتى فوائده ، وساجله وناقشه فيما كان يصدر من آراء فى النقد .. فطرية ، ولكنها سديدة ؛ كان يقول : اذا أخذت أنت درهما فاستحسنته ، فقال لك الصراف « انه ردىء » هل ينفعك استحسانك له ؟ وذلك للقائل :

اذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه ، فما أبالى ما قلت فيه أنت
وأصحابك .

وفى احدى المرات كان يستعيد معه قصيدة جرير بن عطية الخطفى التى يقول فيها :

فيالك يوما خيره قبل شره تغيب واشيه وأقصر عاذله

فقاطعه قائلاً : ويله ، وما ينفعه خير يثول الى شر ؟ قال
الأصمعي : وكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو يقول
« فيالك يوما خيره دون شره » اروه هكذا ! أكان يقبل منه
ذلك ؟

انه يتطلع الى وجهه فيراه يضحك ، فيحار . ولكنه يقرر أن
المسألة وجهة نظر ليس الا ، ولعلها ليست أمرا يجب التسليم به ،
والا فكيف يستقيم هذا مع ثورته على ابن مناذر في احدى
المآدب ؟ لقد قال له : يا أبا محرز ان يكن النابغة وامرؤ القيس
وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري الى شعرهم ،
واحكم فيه بالحق !

لقد غضب ، وأخذ صحيفة منلوءة مرقا ، فرمى بها عليه فملاه !
ان الأصمعي لا يكاد ينتهى الى هذه الواقعة حتى يدخل
أبو عبد الرحمن محمد العتبي ، وكان على عجل ، قلقا أشعث ،
وما وقع عليهما حتى صاح :

— أما سمعتما ؟ لقد ظهر هنا ابراهيم .

وكعادة عبد الملك — كلما حز به أمر — اهتز ، ولكنه تماسك
وهو يقول :

— ابراهيم العلوى ، أخو النفس الزكية .

وكان العتبي كخلف الأحمر من شيعة على ، فاتقنت عيناه
حماسة ، وقال :

— أجل .. وقد طرد الأمير سفيان بن معاوية !

ولم يفظن الى عيني خلف ، وكان هذا يختلس النظر الى

الأصمعي ، ثم يردهما اليه محذرا .. فقد كان يعلم أن تلميذه
يسخط أشد السخط على من تحدثه نفسه بأثارته عن طريق
العلوية ، وظن أنه لا شك فاقد صوابه في هذه اللحظة ، غير أنه
كان مخطئا ؛ لأن الأصمعي كان في عالم مختلف عن عالمهما تماما ..
كان يستعرض شريطا طويلا لمنازعات العلوية ، ولظهور محمد
النفس الزكية في المدينة ودعوة أخيه له في العراق ، ثم هربه من
بلد الى بلد ، والمنصور مجتهد في الظفر به .

فماذا حدث ؟

هذا هو العتبي يخبر بأنه في البصرة ، وبأنه طرد أميرها
سفيان بن معاوية ، فما أبشع ما يرتكب ذلك العلوي ! ولم يحس
الا وهو يهب على قدميه ، ثم يخرج مندفعاً الى الطريق ، فيتأكد
من كل شيء ، ويحس أن النهاية لا شك وشيكة ، فيأخذ نفسه
شعور بالموت ، وهو في طريقه الى بئر الحفير مرددا في أسمى بالغ :
وما ينجى من الغمرات الا براكاء القتال أو الفرار

المهرب

امتطى بعيرا قويا ورحل ، فلم يكن ثمة ضرورة للبقاء ما دامت الدنيا قد انتزعت ممن استمكن فيها ، ولم يحاول أبوه أو أخوه أو أمه صرفه عن بغيته .. فقد كانوا يرون ان من يأخذ بحظ من مذهبته لابد مذهب به ، لأن أى علوى لن يتركه ! وكان ابراهيم فى هذه الأثناء يفرّق العمال فى البصرة ، والمنصور مشغول ببناء مدينته الجديدة التى سمّاها بغداد ، فلم يدر أيهما أكثر حاجة الى الحساب وأيهما استوجب بعمله مزيدا من الزجر ، وقد بددا شمل المسلمين وأعانا على الفتنة !

ولم يكن فى نيته أن يقصد الحجاز ؛ لأنه كان يعلم أن النفس الزكية قد استقر فى ثرب ، فضاع — مؤقتا — ما كان يؤمل من الجلوس الى نافع المقرئ فى مسجد المدينة ، وكان كل منزل ينزله يبدو فى عينه غليظا جافيا اما لخوفه من أحد العلويين ، واما لاحساسه بالفراغ فيه . ووجد نفسه لأول مرة فى حياته بين الجبال الموحشة ، دون أنيس معه ، وسمع الى عواء سباعها ، فلم يزد الا اصرارا على التفرّد . وكانت اللحظات التى يلتقى فيها بأى بدوى تدفعه الى الاستمرار فى هذه الرحلة العجيبة ، برغم

ما يلقي من مشقة ، وبرغم إرهاق بدنه يصوم رمضان . وفي ذومة
الجنبدل التقى بواحد من الأعراب قمينا جافيا ، ولكنه عرف فيه
أنه من بنى مرة ، فسرعان ما سأله : ما أخبار عقيل بن علقمة معك ؟
وكان عقيل هذا من أشهر قومه ، ولا يصهر الا الى الخلفاء
وزوج ابنته « الجرباء » — وكانت جميلة — الى يزيد
ابن عبد الملك ، وحين سأله الأصمعي كان يجري على القاعدة
التي بنى عليها حياته وهي أن صغر شأن المرء لا يعوق اجتناء
ما صح من رأيه ، فان اللؤلؤة الكريمة لا يشتريها غائصها ، وليس
من الخطل سؤال هذا المرء القمى ، ولقد تطلع اليه الأعرابي طويلا
قبل أن يقول :

— ما حرفتك ؟

أجاب عبد الملك بخفته الحلوة :

— الأدب !

فتبسم الأعرابي ، وقال :

— نعم الشيء ، ولكن باب التوفيق في التأديب أن تكون

نفس صاحبه كبيرة ، فانه ينزل المملوك في حد المملوك !

قال عبد الملك جادا :

— لقد هممت به لا يغلبني فيه فتور ، وحصلت منه شيئا .

فتنهذ الأعرابي تنهيدة مستطيلة ، وقال :

— هذا حسن .. فما يدل على كمال المرء علمه بما لم يدركه ،

وما دمت سألتني عن عقيل فلن أذب بلساني عنه ، ولكني آخذه

بحمقه .. أتدرى ماذا قال حين سأله : لماذا تهيج قومك ؟

وهز عبد الملك رأسه برفق ، فاستطرد الرجل قائلاً :

— قال « الغنم اذا لم يصفر لها لم تشرب » أجل ، ولعله
كان يقدر الأمور على نحو رآه خليقا بأهله ، وان كان لا يجرى
على موافقتهم ، ولو كنت حيا لقلت له زيتن نفسك بالمكارم في
حدود ما لا يظهر به فخر ولا عجب ولا سفه ولا حمق !
قال عبد الملك :

— فقد كان اذن سفيها أحق !

قال الأعرابي ، وهو يحدث في الشمس التي أوشكت على
الغروب :

— كان اذا خرج يمتار خرج بابنته الجرباء ، فنزل بها وبابنه
عملس دير سعد من أديرة الشام ، ولما آن له أن يرتحل عنه قال :
قضت وطرا من دير سعد وطالما على عرّض ناطحنه بالجماجم
يا عملس أجيز ، فقال :

فأصبحن بالموماة يحملن فتية

نشاوى من الادلاج ميل العمائم

والتفت الى ابنته الجرباء ، وقال لها : أجيزي ! فقالت :

كان الكرى سقاهم صرخدية

عقارا تمشنى في المطا والقوائم

فصاح : وما يدريك أنت ما نعت الخمر ! وأخذ السيف ،
وهوى نحوها ، فاستغاثت بأخيها عملس ، فحال بينه وبينها ،
فأراد أن يضربه وورماه بسهم فاختل فخذيه فبرك ، فمضيا بالقافلة ،
حتى اذا بلغوا أدنى ماء لأعراب قالوا لهم : انا أسقطنا جزورا

فأدركوها ، وخذوا معكم الماء ! ففعلوا ؛ فإذا عقيل بارك ، وهو يقول :

ان بنى زملوتنى بالدم
شنشنة أعرفها من أخزم
من يلق أبطال الرجال يكلم

كان الأصمعي يسمع وهو مبهوت ، وكان في الوقت نفسه يقارن بين هذا المرثي وبين أبي مهدي ، وأبي الجاموس ثور ، وأبي مالك عمرو بن كركرة ، وأبي البيداء الرياحي ، وأبي سوار الغنوي .. الأعراب الذين لزموا المربد ، واتخذ بعضهم مجالس في المسجد لا يبرحونها ، انهم يبدون ازاء هذا البدوي صغارا ، كما يبدو هو ازاءهم صغيرا ، ولكن أفتكون حياة المدينة ايذاا بوضع نهاية لعلم الأعراب ؟

انه يريد أن يشكر له هذه اللحظات الماتعة ، ولكن يده تغلبه ، فتتمدد الى الخريطة التي يحملها ، فيخرج منها أوراقه ويكتب ، فيقبل عليه المرثي ، وهو يقول :

— لو لزمتنا لأعطيناك من ذلك الكثير .. فاكتب ، اكتب أن الشنشنة هي الطبيعة ، فقد تلزم هذه من يجمعون اللغة عندكم ، وأما أخزم فهو الفحل المعروف ، والبيت مثل تقوله في كل شيء شبه بسواه .

قال عبد الملك فجأة ، وقد هز ساعديه :

— هذا أعرفه .. أخزم أحد جدود جاتم وكان جوادا ،

فلما نشأ حاتم مثله شبه جوده بجود الجد فقيل « شنشنة من أخزم » .

فاستضحك الأعرابي وقال :

— بل يقال ان أولاد أخزم بعد أن مات ، وكان عاقا ، وثبوا على جدهم فأردوه فقال هذا الشعر !
قال عبد الملك :

— ان كان ذلك فنحن لا نعلم .. ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم بما لا تعلم !
قال الأعرابي :

— هذه معاذلة أهل الحضر .

فقال عبد الملك :

— بل كلمة قرأتها لابن المقفع ، وكنت أرجو لو لم يقلها واحد من الحمراء .

وهنا قفز الأعرابي على قدميه ، واتجه الى عبد الملك يعاقبه ، فكانت مفاجأة لم يدر مبعثها ، وان يكن أحس أن الأعرابي انما أراد أن يؤكد له أن الأديب ينبغي ألا يسلم القيادة لأحد ، وأن الحذر مع ذلك لا يوجب الادبار والنكوص ، ومن حاول الأمور احتاج فيها الى الاجتهاد والفرصة ، والكلمة الفاصلة ! فقام يعاقبه وهو يقول :

— يا أخا العرب ، أظننتني غير ما أكون ؟

فقال :

— والله هذا كان حدسي ، فهذا الوجه .. غفوا ! فللعرب
وسامة لا تخفى فممن أنت ؟

أجاب مسرعا ، وقد استخفه الطرب :

— من باهلة .

فأطرق مليا ، ثم قال :

— أقص عليك من أمر باهلة شيئا ؟

فلوَّح عبد الملك بيديه ، وصاح :

— ان كان ذمّا فقد كفاني معمر ، والا فهات ما تريد !

قال الأعرابي :

— مفخرة وأيم الله يا رجل ، ألم يسأل أبو جعفر سلم

ابن قتيبة سيدكم : ما ترى في قتل أبي مسلم ؟ فذكر قوله تعالى

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » لقد قال له أمير المؤمنين

بعد هذا : حسبك الله أبا أمية ! فأين الخزي ؟

وضحك عبد الملك ، ثم قال :

— ان كان كذلك فلا خزي أيها الشيخ ، ولكني أعلم أن من

خمول الذكر ما يجمل في بعض الأحيان .

قال الأعرابي :

— أنت تتكلم كأهل البصرة ، ولولا أن الله يدعونا الى افطار

الغروب لخصت معك فيما لا تعرفه عنهم وعن قبيلتك ، فما استطعت

أن تناقلني شيئا ، فهيا . فان وراء النجع هذا عشيرتي في انتظار !

وكان من العيب أن يعتذر ، ثم كان من العيب أن يتحرر من قراه

بعد ذلك أياما ، وكم جلس اليه ونقل عنه في ألواح ، وكم أفاد
وأخذ بسعة ادراكه ! الا أن ما أثاره حقا هو ما حدث في يوم
السوق ، وقد صادف آخر أيام الصيام ، فقد أحضره الى شيخ
عالم بالشعر وأيام الناس ، اجتمع اليه فتية راحوا ينشدونه ؛
فكان يهب للمجيد منهم ناقة ، ويأخذ من المسىء شاة يأمر بذبحها
للإفطار .. وشاهد الشيخ يقرع رأس منشد لم يجد بمحجن معه ،
ثم قام فتى راح يهدر بصوت غليظ ، ويقول وهو يصف ليلة :
كأن شيط الصبح في أخرياتها

ملاء ينقى من طيالسـه خضر
تخال بقاياها التي أسار الدجى

تمد وشيعا فوق أردية الفجر
فقام الشيخ كالمجنون مصلتا سيفه حتى خالط ابله ، وصار
يضرب يمينا وشمالا وهو ينشد :

لا تفرغن في أذى بعدها

ما يستفز فأريك فقـدها

انى اذا السيف تولى ندّها

لا أستطيع بعد ذاك ردّها

واذ هم في هذه الحال أقبل رسل عليهم في خيل لهم يحملون
نبا مصرع النفس الزكية بالمدينة ، فقرر عبد الملك على الفور أن
يركب ناقته الى الحجاز ، وهو مزعم قضاء العيد في الطريق ،
وحفره الجو الشتوى الى ذلك ، ولم يشنه عنه أحد .

وبدا الطريق الى تيماء جميلا .. تلوح فيه أرض الصحراء
معشبة خضراء ، وكان يلتقى بين الحين والحين قوافل البدو في
قطاعاتها الصفر . واخترق وادي « كلب » الخصب حيث شهد
احتفال الصبية بالعيد ، ثم مال الى احدى الواحات ، فأنفق ليلته
الأولى فيها . وفي الصباح كان يقترب من مشارف « تيماء » وكان
بها بعض الآثار القديمة وخرائب وقعت من نفسه أجمل موقع ،
وخيل اليه أن النبي « صالحا » يدب بين أهله تاليا عليهم عظاته ،
ثم خيل اليه أنه يرى « الزبء » تقود الجيوش لقهر الروم .

ثم مضى من « تيماء » الى « مدائن صالح » حيث أثق شطرا
طويلا من اليوم الثاني ، واستراح الليل كله ، وفي الصباح اخترق
الصحراء هابطا الى « خير » ثم الى « فذك » قبل أن يلم
« يثرب » وقد وعت مخيلته رؤى حلوة أضفت على نفسه بعض
الطمأنينة ، ولكنه لم يكن مكتمل السعادة .. فابراهيم العلوى
لا يزال في البصرة ، ولباب تنغصص عليه ساعات صفوه ، وكان
وهو يصطلى بأشعة الشمس ، أو يستروح لا يجد مفرًا من أن
يتعرض لأحدهما ، ومهما يكن المشهد الذى يقع على بصره جميلا
فهو يغييم وراء الصورتين .. ابراهيم ، ولباب !

وشعر وهو في المدينة — سواء أكان في حلقة نافع بن
عبد الرحمن أم مع القصاص أم في بادية بنى عذرة — أن فؤاده
يهفو الى غير ما يدونه ، ولقد لقي من نافع كل ود ، وكان وكرعا
مثقفا تكسو وجهه مسحة من عناء ، فملا فؤاده شجنا ، والتقى
في حلقة بمرwan بن أبى حفصة ، وكان له عينان ضيقتان ، وصوت

صاف ، وهامة جليلة .. وتعود أن يجلس اليه يناقشه في شعره ،
ويدعوه غيره الى الاستماع .

وكان خلال مقامه في المدينة يثلم بمكة حيث ينزل صديق أبيه
سفيان بن عيينة المحدث الشاب المشهور ، فيجد متاعا في أن
يحفظ عنه أحاديث الرسول ، ويدون ما لا تسعفه الذاكرة بادراكه
وكان من عادته اذا استيقظ أن يقرأ بعض ما حفظه بطريقة نافع ،
ثم يستظهر نقول سفيان ، ويعود بعد ذلك الى صندوقه فيرتب
أوراقه ، ويستعيد ما فيها الى انتصاب الشمس .

وقد يعنّ له أن يلقي على نفسه ما سجل من أسفار الأولين
واذ ذاك يرتفع صوته ، وتهتز يداه ، ويدقّ بخفة على الأرض ..
ثم يعقب لسفيان على ما يلقي في طلاقة وبساطة ، فيقول له هذا :
— من الخير أن تكون شاعرا يا عبد الملك !

ولكنه لا ينصت اليه ؛ لأنه كان يطفر خارجا يستشرف الأفق
أو يتنسم الهواء بشغف كبير .

هذه الدراسة وما يتخللها من جدل ولجاجة لم تكن تصرفه
عما يثقل على فؤاده ، وكان برغم انطلاقه وارتسام الضحكة على
شفثيه في أغلب الأحيان لا ينسى يتوجع ويتخوف ، ويريد أن
يعود ليقارب عدوه بالقدر الذي ينال به حاجته ، لولا امساك
صحبته به ، وسؤاله أن يكف عن التطلع الى قرابة الخصم ؛ فهو
ان كان جاهلا لا يجدى معه الف ولا جوار !

جواب البوادي

شنشنة من أخزم .

وقد عرف حقا أن مثله في الغربة كثير ، فراح ينفق مع بعض منهم أيامه مرتادا أنحاء الحلل والنجوع وكان أحيانا ينفرد عنهم ما أحس أنه يريد شيئا لا يؤثر به سواه ، وفي كل الحالات يشهد ببصيرته ويسجل بذكائه ، وتعي حافظته من النوادر ما لا تستطيع حافظة صاحبه أن تعي .. وكان قد أخذ نفسه بشيئين ؛ أن يجمع من أشعار الجاهليين وأخبارهم ما وسعه ، وأن يلم ببلاد بني عامر ليسمع من أخبار مجنونهم ما يشجيه ويسلّيه ؛ فقد كان يحس أن حب لباب ينوء به .

وكانت تنقلاته المستمرة قد أوحى إليه بوضع كتاب في جزيرة العرب ، يسميه هذا الاسم نفسه ، ولكنه رأى أن الضرورة تقتضيه أن يطوف بكل مكان أولا ، وأن يحتشد لوضع كتب جانبية تعرض لما رأى من عيون ماء ونبات وشجر ، وفي أثناء ذلك نجح في تأليف أول كتاب عن نوادر الأعراب في اللغة .

ولم يمض أسبوعان على اذاعة كتابه حتى هبط أول حاج العراق فعلم منهم أن إبراهيم العلوي قتل ، وهو يريد الكوفة ..

قتله عيسى شقيق المنصور بعد معركة عنيفة في مطالع ذى القعدة ،
فاتته وساوس عبد الملك ، ووجد من راحة البال وصفاء النفس
وطيب خاطر ما يهيم له فرص النجاح .

وفي يوم خروجه من الطائف وقعت يده على قطعة كبيرة من
شعر عنتره ، فسعد بها . وفي بلاد بنى عامر التمس من أخبار
المجنون أطرافا ، فلم يظفر بغناء ! وكانت تلك البقاع في هذا
الفصل من السنة ، وهذه المشاهد من البرية ، وهذا الذبول
البادي على كل شيء .. كان ذلك كله يوحى له بالقلق والاشفاق ،
فلما وقعت عيناه على أعرابي توسم فيه رجاحة التفكير سأله عن
المجنون ، فقال :

— عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالمجنون ،
فمن أيهم تسأل ؟
قال دهشا :

— عن الذي كان يشب بليلى .

فقال الأعرابي :

— كلهم كان يشب بليلى !

واهتز .. فالى هذا الحدتخلط الأمور ، وليس بعيد أن تكون
حكاية الجنون نفسها باطلة من أساسها ، وإذا صح أن ثمة من
وصف بما شاع عن أى فتى من بنى عامر فلا يخرج الأمر عن لؤثة
كلوثة أبى حية النيمرى الشاعر الذى عرفته البصرة منذ سنوات ،
وربما لو كلف نفسه مشقة سؤال بنى عامر بطنا بطنا لما ظفر
ببيت واحد يرضى أن يجعل منه المجنون !

ومع ذلك فقد شاء أن يمضى مع الأعرابي الى نهاية الشوط ؛
فان قوله فى حد ذاته فضلا عن طرافته خليق بأن يقفه على لون
الحياة الفكرية التى يعيشها قطاع من قطاعات نجد ، فقال له :
— ألا أنشدتنى شيئا لبعضهم ؟

فقال :

— هاك ما أحفظه لمزاحم بن الحارث :

الا أيها القلب الذى لجّ هائما

بليلى وليدا لم تقطع توائمه

افق قد أفاق العاشقون وقد أنى

لك اليوم أن تلقى طيبا ثلاثمه

وتوجع عبد الملك .. وكانت نبرة الأعرابي الحلوة تأخذ بلبّه ،

ويزيده اكتئابا هذا الفتور الذى يستحوذ على الأبيات ، ولكنه

لم يكن يريد أن يلقى بنفسه فى مهاوى الأسى ، وقد زال الكابوس

عن بلده ، فقال له مقاطعا :

— هذا حسن .. ولكن ألا أنشدتنى لغيره منهم ؟

فقال :

— اذن فاسمع لمُعَاذ بن كليب المجنون :

الا طالما لاعبت ليلى وقادنى الى اللهو قلب للحسان تبوع

وطال امتراء الشوق عيني كلما نزلت دموعا تستجد دموع

القصة نفسها .. عجيب أن يتوارد الحب على هذا النحو ،

أفلم يلق لباب صبية صغيرة ؟ وهل اختلف قلبه عن قلب هذا

المجنون ؟

ولكنه لم يبك ، ولا يريد أن يبكي .. فثمة من يقدر على
 أن يأس به ، فينسيه اللوعة ، فإذا بدا مريضا فهو المرض الذي
 يوقد المشاعر بحيث لا تياس . حتى وإن راحت مع الموت اندماجا
 وتلاشيا ، وقد صح منه العزم منذ بعيد أن يجعل فكرته عن الحياة
 — في حدود عقيدته الدينية — حائلا بينه وبين التورط في أمور
 قد يندم عليها الى الأبد ، ومع ذلك فلا على الأعرابي من بأس
 إذا ثقله الى شاعر آخر ، فقال بعد أن فرغ :

— فأشدني لغير هذين ممن ذكرت !

فقال :

— أشدك لمهدي بن الملوح :

لوان لك الدنيا وما عدلت به

سواها وليلى بائن عنك بينها

لكنت الى ليلي فقيرا وانما

يقود اليها ود نفسك حينها

هو يصطنع منطقا .. وشعره على ذلك بعيد عن أن يعلق

بالقلب غلوق غيره ، وما يظن أن مجنونا يقدر أن ينسق معناه هكذا

بحيث يثير الذهن ، والا فقد يكون صاحبه أعقل من الراوي

والسامع جميعا .. ألا يدل هذا على شيء ؟

— بربك يا أخي ، أشدني لمن بقى من هؤلاء !

— حسبك ، فوالله إن في واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم

اليوم !

وصفق عبد الملك ، فقد كان كلام البدوي بمثابة انعكاس

مباشر لما فكر فيه ، وبدأ أن ما يغري الانسان بانسان توافق
فكريهما . فكم يكون مقدار حبه لأكثر الذين يعبرون المسجد
الكبير بالبصرة ، لو أنهم نهجوا نهجه هو في التفكير ؟ هل كان
ثمة ما يوجب التحفز والاستعداد لغد قد تغيب شمسهُ ؟

ووكز حماره وسار ، ولا يزال يحلق بخياله هنا وهناك ...
هو في البصرة حيناً ، وهو في مضارب بنى عامر حيناً آخر ! هو
يلم بمعمر بن المثنى ، ويطوف بليلى مرة أخرى !

وعلى كل حال فقد أخذ نفسه بأن يبت برأى قاطع قبل أن
يخرج الى البرارى المجهولة ، والقفار الغامضة .

غير أن المسألة لم تكن في تلك السهولة التى يتصورها ، لأن
أشياء أخرى كانت تعرض له ، فتصرفه صرفاً عما يريد . وهذه
الأشياء لم تكن لها ضابط معين ، ولم يكن خروجها الى حيز
تفكيره في وقت مخصوص ؛ فلقد تصوّر أن يعود توالى مكة
ليعكف على شعر عنترة ، ولكن تفكيره في « كتاب جزيرة العرب »
نحى هذه الفكرة مؤقتاً ، ثم عنّ له أن يؤلف كتاباً في الحيوان ،
أو في الخيل فقط ، الا أن شغفه بالنوادير تغلب عليه في آخر
الأمر لا سيما حين رأى أحد العامرين قاعداً في ظل خيمة له ينشد :
أحقاً عباد الله أن لست ناظراً

الى قرقرى يوما ، وأعلامها الغبير
كأنّ فؤادى كلما مرّ راكب
جناح غراب رام نهضا الى وكر

إذا ارتحلت نحو اليمامة رقيقة

دعاك الهوى ، واهتاج قلبك للذكر

ولم يكن نجاحه الى أكثر من هذا ليقبل عليه ، وهو ينجب
لهذا السحر الذى يستحوذ على بلاد العامرين ، فلما رآه قال له :

— أعجيبك ما سمعت ؟

— أى والله !

— أأنت من أهل الحاضرة ؟

— نعم !

— فمن تكون ؟

— لا حاجة لك فى السؤال عن ذلك !

— أو ما حل الاسلام الضعائن ، وأطلقاً الأحقاد ؟

— بلى !

— فما يمنعك اذن ؟

— أنا امرؤ من قيس !

— الحبيب القريب .. من أيهم ؟

— أحد بنى سعد بن قيس ، ثم أحد بنى أعصر بن سعد .

— زادك الله قربا .

ثم نهض ، فأنزله عن حماره ، وألقى عنه اكافه ، وقيده قرب

خيمته ، وقام الى زنته فاقترح وأوقد نارا ، وجاء بصيْدانة فالتقى

فيها ثمرا ، وأفرغ عليه سمنا ، ثم ذرّ عليه دقيقا ، وقدمه له ،

فقال :

— انى الى غير هذا أحوج .

فتساءل البدوي قائلا :

— وما هو ؟

أجاب :

— تنشدني !

وحدق فيه الرجل مستضحكا ، ثم قال :

— أصب فاني فاعل .

وانصرف هو الى طعامه ، فجعل يزدد منه ازدرادا ، وأما

عبد الملك فقد لقم لقيمات ، ثم لم يلبث أن قال :

— الوعد !

فأجاب الرجل وقد أدرك أن لاسبيل الى التسوية بعد ،

فأنشد :

لقد طرقت أم الخشيف وانها

اذا صرع القوم الكرى لطروق

فياكبدا يَحْمَى عليها .. وانها

مخافة هَيِّنُضَات النوى لخفوق

أقام فريق من أناس يودهم

بذات الغضا قلبي ، وبأن فريق

بحاجة محزون يظل وقلبه

رهين " بِنُضَات الحجال صديق

تحملن أن هبت لهن عشيّة

جنوب ، وأن لاحت لهن بروق

كَانَ فَضُولُ الرِّقْمِ حِينَ جَعَلْنَاهَا
غَدِيًّا عَلَى أَدْنَمِ الْجَمَالِ عَذُوقِ
وَفِيهِنَّ مِنْ بَثْنَتِ النِّسَاءِ رَبَّحَلَةٌ
تَكَادُ عَلَى غَرِّ السَّحَابِ تَرُوقُ
هَجَانُ فَأَمَّا الدَّعْصُ مِنْ أَخْرِيَاتِهَا

فَوَعَتْ ، وَأَمَّا خَصَرُهَا فَدَقِيقُ
وَرَا حَتِ الْأَخِيلَةِ الْبَلُورِيَّةِ تَعْلُو بِهِ ، وَتَتَهَادَى . وَأَخَذَ فِي كُلِّ
جَلَالِهَا الرَّائِعِ يَشْرَفُ عَلَى الْأَبْلَةِ ، وَمَا وَالِهَا .. طَرِيقُ الْمَرْبِدِ وَالْدَرْبِ
الَّذِي يَنْحَدِرُ إِلَى قَصْرِ الْبَاهِلِيِّينَ ، وَرَأَى النَّسِيمَ .. رَأَاهُ فِي مَوَاجَاتِهِ
الْخَفِيَّةِ يَدَاعِبُ الشَّجَرَاتِ الَّتِي تَتَعَقَّدُ عَلَى الْبَابِ الْكَبِيرِ ، وَتَنْفَتِّحُ
فِي وَجْهِ الْعَبْدِ الزَّنْجِيِّ الَّذِي يَفْتَحُ الْخَوْخَةَ ، وَالْدهليز الطَّوِيلَ ،
وَالْبُسْتَانَ النَّاصِرَ ، وَ... أَشْيَاءَ أُخْرَى عِبْقَةَ حُلُوءَةٍ ، أَحْلَاهَا وَجْهَ
لِبَابٍ ، وَأَمَّا خَصَرُهَا فَدَقِيقُ !

وَكَانَتْ الْقَصِيدَةُ أَكْبَرَ مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ يَعْيشُهَا ، وَتَرُوى
حِكَايَاتِ الرَّحِيلِ عَلَى نَحْوِ فَرِيدٍ ، وَتَرْسُمُ صُورَ الْحَسَنِ كَمَا يَحِبُّ
هُوَ أَنْ تَكُونَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا أَمْرَ الَّذِي يَشْغَلُهُ عَنْ قَيْسِ بْنِ مَعَاذٍ
الْعَقِيلِيِّ — وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا — لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِأَعْمَاقِهِ .. فَقَالَ بَعْدَ
أَنْ قَامَ يَحْتَضِنُ الْأَعْرَابِيَّ :

— كَمْ أَحَبُّ مَعَاوِدَةَ انْشَادِكَ ، فَأُطْرِبُ بِغَزْلِ الْعَامِرِينَ ،
وَلَكِنِّي أَسْأَلُ أَتَرَى كُلَّ شِعْرَاءِ هَذَا الْحَيِّ هَكَذَا ؟
أَجَابَ الرَّجُلُ :

— ان أردت أن تُخَبِّرَ بشيء من هذا ما كنت بأشكر منى لك ، ولكن الملاة في الحديث .

قال عبد الملك :

— بل تكلم ؛ فان صناعتي الكلام !

قال الأعرابي :

— لا تسألني قبل من أكون حين تسمع ، ولا أخبرك الا

أنى رجل من عذرة هل بلغت بك الى الفخذ الذى أنا منه ؟ وأما شعر المجنون فالذى ألقى عليه أكثر مما فى الظنون !

قال عبد الملك :

— ماذا تعنى جعلت فداك ؟

أجاب :

— أنا واحد أضفت اليه أكثر مما أحفظ له !

قال عبد الملك ، وهو يزفر :

— وجنونه ؟

أجاب :

— لا تظن فى العشق ما يسلمه الى العطب ، وان كانت لوثة

المحب جنونا فنعم الجنون !

وقام عنه عبد الملك مضطرب البال مزعزع الثقة ، فلم يكن

يظن أن اختلاق الشعر مقصورا على الموالى ، ولم يكن يظن أيضا

أن شغف الناس بشيء ينتهى الى هذا النحو من الأكاذيب . الا

أن ما خفف عنه بعض الشيء أن الأعراب ليسوا كلهم هذا الرجل ،

وأن الراوية منهم اذا لم يتسبب سقطت روايته ، وينبغى فى هذه

الحال أن يختبر طبيعة الواحد منهم ولا سيما إذا هجر باديته الى
الحضر .

وكانت هذه قاعدة آلى على نفسه أن يرتكن اليها دائما ،
ومن ثم شرع — وهو ينظر فيما جمع من شعر عنترة — يفسر
ما نسب اليه على ضوء الأحداث التي عرفت عنه في الصحراء
متغلبا على وعثاء الترحال في المجاهل البعيدة .

بَيْنَ هُذَيْلٍ وَأَمْرِئِ الْقَبَسِ

كان اجتياز نجد الى منازل قيس عيلان أروع آمال عبد الملك ، فقد كان يطمع في أن يرى تلك الأرض التي أنبتت البطل الذي قهرته الخيانة ، ولم يقهره أحد . وهو يريد أن يحط في « الجواء » حيث لعبت عبلة مع أترابها ، فشغف بها البطل ولان لها ، الا أنه لم يشأ أن يتوجه اليها حتى يلم باليمامة من منتجع أهله الأولين ، ويأخذ بحظ مما فاته عن الشرق البعيد .

وكانت خطته أن ينزل بثقيف ، ثم بكعب بن ربيعة ، ثم يعبر « الوبر » التي ذكرتها أساطير سبأ ، وفي بعض الطريق حدث ما قلب خطته رأسا على عقب .. اذ التقى بخلف بن أبي عمرو ، زميله في الدراسة — وان كان يكبره — وابن أستاذه الذي أصبح تواقا الى أن يراه ، وقد أنهى اليه خلف أن المنصور جعل على البصرة ابن أخيه محمد بن أبي العباس المتعته ، فقدمها في جماعة من الشعراء والمغنين وأهل اللهو ، منهم حكم الوادى ، ورهاف ، وحماد عجرد ، وحماد بن يحيى ، وراح يعث معهم ، فاتهم بما يتهمون به من زندقة !
— وخليفة المسلمين يا خلف ؟

— تقض ايوان كسرى والمدائن ، وارتحل الى بغداد ،
وارتحل مسلم بن قتيبة الى الرى اميرا .
— أنا لا أسأل عن هذا !

— كل شيء تغير ، وقد خلفت في جامع البصرة معمر بن
المنثى شيخا في حلقة جديدة يقرأ قوله تعالى « انا جعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا » ثم يخوض في أخبار الأولين !
— ويحه ! ويحه ! أما كفى قومنا أن يفسحوا له مكانا حتى
جعلوه معلما .. انظروه فان السَّقَطَ ليحرق الحَرَجَة (١) !
— وددت يا أصمعى لو جلست اليه ، فكنت توافق عجبا .
— بل العجب أن تصرفنى به عما سألت عنه .. عن الشر
يتركه الخليفة أسأل .

— يريد أن ييغض الناس فيه فيرتفع ابنه المهدي عندهم ،
فتركه وتركت البلد وقد عزم على أن يعترض القوم فيه يوم
الجمعة ، فيقتل كل من يجد ممن خرج مع العلوى .
هكذا .. هكذا !

فما الحاجة الى البصر بالعقل ، وأولو الأمر متهاكون على
المتاع الحقيقى ؟ والناس .. هذه الفئات التى لا تملك الا مخاصمة
نفسها بالشر ، ليس فى عزمها أن تحاسب على الخير حتى لا ينكل
بها ، فهل ينفع الحساب ؟ هل ينفع والذى جعل منه فى الباطل
لا سبيل الى أن يعود الى الحق المغلوب ؟

(١) السقط : ما يسقط من الزناد اذا قدح ، الحرجة : الشجر
الكثيف والجمع احراج وحراج .

كلما أتيح له أن يرى في الموقف خيرا محاه ، وكلما نظر الى ما يمحوه اكناب له ، ورأى أن أكثر جدوى على الخير أن يلتفت السلطان الى مثل ابن أبي العباس ، ويدع العلويين الى حين ، وان يكن منهم كل الموالي الذين يقرأ معمر عنهم آية التسوية ؛ فان أول الأشياء على عقل العاقل حسن التقدير ، وسأل عن أبي عمرو ، فقال له خلف :

— ما وافقه أحد الا سأله ما فعل اليوم أو بس في الغنم . وتضاحك عبد الملك في مرارة ؛ فلا يزال العلماء مشغولين بعلمهم ، ولا يزال واحد كأستاذه يعيش مع الماضين ! انه ينظر الى حياته بعين الجدود لا يعرفون ضرا أوصل الى نياط القلب من الحاجة الى من لا يأمنون ضره .. هذا هو أبو خراش الهذلي منهم ينطقه بما يوافق شن طبقة ، فابن أخى المنصور هو أويس .. هذا الذئب الذى يفتك بالغنم ، بالناس الطيبين كالحملان !

وقتل عبد الملك الى مكة ، وقد صحت نيته على العودة مهما تكن الأحوال ، ولكن بيت أبي خراش وما يحفظ من شعر أبي كبير الهذلي سوّغا له أن تكون عودته عن طريق السراة من بلاد هذيل . فجمع صناديقه ، واتجه فورا مع خلف الى « نعمان الأراك » واستمتعا فيه بعين ماء ، وشجر وارف ، وحديث مع البدو المنتمين الى بنى لحيان . وعلى المساء دخلا قرية يقال لها « عسفان » غزا الرسول فيها هذه العشيرة الضارية من هذيل . وفي الفجر تماما ارتحلا شمالا الى « رهاظ » فوصلا على الصباح حيث استمتعا برؤية جبل « شمنصير » الذى لم يرقه أحد ،

ولم يعرف انسان ماذا فى قمته ، ولكن المياه كانت تفيض حوله
من سبعين عينا ، أو نحو ذلك .

هنا حظّ الأصمعى رحاله ، وبدأ أول اتصال علمى بينه وبين
الهذليين ، وقد شكر للظروف التى هيات له ارتياد هذه البقاع
التى سكنتها هذيل ، وراحت تثب منها على القبائل الآمنة ،
ولا سيما كنانة وقريش وثقيف . ان هذه القبائل تعيش اليوم فى
وئام جنوبى البصرة حيث تنزل عشيرة الأصمعى نفسه ، بل هى
تكون خمسا كاملا من الأخماس ، وهذيل فيه تشارك بما تقدر
عليه ، بعد أن أقامت علاقاتها قبل الاسلام مع جاراتها على
المنافسة والتربص والعداوة !

ولقد قبل عبد الملك وخلف مبتهجين دعوة تلقياها من شيخ
ذكر أنه من سلالة أسامة بن عمير الصحابى ، وأبى المليح المحدث
المشهور ، ولم يكذب خيره أنه يحفظ لأبى قلابة — أول شعراء
هذيل — حتى فتح صناديقه وقلبه وعينيه جميعا . لقد كان
هذا الشاعر الجاهلى عم المتنخل ، وكان هذا أستاذا فى لحيان ،
بل فى بطون هذيل كلها !

ولقد لقى الأصمعى عند هذا الشيخ من أشعار أبى قلابة
فوق ما يريد .. كان هو بشوشا يشوب طبعه مسحة من رقة
على غير ما عهد من الأعراب ، ووجد خلف من الأخبار عنده
ما سجله لأبيه ، واستمتع الاثنان بلذة الانشاد التى حرماها بعض
الوقت ، وكان آخر عهد الأصمعى بها لقاءه مع أعرابى بنى عذرة .
كان الشيخ يردد فى ثقة ما يحفظ فى حين كانت ابنته تطل

عليهما من خباثتها فيشهد عبد الملك في لقاء صفحتها وجه لباب ،
وتقدم لهما الطعام أحيانا ، وترحب بهما بصوتها العذب الصافي ،
فيتمنى أن يبدله الله بها حسناء البعيدة . وحين كانت تعين أباهما
على رواية أو خبر لم يكن يند عنه قط عبارة ضيق ، ولكن
عبد الملك ما كان ليستطيع أن يكف عن مقارنتها بجارية الباهليين
التي تفوقها ذكاء واتقاد ذهن ، ولما سمعت أباهما يصف أبا قلابه
بأنه كان اذا قاتل غلب ، واذا سئل وهب قالت :
— ولكنه كان اذا نادى القَتول أرجع ، فان سأله بلحظها
ردّ قبل أن تنطق !

قال الأصمعي ، وقد أخذ :

— فقد كان عاشقا اذن ؟

أجابت :

— كان يأتي القَتول ويتحدث إليها ، ولا يعلمها بما هو
عليه ، حتى سل جسمه ونخل بدنه ، فلما أشد :
يا حب ما حب القَتول وجها
فكس " فلا يَنْصِبُكَ حَب مَفْلَس
هل يَنْسِيْنَ حَب القَتول مطارد

وأفلٌ يختصم الفقَّار مسلَّس
ساءها قوله وكرهت أن ينشر خبرهما ، فأظهرت هجره .
فما برح غليل القلب والبدن لا يجد عزاء الا في الغضب ،
والشرجة الجشاء !

وبقدر ما بهرته قصة أبي قلابه ، وذكرته بما يحكى عن عترة

بهره وصفها القوس بالجشاء .. تريد في صوتها بحة ، وكان
ايثارها نعت السيف عليه من ناحية أخرى لفظة الى ما عرف من
فصاحة قومها ، فأقبل يدون وهو مغتبط ، لا يصرفه شيء ،
وخلف قبالة يعجب لدأبه ، ويقول له :

— حقا أنت حتف الكلمة الشرود !

ولكن الشيخ لا يلبث أن يستعيد طرف الحديث ، ويخوض
به في يوم الأحث .. حيث اقتتل فيه بطون هذيل : لحيان ،
وخزيمة بن صاهلة ، والدافع جار أخذ من لحيان وبيع ، فقال
أبو قلابة وقد ثقل بعد شباب وذراً رأسه :

— انطلقوا لنكلم بنى عمنا في جارنا الذي أخذوا ، ونحن
لعمري نخشى جهلهم ولكن اظعنوا بالبيوت ، وليذهب القوم
فليسألوا في جارهم الرضا ؛ فان أرضوا فالحال هين ، وان
طارت بيننا حرب وجهنا الطعن نحو الحرم .

— حرّ انتصر .. ولكن ماله والحرم ؟

— آل لحيان أقل حظا في الرجال من أن تكون منهم .. لقد
كان بنو خزيمة بذى مزاح قرب مكة !
— فاقتتلوا فيه ...

— نادوهم من بعيد وسيدهم وبرة بن ربيعة ، ولم يقدموا
لهم .. فرمى غلام من بنى خزيمة نحو لحيان ، فقال فارس منهم
« أروني سيد القوم » فأشاروا الى وبرة ، فنزع له اللحياني
بسهم ، فعقى به نحوه فلم يخطيء قلبه ، وتصارخ الناس من كل
أوب ، والتقوا بصعيد الأحث ، فقال أبو قلابة : « لا بد لكم بهم

اطلبوا خفركم ، فان رد عليكم فالخطب أيسر ، والحال هين ،
وان كان بينكم قتال كنتم قد وجهتم ظعنكم موجها « فأبى القوم
كلهم عليه ، وسار حتى جاءه واحد من خزيمة يقول :
— استأسر يا أبا قلابة فأنا خير من أخذك !

فقال :

— انكشف عني لا أبالك ؛ فان وراءك رجلا خيرا منك .
وأسرع أبو قلابة مستصغرا شأنه ، فأدركه الثانية وهو
يقول :

— استسلم يا أبا قلابة ، فمالى بد من أخذك .

قال :

— فاذن دونك .

فدنا فقتله أبو قلابة بالسيف ، فقتله ، ثم أدركهم خزيمة ،
فلم يزالوا يقتتلون حتى غيَّبهم الليل .
وفي الصباح عاد أبو قلابة ليأمر قومه بالرحيل شمالا الى
گران وفيدة وقال بعد ذلك ما يملأ الصفحات الكبار ، فكتب ...
وأخذ يملأ عليه من شعر الرجل ما يملأ ، وعبد الملك أخذ
نفسه بالألا يرحل حتى يجمع لكل هذلى ، أو لكل لحيانى على
الأقل . فقد أحس فى شعرهم هذه الديباجة العربية التى طمسها
الموالى ، أحس بالجزالة لها هدير فى أذنيه ، وبقوة أسر لا يدرى
مأتاها ، ولكنها تهز أعماقه هذا ! وكان لابد لذلك من أن يبقى
بعض الأيام ، وخلف يستحثه ، غير أن اغراء الهذليين كان فوق
حاجة خلف الى الرحيل .

لقد كان يحفظ للهذليين عينية أبي ذؤيب ، ويرى في بعض
آياتها اعجازا لا يملكه كل شاعر ، كما كان يروى بعض مقطعات
لأبي كبير . غير أنه وجد أن المنزلة التي احتلها هذان الشاعران
الهذليان ليست دونها المنزلة التي وصل إليها أبو قلابة ، وابن
أخيه المتنخل ، ثم أين بعد ذلك ساعدة بن جؤية ، وأبو خراش ،
وصخر الغي وأبو جندب ، وذو الكلب ، وجنوب أخته ؟

من هنا صح عزمه على أن يفرد كتابا لهذيل . يجمع فيه كل
شعرها ، ويستعين على ذلك بكل من يجد في السراة التي توزعت
فيها هذيل من قديم . فلما فصل عن عسفان صعد شمالا حتى
نزل بأنف جنوبى يثرب ، وكان بها بقايا من ديار قرد الهذلية ،
تتلو ديار بنى سليم في وادي « عاذ » وتخللها بيوت من هوازن
اجتمعت قربها هذيل على بنى ظفر من سليم ، فكان يوم أنف
عاذ المشهور .

رأى دون ما يتغنى عقبات شتى أهمها ارتحال معظم بنى قرد
الى جنوبى البصرة ، فأثر أن يرحل الى « الجرف » وكان يسكنه
بنو سهم بن معاوية ، ويبعد عن يثرب ليلتين أو ثلاثا ، قيل له
انها لا يمكن أن تخلو من المتاعب ، ولا سيما فيما يثيره الخلاء ،
وقطاع الطريق .

وقد أراد خلف أن يتجنب شر ما قد يلقيانه ، فاقترح العدول
الى طريق الحاج ، فأبى الأصمعي ، وراح يعد له مآثر التغرُّب ،
وركوب المخاطر ، وقال انه لا يفعل ما يريد ما ان في السماء

نجما.. وهذه عبارته ، وكان قد بدأ يفكر في وضع كتاب عما تقول
العرب في مجيء لا أفعل ذلك أبدا !

وفي الجرف نجح في أن يجمع أكثر شعر أبي كبير الهذلي
الذي قصد يشرب ليسلم ، ويرى الرسول . وسجل لأمية
ابن أبي عائد ، وأسامة بن الحارث ، وأبي العيال شيئا ضخما ،
ورأى أن فيما يروى لهم ما يجدى على اهتماماته اللغوية .

وقرر أن يروع شيخه أبا عمرو بما جمع ، وأما عن دور
أستاذه أبي محرز فسيحدد حين يقرؤه عليه ، ويضيف إليه ما قد
يجد عنده أنه فاتة .

وسارت القافلة الصغيرة في طريقها الى تيماء ، فبا أسرع
ما تذكر امرأ القيس وبني أسد ، وما أسرع ما استعاد بطولته
ليرى رأى العين الأماكن التي ذكرها فيها . وكان دخوله تيماء
على غيث تجود به السماء ، فتذكر على الفور واقعة جرت مع
أستاذه ، فقال لخلف :

— أتدرى ماذا فعل أبوك في شيء كهذا ؟

قال خلف :

— قد تكون أنت خير من يجب !

قال عبد الملك :

— سأل ذا الرمة على ما حدثني أي الشعراء الذين وصفوا

الغيث أشعر ، فقال : قول امرئ القيس

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحسرى وتدر

تخرج الوكة إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تشتكر
انى أقول انه يجب أن يكون ، وكذلك عبيد بن الأبرص ،
وقد كانا ترين يضربان هنا في منازل بنى أسد ، ويصفان المطر
معا ويحسان فيه . لقد سمعت عن أبيك شيئا من شعر
امريء القيس ، وعن حماد شيئا آخر ، وسأسمع اليوم عن
الأعراب ؛ وليكن بعد ذلك كتاب جديد !

غير أن وقوعه فريسة للمرض قعد به عن غايته ، وكانت بقية
الرحلة الى دومة الجندل عناء أى عناء . فلما نزل بوادى
بنى العنبر اذا فتية يريدون البصرة ، فانضم اليهم وصبا محموما ،
فشغلوا به شيئا ، ثم صحبوه وهو لا يستمسك على راحلته ،
فلما رأوا ضعفه حملوه ، وقد ركب أحدهم وراءه يمسكه . وكان
خلف حزينا كسيرا ، لا يكاد يقترب منه حتى يعود الى صناديقه
التي أوصاه بها ، حتى اذا أمعنوا فى السير تنادوا :

— ألا فتى يحدو بنا أو ينشدنا ؟

فارتفع صوت ينشد فى جوف الليل بصوت ند حزين :

لعمرك انى يوم بانوا فلم أمت
خفاتا على آثارهم لصبور

غداة المنقى اذ رميت بنظرة

ونحن على متن الطريق نسير

ففاضت دموع العين حتى كأنها

لناظرها غصن يراح مطير

فقلت لقلبي حين خف به الهوى
وكاد من الوجد المثير يطير
فهذا ولما تَمَضَّى للبين ليلة
فكيف اذا مرّت عليك شهور
وبكى عبد الملك .. فقد مرّت عليه هو شهور ، وكأننا كان
بكاؤه قد غسل عنه الحمى فسرى عنه ، وهمس لرفيقه :
— انزل الى راحتك فاني مفيق متماسك ، جزاك الله وحسن
الصحة خيرا .

يَوْمُ الْأَسْتَاذِ الْأَوَّلِ

مرت أيام بعبد الملك خيّل اليه فيها ، وهو يستحضر وجه صديقه معمر — بعد أن قص عليه أخوه عبد الله من أخبار تفوقه ما قص — أنه ما زال هناك متسع لاراعته بما حمل هو من العلم ، وهو لم يريح البصرة قط ! وحاول في دفتين أن يجعل نقطة البدء شعر امرئ القيس ، ولكنه لما أمعن في تفكيره آثر أن يقدم ما جمع من شعر هذيل . ولكن كتابه الذي سجّل فيه معالم الجزيرة كان يثير في نفسه من التيه شيئا ، ثم انتهى الأمر أعجب نهاية ، وذلك حين راح يردد لنفسه « ولماذا أشغل به من دون الآخرين ؟ » .

وكان معنى ذلك أن ينفض يديه — ولو الى حين — من معمر ، ثم ينصرف الى ما يعنيه ، ويعنى فؤاده ، وفي البصرة هذه التي لا يعلم من أمرها الا أن تكون على أهبة للسفر الى المدينة الجديدة . وكان يخفف عنه أن بعض أهل الأمير الباهلي لا يزالون في قصرهم العتيق ، فظل وهو يرزح تحت وطأة الحمى يصر على أداء حق الزيارة لمنتجع هواه !

ولما برأ تغير — كالعادة — كل شيء قدره ، وقصد دار

أستاذة أبي عمرو ذات صباح ، وأطلعه على ما دوّن ، وقرأ عليه من حفظه ما أدهشه ، وكان شاهدهما خلف بن أبي عمرو ، فسمع ما تم بينهما على تكوين حلقة جديدة في الجامع . اذن فقد أجاز أبوه تلميذه الحافظ الذكي ، وحفز عبد الملك الى المبادرة بطلب الاجازة ، رغبة في وضع الأمور في نصابها . فاذا كان الحق أن يقال ان عبد الملك تعجل الطلب ، فأكثر من الحق أن أستاذة كان يرى فيه أقوى يد يستند اليها بعد أن شاخ وضعف وقرر أن يلزم بيته . بل رأى أنه لا يقل كفاية عن معمر الذي تولى اجازته في المسجد ، فلا أقل من أن يعطى هو الآخر فرصة ، ويعينه على التقدم حتى يصل الى الغاية .

ولم يكن عبد الملك منذ أن غادر الجامع لآخر مرة قد تصور ما عاد يحدث فيه ، وراه الآن في ساعة ثقلت فيها نفسه بعبء الرسالة الجديدة ، فلم تسعده الرؤية كثيرا . وأحس يدا جليدية تعصر قلبه ، وهذا معمر على مقربة يرمقه ، وكأنه غريب ، ولم تزل تلك الطلعة الجافية ولكنه أرسل شعر عارضيه من تحت عمامته التي كورها فوق رأسه كالجبل .. طويلة طويلة ! وقد بدّل طولها من سماته حتى تردد عبد الملك وقتا يكاد لا يقطع بأنه معمر ! ومع ذلك فقد كان هو ، ولم يقبل عليه لأنه أصبح من الذين يتقصد اليهم ، وأتاه صوته أجش غليظا . وبرغم ما في عبارته من سوء فقد تبين أنه يغوص الى الأعماق بلسان فوقه عقله ، بذكاء دونه حزمه ، والا لما زعم أنه لو ذهب علمه لجلس قاصّا ، فكأنه يرى أنه يميل الى هذا الضرب من المعرفة .

معمر .. أو أبو عبيدة يحس أنه يأنس من نفسه هو القدرة على الحكاية ، فيعرض به ، مع أن اللحية — يا معمر — ليست وافرة بيضاء ، والسمت ليس حسنا .. يا للماكر الذى لا يشبهه الا صعاليك الجبل ، وزط البطيحة !

وتم كل شيء ، وأقبل المهنئون حتى معمر تحرك ، ولما احتضنه وأحس بطنه تضرب صدره قال :

— ويلك يا أبا عبيدة ، فيم هذا كله ؟

وأشار الى القبة المذكورة ، فقال معمر وهو يضحك :

— وما بكم من نعمة فمن الله .. صدق الله العظيم ، ولكن كان ينبغي أن تسأل كيف تكون عند الجولة ، وكيف ثبات الجنان عند السؤال .

قال عبد الملك :

— أنا لها يا أبا عبيدة ، فقد توصلت بالملح ، وأدركت بالغريب :

قال أبو عبيدة :

— ما نراك يا هذا الا بشرا مثلنا .

وهنا تضرّج وجه عبد الملك ، واتقدت عيناه ، وتقلّصت شفثاه ، وبدا كما لو أنه يهم برفع كفه الى وجه معمر ، ولكنه اذ يتمالك نفسه يقول :

— يابن هذه الحمراء التى تملأ بيت الله .. انك وان كنت

فوق أبناء هذا الزمان فان التيه مسخك ، والعجب أفسدك ، فلا أدري كيف تسوق قول الله يحرفه هواك ، فهلا قلت : « ما نراك الا بشرا مثلنا » .

وانقلب معمر الى عموده ، وهو يقول :

— والله لست دونه معتقدا ، ولا أرانى الا مصححا بعيدا عن

الفساد ، ومن غد أقدم له رسالة فى كتاب الله .

وفى هذه اللحظة وقع مالم يكن فى حسيبان عبد الملك قط ؛

فانه لم يكذب يأخذ مجلسا له فى أقصى المسجد حتى قدم عليه ثلاثة

كهول ، أكسيبتهم متشابهة ولكل قلنسوة مكورة ، فأكبوا عليه

يعاقبونه واحدا بعد الآخر ، فانتظر حتى انتهوا ثم قال :

— فأتم اذن من أهل المسجد تطلبون العلم عندى ؟

قالوا بصوت واحد :

— بل ندعوك الى أصحاب « الجمع والمنع » .

قال عبد الملك دهشا :

— ومن هؤلاء حتى أدعى اليهم ؟

قالوا :

— ممن ينتحلون الاقتصاد فى النفقة ، ويكتسبون هذا

الكساء !

قال :

— وأنا منهم ؟

قال أحدهم :

— كنا فى غيبتك اذا التقينا تذاكرنا أصحابنا ، وتطارحنا

أخبارهم ، فوجدناك أقرب هؤلاء الأصحاب .

قال :

— ولكنى .. ولكنى لا أفتح فيما تدعون اليه بابا من

الاصلاح ، فكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » .

قالوا فى نفس واحد :

— وقال أيضا « ولا تبسطها كل البسط » .

ثم انبرى واحد منهم وقال :

— فأعد قلنسوة كهذه واستحضر مثل ما نرتديه .. لا نضع

الوش والخز ، ولا نعلق المعصفر ، ولا نتحلى بالذهب .

وتطلع عبد الملك حوله فرأى عشرات العيون تحدجه ، وأحس

بأيد تدفعه ، وتجذبه . فلم يكن بأسرع من أن حاذ عنهم الى يمين

يلوذ بخلف بن أبى عمرو ، والكهول الثلاثة يتضحكون ، وقد

تصور أنهم مدفوعون فى تدبير من تدبيرات المسجدين .

وحدث خلفا بكل ما وقع منهم ، فأخبره أنهم من أهل مرو ،

وأنهم يترافقون ويتلازمون ، ويجمعهم المساء على نوادر تضحك

لها جدران المسجد . وقد سمع من بعضهم أنهم لا ينتعلون نعالهم

الا ستة أشهر فى السنة ، وفى هذه الفترة يمشون ثلاثة أشهر على

صدور أقدامهم ، وثلاثة أخرى على أعقابهم حتى يكون كأنهم

لم يلبسوا خفافهم الا ثلاثة أشهر فقط !

وضحك عبد الملك ، ولكنه كعادته وجد فيما سمع سبيلا

الى وضع مشروع جديد ، فلو جمع أخبار البخلاء لكان فى خزائنه

ما يزيل السأم ، ويدفع الى النشاط ، ويفيد فى ساعات لا يدرى

أحد من أين تأتى الفائدة .

الدرس الأول

وفي اليوم التالي دخل عبد الملك المسجد ، وقد سبقه طلاب علمه الى التحقّق في الموضع الذي اختاره أمس ، وكان في هذه الحلقة رجل طالما شهدته في حلقة أبي عمرو وأعجب بعلمه وحفظه ، واحاطته بمسائل النحو .. هذا هو الأنصاري ، وينادونه بأبي زيد يكره فيه عبد الملك رأى المعتزلة ، ولا يطمئن الى صداقته لأبي عبيدة معمر ، بل ينكر هذه الصداقة التي تنشأ بين عربي وشعوبي .

كما رأى زميلا آخر اسمه النضر ، اعتاد هو ومؤرج السدوسي أن يستبقياه عقب جلستهم مع الخليل ، فيخوضون معا في حديث اللغة والشعر .

وخفق قلبه !

ثم تطلع الى حيث تعود أن يجلس أبو عمرو ، كأنما يلتبس منه العون ، فلا يراه فيحس وحشة ، ولكنه يرى معلمه الثاني ، فيعجب أن يتساوى هو بهما ، ويكون لهما ندا .. أفان سألاه شيئا يعجزه الجواب ؟ فقيم اذن جلوسه هذا ، وأمامه الأنصاري والنضر وغيرهما ؟

وقد بدأ الدرس فحمد الله « الذي ذرأكم في الأرض ، وإليه
تحتشرون » والذي عنده « مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »
فما تشاءون إلا أن يشاء الله سبحانه ، وهو على كل شيء قدير .
ثم صلى على النبي الذي أوحى إليه قرآننا عربيا لينذر
أم القرى وما حولها ، وليجاهد الكفار والمنافقين .

وهكذا ينساب صوته في الحلقة رخيمًا حلوا ، يكسب به
بداهة الاستهلال ويملك القلوب ، ويطلق بالأذان بعيدا ، فهو
يرجو وقد جلس هذا المجلس الرفيع لأول مرة أن يكون أهلا
لاعطاء الكلمة الطيبة فان قصر وجب له الاعتذار ؛ لأن للنفس
طاقة ، وللسان زلاته ، والا فليكن مثله كمثل الذي أخذ كلاما
حسنا عن غيره ، فتكلم به في مثل هذا المجلس ، فأفاد ، وأصاب ،
ومن ثم بلغ الغاية .

وأعطى لسامعيه فرصة تفهم ما يقول ، ثم مضى قائلا :

— وكنت قد كتبت في البادية كتبا ، وجمعت شعرا ، وحفظت
تقولا ، فالتخّير من كل أولئك لا يوجهه إلا الطلب ، فإذا كان
الطالب ينشد مما لا نملكه انصرف الى معلمينا فهم أحق منا
بالسؤال . أليس من حق المرء أن ينظر أين يضع نفسه كما يقول
عبد الله بن المقفع ؟

لا تعيبوا فيّ هذا .. فلعلّه آفة الخدائة ، ولكني أحفظ مع
ذلك ما أقدر به على أن أقول شيئا ؛ فقد جعل الله عز وجل لكل
أمر قدرا ، وبوأ له موضعا ، كما جعل لكل دهر رجالا ، ونحن من

رجال هذا الدهر، فإن لم تصبنا مصيبة الجهل لا ينبغي السكوت ؛
لأن شر الجهل أن يطوى حقا يمكن أن يذاع .

وكان من الممكن أن يستطرد على هذا النحو ، فقد أوتى ذراية
في اللسان ، الا أن صوت خلف الأحمر قطعه ، وكان قد طغى على
كل صوت في المسجد ، وهو يرتفع بلامية الشنفري عارضا لها
بشرح احتال عليه نهارا بعد نهار ، وكابده ليلا بعد ليل . فأدرك
كم يكون غناء أن يرتفع اليه ، ولكنه وقد رأى انكباب أبي عبيدة
من ناحية أخرى على ألواحها يقرأ منها قرر أن يطرق الموضوع
من حفظه ، ومن ذاكرته التي تعي كثيرا ، فقال :

— حدثت أن امرأ القيس حين هرب من المنذر بن ماء السماء
صار الى جبل طيء .. أجأ وسلمى ، فأجير ثم ، وتزوج بسيدة
منهم هي أم جندب قال فيها قصيدته التي لولا لاميته لجعلتها
واحدة من المعلقات وفيها :

خليلى مرّا بى على أم جندب تنقضى لبانات الفؤاد المعبّد
ولم يكن حظه من الرواية الا هذا البيت ، فقد قاطعه واحد
من جلسائه قائلا :

— أبفتح الدال هي أم بضمها ؟

قال عبد الملك متسائلا :

— وأين هذه الدال جعلت فداك ؟

قال الطالب :

— في أم جندب .

قال عبد الملك :

— بالضم لحن ، ولا أقول لَحَنًا بفتح الحاء ، الفاعل من الأولى لاحن ، ومن الثانية لَحِن ، هكذا حدثني شيخنا أبو عمرو ابن العلاء ، وعن عيسى بن عمر قال « قال معاوية لناس : كيف ابن زياد فيكم ؟ قالوا : ظريف على أنه يلحن ! قال : فذاك أطرف له .. » ذهب معاوية الى اللحن ، ومنه اللحن أى الفطن ، وذهبوا الى اللحن ومنه اللاحن الذى يقع فى الخطأ .
قال أبو زيد :

— سمعت الخليل يقول : ان اللحن هو اللغة .
فقال عبد الملك :

— هو اللغة ، وهو الخطأ ، وبالتحريك الفطنة ، قال من قال فى صاحبة له :

منطق صائب ، وتلحن أحيانا نا وخير الحديث ما كان لحنا
واذن فقد أتاح لنا صاحبنا أن نسجل فى أوراقنا شيئا ،
ولا سيما اذا أردنا أن نصرّف مما وعاه أبو زيد عن الخليل فعلا ،
فنقول « لَحِنَ الرجل يلحن لحنا اذا تكلم بلغته » ويكون تأويلنا
فى البيت الذى أنشدناه غير ما سيق له ، بمعنى أن خير الحديث
ما فهمه من تحب افهامه وحده ، ولكنى وأنا لست أعلم من أبى زيد
أترك هذه المادة له ، يقدم لنا فيها رأيه ورأى الأولين .

وتطلعت العيون الى أبى زيد ، فأطرق على حياء .. ان
عبد الملك يحبّ هذا الرجل ، أجل يحبه برغم اعتزاله ، وبرغم
صلته بأبى عبيدة ، مرّة أخرى يسأل : كيف يجمع الله بين هذا
وذاك ؟ ولكن لماذا .. ألم يجمع بين امرئ القيس وعنقمة

ابن عبدة اليمنى ؟ ان أم جندب الطائية كانت واحدة من الذين يفهمون منطق الشعر ، وقد رأت زوجها يقبل على عشيرتها بشاعريته ، ويريد أن يخرس علقمة ، فقالت كلمتها التي جعلت علقمة يخلف عليها بعد امرئ القيس .. لا تتعجلوا فان وراء ذلك قصة طريفة تقول ان أم جندب رغبت في زوجها ليلة فأيقظته مرة ومرة ، وهو لا يقوم ، حتى اذا طلع الصباح صاح فيها : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ أجابت : حملنى أنك ثقيل الصدر ، خفيف العجزة !

وأتبعت حديثها هذا بكلام طويل أساء الى الشاعر ، فلما أقبل عليه علقمة ، وتذاكرا الشعر تحاكما الى أم جندب أيهما أشعر ، وامرؤ القيس يظن أنها تسترضيه اذا حكمت له بعد أن جرحته فأنشد :

« خليلي مرا بى على أم جندب »

وهي رائعة من روائعه ، لا أوصيكم بحفظها لفضل حبي اياها ، ولكن لايمانى بأنها من أكرم تراثنا ، ولما انتهى من انشادها على النحو الذى بينه انبرى علقمة يقول على الروى نفسه ، والقافية ، وفي وصف الخيل .

« ذهبت من الهجران في غير مذهب »

ففضلته أم جندب ، فقال امرؤ القيس : يم فضلته على ؟
فقالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، فقد سمعتك زجرت وضربت وحركت فى قولك :

فللساق ألهورب ، وللسوط درة

وللزجر منه وقع أهوج منعب
وأما فرس علقمة فنشيط لا يحتاج الى اهاجة ، وينصب في
العدو انصباب الريح ، يجرى خلف الصيد ولجامه مشن ،
ألم تره يقول :

فأدر كهن ثانيا من عنانه يمر كمرّ الرائح المتحلّب
وكان على ما حدثت قد ثار فطلقها ، وانصرف كسيفا ، ولكن
أبياته ذاعت ، ولم تذع أبيات علقمة . وبعد أن دعا خليليه ليقضى
لبانات الفؤاد ، واللبنات جمع لبانة ، وهى الحاجة قال :
فانكما ان تنظرا نى ساعة

من الدهر ينفعنى لدى أم جندب
ألم تريانى كلما جئت طارقا
وجدت بها طيبا ، وان لم تطيب
عقيلة أتراب لها .. لا دمية

ولا ذات خلق ان تأملت جانب
فهى خير أترابها ، أو هى كريمتها ، وأما الجانب فالغليظة
اللحم القصيرة ، فكأنما أراد أن يقول : انك اذا تأملت رأتها
غير دمية ولا جافية الخلق ، وانه اذا كان يرضاها فلائها لا تشق
على الناظر قط .. فهو خير وان يكن قد وصف على لسانها بأنه
سريع الهراقة بطيء الافاقة ، فالأمر لا يعدو جفوة أعقت دعوتها
له ، وتغلب النوم عليه .

وعلى هذا النحو من الانشاد والشرح مضى عبد الملك فى درسه

الأول ، وطلابه مفتونون به .. بل كانوا ألصق ما يكونون به
وهو يذهب مذهب القصاص ، فيفسر آيات امرئ القيس بما يرضى
نزعته ، يشهدهم بها من صواب التدبير والترتيب وحسن
الاستطراد . وجمال العودة ، ما يملأ صدورهم متاعا ووغناء . وقد
أحسوا هم — ولا سيما أن الساعات كانت تمضي سراجا — أن
عنده ما يملأ مئات الصفحات ، وإن يكن لاحقا في ذلك بأبي عمرو .
وخيل اليهم أنه ربما ملك مكتبة كهذه التي أحرقتها أستاذة ، وهو
غائب في البادية ! فلولا أنه دخل من كل باب ، وجرى بهم مع كل
ريح لقالوا : انه يردد نقولا لا يلبث أن ينساها أو ينتهي منها
فلا يجد غيرها من بعد !

ثم كان ما أدهشهم حقا أنه بعد أن وقف الوقفة المناسبة قام
الى حلقة خلف ، فأنصت وأحسن الانصات ، ثم طرق مجلس
الخليل بن أحمد فوعى وسجل ، وأنشأ يدور مع الحلقات ، وقد
بدا كما لو أن شيئا سوى العلم لا يشغله ، مع أن أحشاءه كانت
تستعر بلهب لباب .

البحر المنسحر

انه مذبذب !

هكذا قرر عبد الملك بينه وبين نفسه ، وكان يقصد ذاته هو ؛
فما كان يستطيع أن يستقر على حال ! الأمر يعقده ساعة ثم يطلقه
ساعة أخرى ، ويختار شيئا ثم لا يلبث أن يعدل عنه ، ويحدث
نفسه أن يتولى واجبا فلا يحس عباه حتى ينفض يديه منه ، وأبسط
شيء .. أقرب مثل على هذا هو عنتره ، وامرؤ القيس ، بل لباب
التي طالما حلم بها ، وحن إليها حنين عجول كما يقول شاعر تميم .
تبا لك أيها الشاعر .. ما عنى هذا ؛ فان لباب أرق على نفسه
من هبة نسيم على شاطئ الأبله وأحب الى نفسه من كل شيء ،
ولولا الحياء .. ولولا وازع ثقيل لكان عندها الآن ؛ فهي في القصر ،
ومولاها عند أبيه في الرى ، والفرصة مواتية ، ولكن القلب
هيتاب .

أهو الجبن ؟

بل دروسه .. بل ما عقد عليه نيته من تأليف ، وقد أخذت
هذه الحمراء في وضع ما تريد أن تطمس به مجد بنى جلدته ، ربما .
ولكنه يدرك تماما أن هذا غير حق ، وأن الخوف من مجهول هو

الذى يشده عن القصر الذى طالما طرقه ودار حوله ، واقتحم
غرفته .

فما يفزع والأمر لا يعدو أن يراها ، ويسمع إليها ، ثم ينتهى
كل شيء ؟ فإن ما فى أعماقه لأكبر من أن تعث به هذه الجارية ،
ولا يمكن أن تنسيه رسالته ، لا ولا تستطيع أن تسلبه شيئا من
كبريائه .. وهو العربى ، وأماهى !

وكان لابد أن يبدو أمام نفسه حاسما ، ولا سيما بعد أن
وقع تحت طائلة الاتهام بالذبذبة . فأسرع الى قصر الباهلى ، وقد
تبدد آخر ما بقى من مقاومته ، ودفع عنه الوجل دفعا . ولما وقف
بالباب تطالعه سحنة الحارس الأسود ودّلو أن الأرض انشقت ،
وابتلعته ابتلاعا . غير أن ابتسامته العريضة الودود ردت اليه
هدوءه ، فدخل وهو يتنفس الصعداء .

انه لم يعد صغيرا ، وكبرت هى .. وما أبعد العهد الذى شهد
أول لقاء بينهما على غير شيء الا أن يكون هو السيد بحق القربى
التي تربط بينه وبين آل قتيبة أصحاب القصر . ويقدر ما كانت
تنبو عنه العين ظفرت هى بالقبول ، وان تكن ملاحظها اذ ذاك
لم تنم على ما طالعه به فى آخر لقاء .

وبين اللقاء الأول واللقاء الأخير جرت أمور .. انتقل سلم
ابن قتيبة الى الرى أميرا ، واحتل ابنه سعيد هذا القصر ، واستقل
أخوه عقبة بقصر آخر على شط عثمان فى حين أبى شقيقهما ابراهيم
الا أن يسكن المدينة الجديدة مع قريب من الباهلين اسمه مالك
ابن محرز ، وكان هذا أثيرا عند المنصور ! وصارت هى .. يا لله

معذرة أيها الأمير الغائب في خراسان ، فأننى لا أستطيع أن أنكص
على عقبى — كما راح يقول لنفسه — ان أباك كان يهيب بى أن
أجلس إليها ، فلم آكن فى كل حياتى أكثر سعادة منى اذ ذاك ،
ولم أعرف قط حقيقة النعمى كما عرفتھا قبل الرحيل ، وقد حاولت
مرارا ألا تروق فى عينى ، فى فؤادى ، فى هذه الأعماق التى لم يعد
لى سلطان عليها !

ودخل أحد أبناء سعيد ، هو الفضل أو عمرو .. لا يدرى ،
فأصبح لزاما عليه أن يمسك عن أى شىء أخذ به نفسه ، ولو كان
هذا الصبي أخف أهل الأرض لأصبح فى هذه اللحظة أثقلهم !
وسيم ، وديع ، دمث .. لا يملك أحد أن يكرهه ، فلما قالت له :
— وهل حفظت درسك قبل أن يقدم الشيخ ؟
أجاب فى هدوء :

— لا أريده ما دام العلم موجودا .
وأوماً الى عبد الملك ، فسرى عنه ، ولحسن الحظ أنها فتحا
هذا الحديث ، والا كان أعياء أن يجد موضوعا للكلام . وقد بلغ
من تحوله السريع الى الرضا أن اندفع يكشف عما تزخر به نفسه
من أرق العواطف ، وهو يوطن النفس على انتظار جديد ، فقال :
— ومن شيخك أيها الفتى ؟

— محمد بن زياد !

— هكذا .. بلا لقب ، ولا ذكر لأصله ؟

— هو من الكوفة ، ولكنه أسود كليل المريد .

وتدخلت لباب برقتها المعروفة .. ولكنها لم تحاول أن تخفى

برمها باللهجة التي تعرض بها الصبي لأستاذه ، فصاحت :
— هانتذا تعود الى الأسود والأحمر ، ألم يكفك أن تخاطبه
بابن الأعرجي ؟ ما معنى هذه الصفات التي تخلعها في سخاء على
من تكره أيها الأمير ؟

قال الأصمعي :

— اذا كان هذا ما تقولين فأحرى بولدنا أن يسكت ، ولكنني
أرى أن نعتة بالسواد لا يضيره .

فتطلعت الى سحنته طويلا ، وقالت :

— فهل اذا وصفك واحد بما تكره روضت نفسك على
القبول ؟

فقال :

— ربما .. ولكنني لا أنكر أن من الأمور ما ينبغي أن نسفر
عنه .

فوافقته ولكنه استطرد ، وقد أدرك أنها تشير الى دمامته :

— فلو أن واحدا جاءني ، وصاح في وجهي : يا أصمعي ،
انك لقييح ! لقلت مرحي لأنه لم يزد على أن قرر واقع الحال .

وهنا احتدت لباب ، وصاحت :

— بيد أن لهذه القاعدة استثناء .. ان السرقة جريمة تقطع
فيها يد السارق كما يقول ديننا الحنيف ، ولكن الرجل الذي
يرتكب هذه الجريمة لا يجب أحدا أن يقول له : أنت لص !
فصاح الأصمعي :

— هذا أمر آخر ، والموقف على أية حال مغاير .. اننا نحترق
اللص ولكننا لا نتقبل القبح ، فاذا نعتنا السارق بما يكره فلأنه
يرى أن نقيصته حقيقية .. اننى أتحمّل أن يشاع عني أنى قبيح ،
ولكننى أجد غضاضة أن أشهد على سرقة ، والأمر مهما يكن فهمنا
له لا يستحق كل هذا العناء ؛ فانه مما لا شك فيه أن من الخير
ألا يستخف ذو العقل بأحد ، وأحق من لم يستخف به ثلاثة :
الأتقياء ، والولاة ، والمعلمون .

وكانما كانت عبارة عبد الملك قد وضعت حدا لكل شيء ؛
فقد انصرف الصبى ، وقد بدا أنه لم يفهم ، ودارت هى على عقبيها
تهم بالخروج اثره فتشبت عبد الملك بأخر أمل فى نفسه ، وقال :
— لباب .. ان من يتعلم كلاما حسنا فيتكلم به فى موضعه ،
فلا تريتّن عليه فى ذلك جناحا .

— ماذا تعنى ؟

— احياء العقل لا يكون الا بالصدق ، ولم أكذبك قط
يا لباب .

— لم أفكر فى هذا .

— وأنا فكرت .. فأنت تظنين أننا نحترق كل من ليس فى لوننا ،
أقولها لك يا لباب ، نحن لا نخاف الا الحمراء ، فاذا لم تكن لها
يد الى أن تكيد الكيد لنا آثرناها بقلوبنا ؛ فالمحبة يا لباب تبلى
المرء مبلغ الفضل فى كل شيء من أمر الدنيا والآخرة ، تعرفين من
قال ذلك ؟

— لا !

— أنه واحد من الحمراء .. انه عبد الله بن المقفع ، وأضاف
على ما تسعفنى به ذاكرتى أن على العاقل الذى يؤثر المحبة ،
ويؤثر بها ألا يخادن الا اذا فضل فى العلم والدين والأخلاق لياخذ
عنه ؛ فان الخصال الصالحة من البر لا تحيا الا على هذا النحو !
وحدقت فيه .. حدقت طويلا طويلا ، وبدا كما لو كانت تشعر
بما يضطرب به ، وخيل اليه هو أن نظراتها نفذت الى قلبه ،
ولم يعد يرى فيها ذلك المناقش اللحوح ، ولا هذا الذكاء الذى
طالما أضاء فى عينيها ، ولا دقة حفظها ، تلاشى ذلك كله ، وعبرت
قسماتها عن فتنة فقط .. مجرد أثى رقيقة !

ولكن يرتج عليه ، ويمضى يسأل نفسه : لماذا لا يندفع نحوها ،
ويعبر لها عن كل ما فى نفسه بصدق ، وينتهى كل شيء ؟
لماذا لم يجرؤ ويواجه كل ما يحسه ؟ من ذا الذى يملك عزمه
فى هذه اللحظات ، ويتفكر فيما يجب ، وفيما لا يجب .. يتفكر
فى هذا الخيط الرفيع الذى يشده الدين ، وكأنه سور كسور
البصرة الصفيق ؟

هو يقول لنفسه فى بعض الأحيان : انك يجب أن تقول لها
اننى اخترتك وها هى ذى اللحظة المواتية .. فما أعجز الانسان !
لقد قدر له أن يتعذب .. يتعذب ، وينصرف عن علمه وتحصيله
ومجلسه . أين هذا اللسان الذى يثفيض فى صحن الجامع ، ويأسر
الأسماع ؟ أفتسمع منه ما يجب أن يقول هذا اللسان ؟ أيقول : ان
لكل مخلوق حاجة ، وحاجته هو عندها .. أيقول ؟
ولكنها لا تمنحه فرصة القول ، فها هى ذى تمضى مولية ،

مسرعة كأنها تخشى منه شيئاً ، فينهار ، وينهار كل شيء !
اذن فقد كان واهماً ، وكان يبنى قصوراً في الهواء ، ولم يفكر
قط في أنها من الممكن أن ترفضه كرجل .. ربما لصورته ، وربما
لخلقته ، وربما لولعها برجل ما أو لتعلقها بأحد أولاد الأمير ، بل قد
تكون على حب للأمير نفسه ، ويمنعها هذا الحب أن تنصت إليه
وهو يريد أن يكشفها .

أجل كان واهماً ، وانتهى الأمر .

وأحنى قامته ، وأسرع يعدو كالمجنون ، يعبر بحركات يديه
التي يضعها على صدره عن الألم العظيم الذي يمزقه ، فلقد كانت
صورتها وهي تنصرف عنه تمضه وتهده ، ولم تشعر هذه الجارية
التعاسة بأنه كان من الممكن أن تسمع إليه ، وتنصت حتى يكشف
عن أعماقه البيضاء ، ولكنها تعجلت وأهملته هو الذي لم ينس
مرة واحدة .

قف أيها القلب عن الخفقان !

ان الأعراب يحدثون عن ضرب من الخيل اذا أرهق قطع
بأسنانه شريانا يعرفه حتى يموت .. انه يؤثر حياة لا يخضع فيها
لمخلوق !

وهو ؟

فِي أَعْقَابِ الْأَزْمَةِ

مرّت بعبد الملك أيام خيل إليه فيها وهو يستحضر دقائق محاولته الأخيرة الفاشلة أنه ما زال هناك متسع لاصلاح ما أفسد ، وحاول في قصيدة طويلة أن يسجل ما يعاينه في اباء دونه اباء عنتره . غير أنه وجد الأبيات في آخر الأمر أشبه بنظم المسجدين الذين اعتاد أن يلزمهم في البصرة ، فمزقها ، وهو يعجب للفتور الذي اعتراه بعد انتهائه من الكتابة !

لكنه كان يرى أنه لا حاجة تدعوه الى مبارحة بئر الحفير ، ولم يشنه أحد عما أخذ به نفسه من صمت وعزوف عن الأكل . وزاره خلاد بن يزيد الباهلي — وكان يحفظ الشعر وينقده — كما زاره أبو هشام صديق بشّار وأثيره . وعبثا أغراه أخوه — الذي كان يجهل كل شيء — برحلة ترفيهية الى بغداد ، وكانت كما قال قد اتسعت وعمرت حتى لتفوق البصرة ، مع أنه لم يمض على انشائها أكثر من ست سنوات .

كان يرفض كل عرض ، ويأبى الا أن يقف ساعات تحت نخلات قبالة داره ، وكان فيما مضى يتفياً ظلالها ، وها هو ذا يعود

اليها من جديد مثقلا بالألم ، وليس أمامه الا أن يفكر في جارية
كان من الممكن أن يطلبها من سيدها وينتهي كل شيء . .
تمكنت الحمى منه في آخر الأمر .. عزاها هو الى ما ألمّ به
في أثناء عودته من البادية ، ورآها أهله نتيجة الهزال الذي أصابه !
وبكت أمه ، ولم يجد الأب الا أن يحوقل ، ويقرأ الدعوات ،
وعبد الملك يبرد ويسخن ، ويغيب عن وعيه ، ثم يعود ليسأل :
متى يطلع النهار ؟

واحتجم .. وأسقى الشراب المرّ ، فلما أبلّ كانت أشعار
المجنون قد احتلت من نفسه كل مكان .. انه يهيم به ، ويضل ،
ويصعد ويهبط ! انه .. بل انهم .. ألم يخبر بذلك ذلك الشيخ
من عذرة ؟ لكأنه يراه ، أو يراهم وهم يفرشون ثراهم بالدموع ،
ثم يراهم وهم ينظرون الى القمر الذي يحاول أن يهتك أستار
الظلام ، ويقولون : ألا بلغت عنا السلام ؟

وارتجف جسده ، ففتح عينيه ليرى بعض عواده من أقاربه ،
ويرى الجهضمي ، والنضر بن شميل ، والسدوسي كما يرى خلفا
ابن أستاذه ، يهديه تحية أبيه ، وتحية الأحمر ، ثم يرى أبا هشام
مرة أخرى ، وباهلين آخرين ، فطفق يقول :

قال مؤرج السدوسي :

— طالت المرضة يا أبا سعيد !

فقال عبد الملك :

— أنا .. أهكذا ترى ؟ اذن يكون الزواج قبل أن تودى بنا .

قال أبو هشام :

— والله ، انى لأرشدك الى عيلة من باهلة ، وانى لا أراها
دون أهلى ، فهما أختان !
وهز عبد الملك يده ، ثم قال :
— الله لما ترون .. ولكن ألا يحسن أن يعاهد المرء نفسه
بما يكون به للخير أهلا ؟
— وأنت أهله .

— وأنا على هذا الأمر ، لقد قيل أشياء ليس لها بقاء : المال ،
والشباب ، والحسن .. وأنا لا مال لى ، ولا شباب ، ولا حسن ؛
فكيف أنا أهل لما ترون ؟

— اذا لم تكن ، فمن يكون ؟
— لست أدرى ولكن العاقل من لا يرى أكثر مما تراه عيناه ،
ولو خاطر بنفسه ، وعرضها فى وجوه النزق كان ذلك حقا .
واستمر الأمر بين أخذ ورد حتى بدا كما لو أن صفاء ذهنه قد عاد
اليه من جديد . واتسعت دائرة السمر ، وخاض الجميع فيما أحبوا
ومالم يحبوا . غير أن شيئا لم يضحكه لأول مرة حين وقع فريسة
للمرض كما أضحكته حكاية كلب قرييه الذى كان فى بيت بشار
قبل أن يؤدى حق الزيارة له قال :

— لقد كان ينشد شعره الفاجر ، فقلت « استر شعرك هذا
كما تستر عورتك » فصفق بيديه غاضبا ، وقال « مَنْ أنت
ويلك ؟ » فقلت « أنا — أعزك الله — من باهلة ، وأخوالى من
سلول ، وأصهارى عثكل ، واسمى كلب ، ومولدى بأصاخ ،
ومنزلى بنهر بلال » فضحك بشار ، ثم قال « اذهب ويلك .. فانت

عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استشرت منى بحصون من حديد .
وضجّ المجلس صخبا وضحكا ، ولكن أبا هشام قطع كل
أولئك بقوله :

— أنت يا كلب ، لم تؤله كما آلمته .. ألم تسمع ما قلته فيه
بعد أن وقع بيننا ما وقع ؟
وهنا تساءل عبد الملك :

— هل وقع بينكما شيء ؟ والله أخشى أن يفتك بنا هذا
القن ابن القن ، وينسى فضل باهلة عليه !
قال أبو هشام :

— لقد بدأ يغمز ويلمز فعلا ، ولكنني أراه يسكت بعد أن
يسمع قولي فيه :
أمك يا بشار كانت عفيفة

على ؟ اذن مشى الى البيت حافيا
وارتفع الصخب من جديد .. من مجذ ومن منكر ، من
شامت ومن راث ، أما عبد الملك فقد أحس بقرب عاصفة ،
ورأى أنهم — كباهلين — لا قبلَ لهم بمواجهة بشار .. ابن
الطيبان كما يسمونه أو القن كما يسميه هو ، فهو لا يحجم عن
اجتناء ما يراه حقا في هجائهم ، بل لعله يرى فيهم كل ما يريد من
معاني الهوان والخسة .. توكيدا لما درج عليه في الأيام الأخيرة
من تعريضه بالعرب !
ومن ثم قال :

— اسمع يا أبا هشام .. قال سيدهم أعدل السير أن تقيس

الناس بنفسك فلا تأتي اليهم الا ما ترضى أن يؤتى اليك !

قال أبو هشام :

— فماذا تعنى ؟

أجاب :

— اسكت عنه تنج وينج !

الفاجعة

كان على عبد الملك أن يعود أبا عمرو .. فقد بلغه أن المرض أقعده في فراشه نهائياً ، فلما انتهى من القاء درسه عرج على حلقة الخليل بن أحمد يسمع الى شيء مما يدور فيها . غير أنه لم يلبث طويلاً ، اذ دفعه الى القيام ما قصه عليه من أمره ابنه خلف . وعلى الرغم من أنه كان قد اتفق مع أبي محرز على أن يقصده في داره ليقراً عليه ما دون من قصائد امرئ القيس فقد آثر أن يزور أبا عمرو أولاً . وهناك فوجئ بما لم يتوقعه ، اذ علم أن ما جمعه من شعر الشاعر الجاهلي سبقه الى مثله أبو عبيدة والمفضل الضبي وحماد الراوية ، ثم ذلك الشخص الذي ذكرته لباب باسم ابن الاعرابي .

على أنه قرر وهو في الطريق الى خلف بن أبي عمرو — أن يضع كتابا يخل فيه ما يستقيه من شعر امرئ القيس عند الجميع ، بمعنى أن يحاول تمحيص كل ما ينسب إليه ، وبتحري الرواية التي ينبغي أن تثبت .. لا سيما أنه لم يكن يرضى عن التوسع الذي يلجأ اليه حماد كعادة أهل الكوفة ، ولعل ابن الاعرابي بدوره يكون أكثر تساهلاً من زميله ، وأما المفضل الضبي فهو حجر

الزاوية — في رأيه — لأنه معروف عند علماء البصرة بتضييقه ، ولم يفكر في أبي عبيدة .

وكان بيت خلف على شاطئ معقل .. يمر الداخل إليه في دهليز رآه الأصمعي يضطرب بنفر من الناس ، وشاهد أبا محرز في نهايته وهو جالس على تخت في ملحفة معصفرة — على غير عادته — وبين يديه قدور طعام يأمر بها عبده فيفرقها على الحاضرين . فأنشأ عبد الملك يرقبه وخلف بن أبي عمرو يخوض في حديث عابر لم يكن عبد الملك يلقى إليه بالاً !

ولم يكن أحدهما في حاجة إلى أن يسأل .. فقد بلغهما أن أبا محرز ختن ابنه ، فكان على عبد الملك أن يتوجه إليه يلهو معه بالجوز حتى يأكل الناس ، وظن أنهم منصرفون لولا أن سمع بعض الحاضرين يقول :

— يا أبا محرز لو أذنت لنا فأرسلنا لابن رزين وعبده فيغنيانا .

فصاح قائلاً :

— ما شئتم !

ولكن الرسول عاد بعد قليل وهو يقول :

— كلاهما مريض .. ولكني عرجت على أبي الملد فتبرع

بجاريته ، وها هي ذى !

ودخلت الجارية .. مترددة وجلة ، في قدّ لباب ! هكذا

تصورها عبد الملك ، الا أنه لم يكن بحاجة ليقفه أحد على فرق ما بينهما .. كانت لباب أجمل برغم تفجّر شباب هذه ، وكانت قد هتفت بصبي معها :

— هات خملتي والعود !

وقد وضعت الخملة على كتفيها وبدأت أصابعها تلمس الأوتار
في رفق ثم ما لبث صوتها أن انساب :

يا خليلي هاجني ذكرى وحمول الحى اذ صدروا
وهاج المجلس واضطرب ، فقد كان الصوت الرخيم يأخذ
به أخذا ، ولكن عبد الملك كان في حال أخرى .. تدمع عيناه فيراه
أبو محرز ويدهش ، ثم يقدم نحوه قائلا :

— ما أعلم أحدا بلغ من حب الغناء ما بلغنى من أمرك .

— كيف هذا يا أبا محرز وأنا أزور عنه ؟

— دموعك والله ، وانى لأستقل ذلك لك مع حدسى بأمور
وقعت منك ، فهل من حاجة أصير فيها الى ما وراءها ؟

— لا شيء يا أبا محرز ، ولكنه عارض جعلت فداك !

— اذن أسألك واحدة .

— سلها يا أبا محرز

— ما سرّ أن تلزم بئر الحفير أربعة أشهر ومرضتك
فيما أخبرت كانت يسيرة ؟

— يا أبا محرز .. ان شئت فاشتمنى وان شئت فاقدفنى غير
أنه لا بد لى من أن أسكت ، فليس كل ما فى الفؤاد يقال .

— والله لن ينتهى هذا المجلس على ما أرجو حتى تتكلم .

— دعنى جعلت فداك .. أو تعفينى ؟

— لا ورب الكعبة .

وكان من الممكن أن يطول الجدل ويمتد ، لولا أن دخل فارس يبدو عليه من آثار الغبار ما ينبىء عن أنه قادم من سفر ، وهو يتجه الى أبي محرز كأنه يعرفه ويقول بصوت يقطع غناء الجارية :

— أمير المؤمنين يطلبك .

وينقطع كل صوت .. فلا نأمة ولا همسة ، والعيون تتطلع الى الرسول والى أبي محرز ، فيقول هذا متسائلا فى دهشة :

— أنا يا أخا العرب ؟

وينفض الفارس هندامه ويجب قائلا :

— أجل .. وقد أمرت فأسرجوا لك .

قال :

— أمن غير ريث ؟ السمع والطاعة على أية حال .. ولكن

ألا أقمت يسيرا فأكلت من مشوشتى وقليتى وشربت نبذ التمر ؟

قال الفارس :

— اعفينى يا أبا محرز ؛ فالطريق طويلة وأمير المؤمنين فى

بغداد ينتظر بغداد ..

دوتى الاسم فى أذننى عبد الملك فشغل به عن كل شىء .. لقد

تنبه فجأة الى أمر فيه غاب عنه منذ سمعه أول مرة ، علام تدل

عليه كلمة بغداد ؟ أو لم يعتد الحمراء أن يحكوا عن صنم لهم

اسمه « بنغ » . فاذا كان ذلك كذلك فما معنى المقطع الثانى من

الكلمة .. علام يدل « داد » ؟ ربما كان علما ؛ فالحمراء تسمى

بداد أو بداذ ، وكان اسم المقفع « داذويه » أليس كذلك ؟

والحمراء أيضا تقرر أن « داد » أحد مشتقات العطاء ؛ فلعلها كذلك أو لعلها العطية أو الهدية ، فواخجلاه ! الخليفة العربي يسكن مدينة يسميها « عطية الصنم » أو « صنم داد » .

الى هذا الهوان ينتهى ، وهو الذى ضرب الحمراء فى خراسان وقتك بالراوندية فى الهاشمية واستخدم العرب الخلاء واتخذ منهم صديقا .. ألم يول سلم بن قتيبة خراسان نفسها ؟ ألم يؤاخ مالك بن أدهم بن محرر الذى قاد أبوه الجيوش للحجاج ؟ كلاهما باهلى ..

الى أين تسير الدولة ؟ ليس يدرى .. ولكنه يعلم أن الأمر لما أطلق اطلاقه هذا أزفت النهاية وزال سلطان" أحب أن يتمكن من النفوس ؛ فليس بعد الأمويين من يصلح لأمر الأمة الا هؤلاء برغم كل شيء ..

أليس كذلك ؟

وتنبه الى أنه رفع صوته ، واذا ذاك شاهد خلف بن أبى عمرو يتطلع نحوه وهو يقول :

— أتخطبني يا أصمعى ؟

فلا يجيب ، لأنه يرى أن المكان ليس فيه أحد سواهما ، وكان الفارس لا يزال واقفا وهو يمد بصره الى عبد الملك ، فلما سمع صوت خلف قال :

— هو أنت اذن .. لقد سمعنا بك فى بغداد !

مرة أخرى بغداد .. فهز كتفيه وهو يتسم فى مرازة ، ولكن الفارس يستطرد قائلا :

— علمنا أنك من باهلة .

أترأه يعيّرهُ بنسبه ، ونسبه ينتهي إلى قتيبة بن معن وهذا
أمه بنت عمرو بن تميم ولم تلده باهلة ؟
— أجل أنا من باهلة .

وعلى غير ما توقع سمعه يقول له في أسي ظاهر :

— اذن تقبل عزائي فقد نعى رسول من الرى الأمير سلم
ابن قتيبة !

يوم عادي

ترك عبد الملك أباه وأخاه واتجه مباشرة الى الجامع وهو يغبط نفسه على كل شيء ، فبدلاً من أن ينكفيء على وجهه أو ينهار بدا متماسكا وهو يتقبل من المعزين مواساتهم . وراح يذرع القصر ، ويخاطب هذا ، ويكلم لباب ، ويشير على الأمير سعيد بما يرى ، ثم يخرج الى الجامع فيجد حلقة درسه في انتظاره .

وقبل أن يبدأ أقبل عليه معارفه يعزونه من جديد .. أقبل أبو عبيدة وأقبل أستاذه الخليل بن أحمد ومعه أيوب السختياني وفي أعقابهما يونس بن حبيب ، وأتى بشار بن برد والمفضل الضبي ومروان بن أبي حفصة وشاعر يقال له اسماعيل ابن القاسم العنزي ^(١) صحبه حماد الراوية وقدمه اليه شاعرا من طراز جديد .

ومن بعد هؤلاء أبو الخطاب البهذلي ومؤرج السدوسي وابن كركرة وأبو سوار الغنوي والجهضمي وأبو البيداء الرياحي ، وكلهم كبار يعرفون الغريب ويروون الشعر ويسمع منهم عبد الملك

(١) هو أبو العتاهية على ما سيشهر به بعد .

ويدون ، ويقراً ما يكتبون عن الحشرات والجراح من الطير
والغريب من النبات .

نخب ونخب ..

ويتأثر ، الا أنه يستشعر زهوا . وحين يجد نفسه خالصا
لتلاميذه يذهب بصوته الرصين .. يتناول ما عساه يكون — في
حدثه — مثار سؤال أو موضع فائدة ؛ فهو يجب درسه أن
يكون نقاشا ، لا كقشاش المتكلمة ولا كجدل المانوية الذين يتسترون
وراء التعبد ثم يخوضون في الزندقة .

وابتسمت شفتاه ، وقال بعد الحمد :

— لقد كتبت عدة كتب أحسب أن خير ما أصنع أن أقرأها
عليكم ، واذا أبدأ بكتاب النوادر فلأنى أريد أن أسهم بنصيب
في الحركة التي تستهدف جمع الغريب . وفي الرأي أن كل ذى لب
مستوجب أن يسمى في ذوى الألباب عليه أن يأخذ من هذه
النوادر عتاده وليعد منها لطول أيامه ؛ فانه قد رام أمرا جليلا
وعلما نبيل لا يدرك الا بالمعجزة ، والحق أنه ليس ثمة ما هو
أمتع ولا أنفع من حديث الأعراب وروايات العقلاء منهم والفصحاء .
وسكت ريثما يتعمق ما ارتسم على وجوه طلابه ، ثم استطرده
قائلا :

— ولكنى أرجو أن تنظروا فيما يؤذيكُم مما أقول وفيما
يسركم فيخاطبني أحدكم فأعلم أن أصوب ذلك الشيء المحفوظ ؛
ففى الكتاب بعض ما تسعف به الذاكرة ولكن أطول العلم وأدومه
فى خاطر ، ولقد سافرت فى طول الصحراء وعرضها وخالطت

الصادقين والأصفياء فوجدت أن من يؤثر نفسه بالخير منهم يحفر في عقله أكثر مما يسجل في كتابه ، ومع ذلك فقد يجب أن ينظر المرء فيما أفنى من عمره وهو يتحدث إلى القرتاس ، ولا أقول الكاغد كما يحلو للحمراء وأتباعهم أن يقولوا .

ومرة أخرى صمت ، فسمع شفاها تغمغم ورأى عيونا تلمع ، ولكنه لم يكن بالذى يخشى واحدا من الشعوية ، وهو يرى من بين طلابه فريقا منهم ، فاستطرد في هدوء :

— أجل ، حتى إذا وجد نفسه وقد تنكب الجادة استغفر استغفار من أذنب وقال مما قاله الأعرابي بعد أن أدّى صلاته : اللهم ان استغفاري اياك مع كثرة ذنوبي للؤم ، وان تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز ، اللهم كم تحببت إلى بنعمتك وأنت غني عني ، وكم أتبعض اليك بذنوبي وأنا فقير لك ! ثم أخرج من كيسه أوراقا ونشرها ، وبعد ذلك راح يقرأ :

— قلت بعد الحمد وفي العزم أن أعدل ببعضه إلى كتاب آخر حدثنا رجل من بني رياح ، وقد أخطأني اسمه قال « جاء رجل إلى الأخوص ^(١) والأبيرد وهما من ولد عتاب بن هرمة مي يطلب هناء فقالا : ان بلغت عنا سحيم بن وثيل ^(٢) وأتيتنا بجوابه ؟ قال : نعم هاتياه ! فأنشدها :

(١) الأخوص بالخاء المعجمة هو زيد بن عمرو بن عتاب التميمي أحد الشعراء الفرسان .

(٢) هو سحيم بن وثيل الرياحي أحد بني حمير المضرى ، شاعر مخضرم عاقر أبا الفرزدق في مجاعة أيام علي بن طالب فمنع الناس من أكلها وقال « انها مما أهل لغير الله به » .

ان بداهتى وجراء حولى لذو شق على الحطيم الحرون (١)
فلما أنشده اياه أخذ عصاه وجعل يهدج فى الوادى ويقول :
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى
يقال للنافذ فى الأمور طلاع الثنايا ، وطلاع أتجد ، وجلا
بارز منكشف :

وان مكاتنا من حميرى مكان الليث من وسط العرين
حميرى ابن رباح بن ربوع .

ومضى عبد الملك فى حديثه وشرحه .. مندفعاً متحمساً ، وقد
أحس أنه عاد الى تفتحه والى انطلاقه ، ولا يرى هذه النظرات
التي تقلب فيه وترتد عنه فى سخط كظيم ، ثم يشعر فجأة بمن
يقحم نفسه الى الحلقة اقحاما .. أحد الأعراب يعرفه من عقاله
الذى يضعه على رأسه ، ويروح يطيل النظر فلا يرى الا شبابا
اذ ذاك يهدر :

— أياكم الأصمعى ؟

فقال عبد الملك :

— أنا ذاك !

فرمقه مليا ، ثم قرع عصاه وصاح وهو يجلس قبالة :
— أأأذنون بالجلوس .. هكذا تعلمت من أهل الخضر ، فهم
يقولون فينا غلظ وجفاء .

ثم ضحك فى عنف وصاح وهو يتجه الى عبد الملك :

(١) البداهة : أول جرى الفرس ، الحطيم : العنيف ، الحرون :
الفرس الذى لا ينقاد .

— أنت الذى يزعم هؤلاء النفر أنك أوثقهم معرفة بالشعر
والعربية وحكايات الأعراب ؟

قال الأصمعى وهو يتسم :

— أنا على أول الطريق وفى القوم من هو أعلم منى .. على
أنى قد أكون رجلك .
قال :

— أفلا تنشدنى من بعض شعر أهل الحضر حتى أقتدى على
شعراء أصحابنا .

فتفكر عبد الملك قليلا وقد استفزه تحدى الأعرابي ، ثم أنشد
أبياتا قيلت فى مدح مسلمة بن عبد الملك ومنها :

أمسلم أنت البحر ان جاء وارد

وليث اذا ما الحرب طار عقابها
وما خلقت أكرومة فى امرى له

ولا غاية الا اليك مأبها

كأنك ديتان عليها موكل

بها وعلى كفيك يجرى حسابها

اليك رحلنا العيس اذ لم نجد لها

أخا ثقة يرجى لديه ثوابها

وتبسم الأعرابي قليلا ثم هز رأسه وقال : يا أصمعى هذا شعر
مهلهل خلق النسيج خطؤه أكثر من صوابه ، يغطى عيوبه حسن
الروى ورواية المنشد ، يشبهون المدوح بالأسد الأبخر الشميم

المنظر والذي ربّما طرده شزيمة امائنا وتلاعب به صبياننا ،
ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه مرّ على من شربه ،
وبالسيف والسيف ربّما خان في الحقيقة ونبا عند الضربة ،
ألا أنشدتني كما قال صبي من حينا !

قال الأصمعي : وماذا قال صبيكم ؟

فأنشد الأعرابي :

إذا سألت الوري عني كل مكرمة
لم يعز أكرمها إلا الى الهول
فتى جواد أذاب المال نائله
فالليل يشكر منه كثرة النيل
الموت يكره أن يلقي منيته
في كرة عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقي الشمس كاسفة
أو زاحم الصم ألجاها الى الميل
أمضى من النجم إن نابته نائبة
وعند أعدائه أجرى من السيل
لا يستريح الى الدنيا وزينتها
ولا تراه اليها صاحب الذيل
يقصر المجد عنه في مكارمه

كما يقصر عن أفعاله قولي

وكان الشعر رائعا بحق ، وكانت معانيه تأخذ الجلوس أخذاً ،

وقد جذب الأعرابي بانشاده كثيرين وتجمع على الأصمعي من
الظرفاء وطلاب المعرفة ما أثلجته وكان طوال الوقت يتفحص
السامعين ويتعمق الأبيات التي تنساب الى سمعيه كما ينساب
الماء الرقاق من عين ثره ، فلما انتهى همس : أحسنت والله !
ولكن الأعرابي لا يأخذه ثناء ، ولا يلبث الا قليلا حتى يقول :
يا أصمعي ، ألا تشدني شعرا ترتاح اليه النفس ويسكن اليه
القلب !

وفي هذه المرة فكر الأصمعي قبل أن يفتح شفتيه بانشاد ،
وهنا عنت له أبيات لعدى بن الرقاع فقال :

وناعمة تجلو بعود أراكة مؤشرة يسبي المعانق طيها
كأن بها خيرا بماء غمامة اذا ارتشفت بعد الرقاء غروبها
أراك الى نجد تحن وانما منى كل نفس حيث حل صبيها
وهنا زادت ابتسامة الأعرابي اتساعا وقال : ما هذا بدون

الأول ولا فوqe ، الا أنشدتني كما قلت أنا ؟

فتساءل الأصمعي قائلا : وما قلت جعلت فداك ؟
فأنشد :

تعلقتها بكرا وعلقت جها

قلبي عن كل الوري فارغ بكر

اذا أصبحت لم يكفك البدر ضوءها

وتكفيك ضوء البدر ان حجب البدر

وما الصبر عنها ان صبرت وجدته

جيلا وهل في مثلها يحسن الصبر

وحسبك من خمر يفوتك ريقها
ووالله ما من ريقها حسبك الخمر
ولو أن جلد الدر لأمس جلدها

لكان للمس الدر من جلدها أثر
وكان الأعرابي قد وصل القمة بهذه الأبيات . وبدأ على الجميع
أنهم فتنوا به ، في حين وثب الأصمعي وصاح في تلاميذه : اكتبوا
ما سمعتم ولو بأطراف المدي في رقاق الأكباد !

وتحولت الحلقة الى ما أراد الأصمعي أن تكون .. أقلام
تصر ، وأوراق تقلب ، وأيد تتحرك ، والأعرابي يملأ والأصمعي
يعلق ويسأل مع ذلك ! وكذا كان ، والعالم اذا عثر على النادر
يرى أنه ظفر بالغاية كلها .. يلتمس الهدف الملائم فان لم يصل
اليه بمفرده استعان بغيره ، واذا كان الوصول الى الهدف أمرا
سهلا عند العامة فهو غير هذا عند واحد كالأصمعي . لقد أدرك
أنه فتح لتلاميذه معينا ثريا ، ومن ثم قرر أن يضيفوه ، وشرع
يخاطب كلا على انفراد يجمع له المال ليعيش بينهم .

وما انتهى هذا وذاك حتى عاد الى مساجلاته ومناقشاته ،
وخلط كل أولئك بتعليقاته الحلوة . وكان الدرس قد انتهى
— دون أن يقصد — الى احدى قصائد النابغة وطلب الى واحد
من طلابه أن ينشدها عليه ، قال :

— اقرأ ما أنشد النابغة قديما « كليني لهم » .

وتنحج الطالب ثم انطلق يقرأ من قرطاس كان معه :

— كليني لهم يا أميمة باضت .

وهنا انفجر الأصمعي ضاحكا ، وانطلقت الضحكات من كل جانب ، وكان الأعرابي لا يكاد يلاحق أنفاسه ، فلما هدأت العاصفة قال الأصمعي :

— يا هذا ، كل ناجمة الأذنين تحيض وكل سكاء الأذنين تبيض ، وإن يكن هذا مما لا يعنيننا الآن .
ولكن الأعرابي أعجب لعمق إدراك هذا العالم الشاب ، بينما عادت عاصفة الضحك ، ثم همس :

— لم أر تصحيفا أجلب للفائدة منه !

وتنهيا الأصمعي بعده للخروج ، وكان منشرج الصدر على ما تعود أن يكون قبل زوبعة الألم . وكان طريقه بسكة المربد مسرعا لنكات يسمعها من المارة ويستمعها لهم ، وقد التقى بالشاعر أبي هشام الباهلي الذي التحم مع بشار في هجاء نال منه وأوجعه ، وما كادا يأخذان بشيء من الجدل حتى طالعهما كناس ينزح كنيفا وهو يغنى قائلا :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
ولم يملك عبد الملك نفسه فاتجه الى الكناس وهو يقول :

— أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه وأما سداد

الكنيف فمعلوم !

ويبدو أن عبارته لم ترق الكناس لأنه حدجه بنظرة صارمة وقال :

— وأى كرامة حصلت لها منك ؟ وما يكون من الهوان
أكثر مما أهنتها بها ؟

قال :

— بلى والله ، ومن الهوان ما هو أكثر وأعظم مما أنا فيه .

فدهش الأصمعى وسأله قائلاً :

— وما هو ؟

فأجاب الكناس على الفور :

— الحاجة اليك والى أمثالك من السفلة ان سألتهم قالوا

بورك فيك !

فأدار الأصمعى رأسه وانطلق مولياً وهو يشعر أنه أخزى

الناس ، ولم يأبه لنداءات أبى هشام ؛ فقد أدرك أن الكناس

عرف كيف يتال منه .

بعد سنوات

لم يفت أمير البصرة — عيسى بن سليمان بن علي — أن
جوهرة لمعت فوق أرض المسجد الجامع ، فحرص على أن يضمها
الى العقد الذى يزين به مجلسه ، وربط له راتبا يضمن به ولاءه
وشخصه — وكان قد نما اليه حبه للأمويين — وأشعره أن كل
شئ رهن برضى السلطان عنه ، ثم أفصح عن مكنونه بقوله انه
سوف يرسل به الى بغداد .

— أنا لا أحب بلد الحمراء .

نطق عبد الملك بهذه العبارة وهو لا يكاد يحس ، ولكن
لهجته أثارت الأمير العباسى فقال وهو يكظم غيظه :
— لكأنى بك أعددت كلامك هذا قبل دخولك على .
قال عبد الملك :

— ربما . اذ ما أطول ما فكرت فى أمور أمير المؤمنين وهو
بين الحمراء فى بلده الجديد .. فى عطية الصنم أو ابليس والعياذ
بالله ، ولقد كدت جعلت فداك أن أذهب الى آكرة القرى أمنعهم
من مدتها بالحنطة والبر ، وفكرت فى أن أحرّض التجار على
شئ مثل هذا ، وراودتنى نفسى على أن أخوض مع عبيد المصر

في ثورة كشورة العلوي ، ولكنني تذكرت أن معدن هؤلاء واحد ،
فهم أما نبط وأما عجم ، والأمر بعد في يد الله .
ودعش الأمير ، ولكنه ظل يستمع بهدوء ، حتى إذا انتهى
قال :

— كان أبي يقول لي دائما وأنا طفل خذ حذرک من عالم
يثور ، وكأنه قد آزفت اللحظة التي ينبغي أن أصطنع فيها هذا
الحذر ، ولكن ألا ترى أنك تقتل نفسك يا أصمعي ؟
قال عبد الملك :

— لا وجه لذكر ذلك الآن .. فأنا لست عالما لأقتل ، غير
أنني لا أزال مقتنعا بضرورة الوقوف في وجه الحمراء ! إن
الضرائب التي تجيئها مثلا باسم أمير المؤمنين لبناء سور البصرة
لن يفيد بها أحد سواهم مهما تكن الأحوال ، فالسور يتحصنون
وراءه والمال الذي يؤخذ منا أربعين أربعين ينتفعون به وإن كان
خمس خمسة .. أسمعت ما ينشده أهلنا العرب أيها الأمير ؟

يا لقوم ما لقينا من أمير المؤمنين

قسم الخمسة فينا وجانا أربعينا

من أجل هذا ومثله — جعلت فداك — يجب أن تتصدى
للموالى أجمعين ، ولو لم يكن لي بيت فيه زوج لي وأولاد اذن
لكان عام أربع وخسين فاصلا بين عهدي .

قال عيسى بن سليمان :

— ولماذا هذا العام بعينه ؟

أجاب :

— لأنه عام الحزن والفقد .. فيه مات أخى وأمى ، وفيه
قضى أبو عمرو بن العلاء ، وفيه نزع الأمير سعيد عن البلد
فأقفر وشاه في عيني .. ثم فيه يقام هذا الحائط الكبير !
أحس عيسى بأن هذا الرجل الناحل العود في ردائه الرخيص
المتألق العينين .. يطوى نفسه على أكثر مما يصرح به ، فقال
يستدرجه :

— وماذا ترى ؟

أجاب بصراحة :

— يقصى يحيى بن خالد بولده الفضل عن قصر الخلد
ببغداد .

قال الأمير :

— تأبى ذلك سيدة القصر .

وزم الأصمعى شفثيه ثم قال :

— وما دخل النساء في شأن الرجال ؟

أجاب :

— أم الفضل أرضعت ولى العهد ويقال ان سيدة القصر

أرضعت الفضل ووثب الأصمعى كالمذعور وهو يصيح :

— كذا .. والله ان نفسى لتحدثنى بأمور وأمور !

ثم سكت برهة أردف بعدها :

— لقد كان يقال على العاقل أن يؤنس ذوى الألباب بنفسه

وقد فعلت حتى تكون على بيّنة من الأمر ، فان شئت استبقيتنى

والا فاخذف بى الى حيث لا يعلم أحد .

فتضاحك عيسى وضاح قائلاً :

— بل ستبقى يا أصمعى اذ لم تزد على أن كشفت عما ينبغي أن نكره ، غير أنى أعتب أن تدع حظنا من السرور بما حفظت من شعر قاله المهلبى فينا .

قال الأصمعى :

— ابن أبى عيينة ؟ انه يذمنى عند معمر بن المثنى فكأنه لا يزال يحمل غل ثار قضيناه .. ان فى البصرة أشياء عجيبة حقاً ، ولكن كل حى سيوفى ما كسب .

وسكت ، فقال الأمير :

— قلها يا أبا سعيد . هات ما يتحدث فيه عن المباقل والفراريح .. أنشدنيها !

فوالله لا أطرب الى صوت أحد كما أطرب الى صوتك وهو ينشد .

قال عبد الملك :

— مع ما فيما تطلب من سباب ؟
قال :

— مع ما فيه من كل شيء .

فأنشد الأصمعى :

إذا ما بنو العباس يوماً تبادروا

عزى المجد وابتاعوا كرام الفضائل

رأيت أبا العباس يسمو بنفسه

الى بئع يباحاته والمباقل

يرخم بيض العام تحت دجاجة

ليخرج بيضا من فراريج قابل

ومضى السمر على هذا النحو .. غنينا رقيقا ، فيه مرارة

وفيه حلاوة ، حتى اذا أوشك الليل أن ينتصف قام الأصمعي

خفيفا ، وخرج يضرب في سوق المربد على حماره وهو يخب في

الجبان الى وادي العقيق حيث داره الصغير .

متاعب

أصبح أبو سعيد ذات يوم فاذا البصرة تقرأ كتابا يرد عليها من بغداد أو الكوفة سماه واضعه « المفضليات » وتردد في الوقت نفسه هذه الرواية التي راح ابن الأعرابي — وهو محمد بن زياد — يدور بها في المسجد زاعما أن الضبي يقول : قد سلط على الشعر من حمار ما أقسده فلا يصلح له أبدا .

وفجع عبد الملك .. فقد كان منذ يومين فقط قد قال وهو يقرأ في ديوان امرئ القيس الذي يوشك أن يتيه : كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس هو عن حماد الا أننا سمعناها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء .

ثم ازدادت فجيعة عندما دخل المسجد فرأى أبا عبيدة يقبل على ابن الأعرابي في نفر من الشيوخ ويهدر كالفحل قائلا : — سمعت أبا محرز يقول بالأمس أخذت من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيته المنحول .

ما معنى هذا ؟

ابن الأعرابي وأبو عبيدة اتخذا كتاب المفضل الضبي ذريعة للهجوم على ما ينبغي أن يصاب ، ولعلهما يقصدانه هو .. فان

الأول قد نال منه في قصر الأمير سعيد قبل أن يرحل ؛ فقد سمع
أحد أولاده يقول لبعض بني كلاب :
سمين الضواحي لم تورقه ليلة

وأتعّم أبكارهم الهموم وعوثها

برفع ليلة ، فسأله الأصمعي وأبوه الأمير يشهد ويسمع :

— من روّاك هذا الشعر ؟

قال :

— ابن الأعرابي .

قال الأصمعي وهو يتذكر تصدّى لباب للدفاع عنه ذات

يوم :

— انما أراد لم تورقه أبكار الهموم وعونها ليلة بالنصب ،

وأنعم أى زاد على ذلك .. أحضروه !

فلما جرى به صاح الأصمعي وهو يروى روايته للبيت :

— هكذا روّيتهم هذا البيت برفع ليلة ؟

أجاب وهو ينتفض بعض الشيء :

— نعم !

فانبرى أبو سعيد يبين له وجه الخطأ الذي وقف عليه الأمير

سعيد من قبل ثم قال :

— ولو كانت الرواية « ليلة » بالرفع كانت ليلة مرفوعة

بتورقه ، فبأى شيء يرفع أبكار الهموم وعونها ؟

وأرتج على ابن الأعرابي ولم يحر جوابا فقال الأصمعي بتشلف

عجيب :

سب من لم يصيب هذا القدر فليس موضعاً لتأديب ولذلك
وقد كان !

وأما أبو عبيدة فهو خصمه القديم ، ولكنه في هذه المرة
لا يقصر عداءه عليه فقط .. لماذا ؟ انه يزعم أن أبا محرز قال له
انه خدع حماداً وكذب عليه ، فلماذا لا يذهب اليه ويسأله ؟ كيف
يسمع هذا فيكتفى بالتفراج ؟ ان مهزلة من مهازل الحمراء توشك
أن تمح . ألا يصح هذا أن ما يحفظ البصريون من شعر هو متحل
ما دام أبو محرز يضع الشعر لهم ؟ وما جدوى أن يقول أبو عمرو
الشييباني « ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الرواية
الأقدمه على نفسه » .

حتى أستاذة الأول يضيع على هذا النحو المهيئ !
وأسرع الى خلف الأحمر وهو يستعيد شريطاً لحادثة وقعت
منذ أيام في بيت عيسى بن سليمان العباسي .. كانوا على سباط
عندما اتبرى ابن منذر لخلف وهو يقول :

— يا أبا محرز ان يكن النايعة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا
فهذه أشعارهم مغلطة قيس شعري الى شعرهم واحكم فيه
بالحق .

ماذا فعل خلف عند ذلك ؟

لقد غضب بحق .. احبرت وجنتاه حتى أحس الأصمعي كما
لو أن نارا ستفجر منهما ، ثم اذا هو يراه وقد أخذ صحيفة مملوءة
مرقاً قرأ بها عليه فصلاه .. والأمير ينظر ويسجب متغاضياً عن
سوء ما يلبر من الاثنين جميعاً .

يسير في الطريق إلى حوائط مثل هذه ، شجرة واحدة ،
وسمعه يقول لبعض من كان يسأل عن البصر بالشعر : إذا أخذت
أنت من هذا فاستصحت فقال لك الصراف انه ردىء ، هل تصاك
استحييتك له .

لم يقطع شيء من ذلك حتى امتوى أمام خلف وهو يلهث ،
ولم يكده يضع أوراقه حتى تنبه إلى غلام لعله كان أكبر منه شيئا
يوم قصد بعض أبي عمرو لأول مرة .. كان فيما ينلو يتم حديثا
مطلة لفتاعله هو المكان ، قال :

— ان شعر الأعمى خير ما جادت به قرائح الشعراء

وأثارت عبارته الأصمعي فقال :

— أتعنى أبا معاذ يشار من برد ؟

أجاب الصمى بسرعة ، ولكن في رزاة لا تناسب منه

— أجل .. فهو يرسل نفسه على سجيته !

قال الأصمعي وخلف لا ينس .

— ألا تضيق بأفراقه في الخيال ؟

ولم يستطيع الغلام أن يجيب ، وبدا كأنه وقع في مأزق ، وهذا

خلف إليه أبو معز قائلا :

— قل له يا بن هانيء ما قلته لي حين سمعتني أنشدك لامية

الشنفرى

قال الأصمعي :

— لا عليه إذا لم قل فإن هذه أشرف مما يقول يشار

وكما كان يفعل وهو صغير اندفع ابن هانيء خارجا وهو

عسى أن يخلصك الله من يدهم معا شيئا ، ولكنها دفعت إلى أن
تسأل :

— ومن هائيء هذا حتى أعرف ولده به ؟

أجاب خلف :

— يقال أنه من ولد الحكيم بن سعد العنبري أجدي أفعاد

مذبح ، ويقال أنه سولى لهم .. مات تاركا الصغير لأمه حليبا

قال الأصمعي :

— لا اختلاف في اسمها وعصتها ، ولعلها فارسية

قال خلف :

— ولكنه شاعر

ولم يهتز عبد الملك ، إلا أنه أحسن من بعيد كان أبا معزز

يقينه به ، فأكبر أن يخلص إلى ما يريد فصاح :

— أنت هنا تسمع للعلماء وفي المسجد يخوض فيك أبو عبيدة

قال خلف :

— سكت اليهودى .. وماذا قال ؟

أجاب :

— زعم أنك وضعت الشعر لحباد يرويه عنك

ولم ينكلم خلف .. سكت طويلا والأصمعي قبالة قلق ،

ويستظر عينا ويصطق في عينيه ويرجو أن تنفج شفاه عن أى

شيء .. رأى دفاع ، فانه لا يعتقد أن في الدنيا كلها أكبر من وضع

القول واختراع الشعر .

— ماذا وراء سكوتك يا أبا معزز .

التي الأصمعي بهذا السؤال فرفع خلف ظهره عينيه وكانت
في الأرض ، ولما فتح فمه انساب صوته خفيضا واهنا :
— وما رأيك أنت ؟ لا تجب فاني أريدك أن تعجل بشيء
فتقدم عليه ، ولن أتكلم أنا فقد يدعوني الحفاظ على محبتك لي الى
ما لا أحب أن يقع ، وانما الأمر بعد الى ضمائرنا تفضي بنا الى
محمدة أو الى مذمة ؛ فان شئت الآن فعد الى المسجد فاقرا
عليهم ما أمليته عليك ، الا اذا أردت أن تنظر في مفضليات
الكوفي .

قال الأصمعي وقد فتر :

— أبلغك من أمرها شيء ؟

فأجاب خلف وهو يمد يده اليه بكراس كبير :

— هذه هي !

الحلقة تضيق

قال خادمه :

— مولاي ، بالبواب من يقول انه العتبي يريدك .
وكان خلف في هذه اللحظة متكئا على وسادته وقد وضع
عمامته جانبا ، فلما سمع قول مولاه نظر خلصة الى الأصمعي ثم
قال :

— لماذا لا يدخل ؟

قال :

— لست أدري ولكن معه نفرا فيهم رجل يقول الحق بهم في
المربد .

وبدا على خلف أنه لم يتحمس لهذه الدعوة ، ومن ثم قال :

— دعهم يمرون وسأوافيهم بعد قليل .

وتطلع اليه عبد الملك .. كان يرتجف ، وأدرك هو من بعيد
معنى أن يختلس اليه النظر ثم يضطرب .. أليس لهذه الدعوة
صلة بتشجيع هذا نفر جميعا ؟ انهم يضدرون عن آراء ربما عاقب
عليها عيسى بن سليمان أو غيره من أمراء العباسيين ، وهذه الآراء

صفا هي ما تعقيب الأصمعي دائما ، غير أنها لا تدفع به الى
الرواية .

والحق أن الأصمعي كان في هذه الفترة في صراع عنيف
بالنسبة لأبي محرز .. فهو يحبه ولا يريد أن يتهم أعماله ، وهو
يحبه ولا يريد أن يتعرض لمعتقداته ، مع أنه يهاجم العلوية وشاعرهم
السيد الحميري الذي يهدر بالطوال من غير ملل .. بل ربما نظر
اليهم كلهم نظره الى واحد من الزنادقة ، ولكنه مع هذا كان
يقول باختلاص « من حق من يقبسك علما أن ترويه عنه » فهل
يعني أبا محرز ؟

إن المذهب الديني وقرع الحجة فيه بالحجة لم يكونا قط
سبيلا الى شد خلف الى أهل السنة . انه كان ينصت الى حججه
في بعض الأحيان فيسلم باستحالة اللقاء الا في الشعر وروايته .
وخرج وخرج هو معه ، ولكنه فصل عنه بعض الوقت على
أن يعود اليه بعد ساعة ، فلما أقبل عليه وهو مع العتيبي وسائر
النفر أسرع يعدل عن قصيدة لامية — كلامية الشنفرى — يذكر
فيها ولد علي بن أبي طالب وما جرى عليهم من الظلم ، ودخل
في لامية الشنفرى بأبيات لم يسمعها أحد . ولم يطل عجب الصحاب
فقد صادف مرور أبي هشام الباهلي وخلاّد بن يزيد وقطعا عليهم
الرواية بصياحهما على الأصمعي ، فلم يكد يتوجه اليهما حتى صاح
الرفاق لخلف :

— قد عرفنا غرضك فيما فعلت .

ثم راحوا يطرونه ويقرظونه ، فصاح :

— ان كان يقرظكم لى لاني عنت الشعر فما علمته والله ،
ولكنه للشفرى يرى تأبط شرا ، ووالله لو سمع الأصمعي بيتا من
الشعر الذي كنت أتشدكموه ما أمسى أو يقوم خطيبا على منبر
البصرة فيتلف نفسه ، فادعاء شعر لو أردت قول مثله ما تعذر
على أهون عندي من أن يتصل بالسلطان فالحق باللطيف الخبير
وتطلع الى عبد الملك وكان اذ ذاك منهمكا في الاستماع الى
شيء يرويه خلاد .. لقد كان عن شيء يسىء اليه أو الى أبيه
بصفة خاصة ! ان عطاء الملط لم يكذب يعرف أنه يقرأ في مجلسه
لنافع ويهش له مشيخة القراء حتى تار واستبج أصحابه هكذا
الصباح قائلا :

— مروا بنا الى ظاهر البصرة .

فخرجوا حتى وادى العقيق وهو في أقصى الشمال من بشر
الخير فاذا أبوه الشيخ المسن معه غزرات يرعاها وفوقه جثة
الصوف البالية ، فناداه قائلا :

— يا قرينب !

فقال :

— لبيك !

قال عطاء متخابثا :

— ما فعل الأصمعي ؟

أجاب الأب :

— هو عندكم بالبصرة !

فقال عطاء :

— هذا أبو الأصمعي لا يقول غدا انه من بنى هاشم .
وتطلع الى حيث يجلس أبو معرز فوجد ثمة عيونا تحدّق
فيه ، فأخذ يستعيد حكاية خلاّد وهو يحس كأنما حلقة جديدة
تضيق عليه .. الجميع يتربصون ، وهم يتحينون الفرص لايدائه ..
لماذا ؟ لأنه أكثرهم تقويما للسيرة والطعمة ؟ انهم يرمونه بالهوى
ويسمونه البخيل ، ثم يزعمون أن ما يكتبه مدخول عليه فيه ،
فكانهم يتشدّدون أن يكف وقد غاب عنهم أن المحسن مستثيب
وان غرت السنون على احسانه لا يظهر .

* * *

وفي المسجد حدث الصدام فجأة .. لقد سمح أبو عبيدة صوت
الأصمعي يقول « بينما أبى يساير الأمير سلم بن قتيبة على
فرس له » فضحك عاليا وصاح :
— سبحان الله والحمد لله والله أكبر
وهنا يتجمع المسجديون حول الرجلين ، ويمضي أبو عبيدة
قائلا :

— المتشبع بما لم يؤت كلابس ثوبى زور ، والله ما ملك
أبو الأصمعي قط دابة الا فى ثوبه .. اسألوا عطاء .
ثم لا يمضى كثير حتى يصخب المسجد بحديث ينتحله ليوجع
الأصمعي ، يقول فيه ان الأشعث بن قيس الكندى قال للنبي :
أتسكافأ دماؤنا يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : نعم ، ولو قتلت
رجلا من باهلة لقتلتك !
وهنا صرخ الأصمعي :

- أتكذب على رسول الله ؟
- ومن أين لك أنى كذبت ؟
- تفاهة ما يرويه أمثالك عن ابن أبى العوجاء وجمعه .
- والله ما أروى الا الصحيح من الأسانيد .
- وهذه يمين باطلة أيضا يا بن الحائك .
- أتسبنى ؟
- بل أسب الالحاد فيك ووالله اما تسكت أو أوقعك فى بلاء
- لا تخلص منه أبدا .

- قال واحد من المسجدين :
- طال الأمر بين الرجلين .
- فقال آخر :
- وأى أمر لا يطول فى البصرة ؟

مؤامرة

لا شيء في الدنيا يسمى اليه كما يسمى التقول !
 وكل أيامه التي أصبح فيها معلما كانت سلسلة من التقولات ،
 ولكنه كان يردّها عنه بلباقته حيناً وبما أثر عنه من صلاح حيناً
 آخر ، ولم يكن يطمع في أكثر من أن يثبت بنو عشيرته لا ابتلاء
 الدهر .

ذلك كان احسانه .
 وكان يحسن أيضاً وبوجه خاص أنه لا شيء في هذه الدنيا
 أغضب من الاتجار الذي يوشك أن يقع ، فيقرر مصيره ومصير
 غيره من العرب .. فليس خليفة بغداد بالذي يقطع في أمر يعينهم ،
 ما كان لا يعنى المهدي وليّ عهده !
 ووالى البصرة وأولاده يطمعهم حرص الخليفة في أن يبنوا
 لأنفسهم القصور ، ويجوزوا من مال المسلمين ما ليس من حقهم ،
 والحق ضائع بين كل أولئك .

— سيدى .. شرط الأمير في رجة الدار
 وانتفض انتفاضة قوية وقال :
 — شرط الأمير عندي أنا ؟

أجاب الخادم :

— أجل ، ومعهم جريح !

وسمع أصواتا في تلك اللحظة تبين فيها قول قائل

— أجل هو أبو سعيد .. لقد كانوا يصرخون وهم يضرعون

« خذها من الأصمعي »

وأسرع فرأى الجريح هو الذى يتكلم .. وكان منكر الهيئة ،

عظيم الأنف ، أهرت الشدقين ، طويل القامة ، وما وقع بصره على

عبد الملك حتى صاح :

— ها هو ذا .. قد وكل بى جماعة من الغوغاء وأنا خارج

من دار أبى معاذ العقيلي .

ووثبت صورة بشار أمام عيني الأصمعي ، غير أنه لم يهتز ..

فقد أحس أن ثمة أمرا وراء هذه التهمة العجيبة ، ولقد أقبل على

الجند يقول برقة :

— لا بد أن يأخذ العدل مجراه .. هذا ما قضى به الله ورسوله ،

ولكن هل ثمة ما تعجلون به قبل أن أواجه متهمي على انفراد

وأعرف على الأقل اسمه ؟

قال الجريح :

— أنتكر أبا الشيمق يا باهلى ؟ والله لا أغفرها أبدا

قال الأصمعي بهدوء :

— أيرضيك أن ينزل قصاص رجل يقسم أنه لا يحمل لك

ضغنا ؟ وماذا اذا اعتدى عليك ثانية ممن يريد النيل منك

وأنا بعيد ؟

وتتمثل الشرط .. ثلاثة من الرماة البخارية الذين أتى بهم
عيد الله بن زياد الأموي الى البصرة منذ قرن تقريبا .. غوغاء
وكلت اليهم شرطة البلد ! وكان من الصعب التفاهم معهم ، غير
أن الأصمعي كان في وسعه دائما أن يستهوى الأفدة بحديثه
فقال :

— أنا أسلم نفسي للشرط يا رجل ، ولكنني أعلم أنه يثقل
عليهم أخذ البريء بالمذنب .
انه يمتلق ..

ولكنها ستة الحياة في بلد أصبح فيه كل شيء للعبيد ،
واستطرد وهو يرى على الوجوه الكالحة معالم رضى :

— يا أبا الشمقمق .. بل يا أبا محمد ، فقد عرفتك من شعرك
وإن لم أرك قط ، قلت ان مهاجتيك كانوا يصيحون وهم يضربونك
« خذها من الأصمعي » .
— أجل والله .

— وهل تظن أنني أفعل لو أردت ؟ أتراني ألتستر وراء غيري
ثم آمرهم بذكر اسمي ؟

ولفظ الجند .. انهم مقتنعون بمنطقه ، وما عليه الا أن يمضي :
— أنت شاعر ، أليس كذلك ؟

— بلى . ويعرفني أبو دهبان الغلابي في نيسابور .

— بل نعرفك نحن ، ونعرف أن لك من جماعتك من الشعراء
من ينفس عليك لأن غايتكم السؤال .

— تريد أن تقول ...

— أريد أن أقول أن واحداً كروان بن أبي حفصة قد يحزبه
أمرك ، وضع إلى جانب هذا أبا معاذ وتلميذه سلما وأبا العتاهية
ووالبة ويوسف بن الحجاج والمزق الحضرمي وغيرهم .. وأما أنا
فصناعتي غير هذه الصناعة ، فماذا يجعلني أقس عليك ؟
ومرة أخرى لعط الشرط ، وأما أبو الشمقم فقد تهاوى
إلى الأرض يدهن رأسه بين يديه وهو يقول :
— ويلاه .. ويلاه !

بينما مضى عبد الملك مستطردا :

— والله اني لأعرف فيك طاقة بدذتها باستجداء أمثال
أبي معاذ ، وكأنني بك صائر إلى أن تكون واحداً من الكاغانيين
أو العوائين أو المخطريين تعيش على الزكوري ليل نهار .
كان يخاطبه على النحو الذي يفهمه ويعرض في الوقت نفسه
هذه الطائفة من المكدين الذين ظهروا في البلد فملأوه متحايلين
على خداع الناس لينالوا منهم ما يسميه الحمراء بالزكوري وهو
خير الصدقة يجرى على السائل أو السجين ! على أن الجند رأوا
في إحصائه أنواع السائلين تذكيرا لهم بواجبهم فتراشقوا النظرات
فيما بينهم ، ثم قال أحدهم لأبي الشمقم :

— عجل يا رجل بما ترى فقد رأينا أنه يرى ..

قال مغلوبا على أمره :

— انصرفوا أتم لو شئتم وأما أنا فساألزم أبا معيد حتى يفرغ

من حديث الشعر والشعراء !

أبصره العجزة ، فدخل الأصمعي بالشاعر إلى غرفة عائشة
مدها شيئا وضع عليه صحن الطهاج وقطع عظم ، ولكن شيئا
لم يلب عن سمعه شئ من لحم من مكان قريب ، فقال أبو الشقيقتين
— والله ما في الأرض أكرم منك .

قال الأصمعي وهو يضحك :

— بل أنا ضحيل كما يقال إلا أن يكون صوت للقلبي قد فتح

البواب أنطى إلى الكرم .

قال الشاعر متخابئا وكأنه لم يسمع شيئا :

— ولكن الطهاج فارسي يا أبا سعيد

فقال الأصمعي :

— بل هو عندنا أيضا ونسبه الضعيف

وكان الخادم قد دخل باللحم فلم يلبث إلا ريشا مضجعا

الأصمعي مضغتين اثنتين ، ثم أصبح كصحن الطهاج في خير كان

فلم يجد بد من أن يحل محلها التمر مع سنن سلاء وخشكنا

سحسور بالجوز والسكر ، وهنا أبرع الأصمعي يقول :

— يا أبا محمد البخسكنا نعرفه أيضا ولكن الجراء تسميه

الخشكناج .. أليس كذلك ؟

قال أبو الشقيقتين :

— والله إن أجيب ولن آكل شيئا حتى أقول لك الجدر

يا أبا سعيد فالقوم يأترون بك ، وهم يهولونك بأمره سوف

يملك بها السلطان !

المهدي

لم يحدد تحديد أي الشقيق ، فقد سبق الأصمعي إلى المسجن
وأخبرهم بقول الله « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله
ويعملون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم
وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .

وقد انتشر هذا اليبأ فكان له صدى المسيق ، غير أنه لم تدعى
ساعات فلائيل حتى أتى الناس خبر آخر تشاغلوا به . فقد ورد
الناس في كل الأنحاء أن أبا جعفر المنصور قضى وهو بشر ميسرة
مناها للصبح ، وكان العام ثمانى وخمسين ومائة والشهر ذا الحجة
والمناء تسع لا ينقطع منها ماء .

وسمع الأصمعي وهو في سجنه أن الربيع بن يونس مولى
الخليفة الراحل وصديقه بايع للجد المهدي فتبعه الناس . ولكنه
لم يحاول أن يشغل نفسه بهذا الأمر لا سيما بعد أن كتب للأمير
عيسى بن سليمان يهود به ويعتذر ، فلم يجبه . ومع بدايات العام
المعديد نسي إليه أن المهدي راجع يتعقب الأمويين وأنصارهم ،
وقد بدأ نال زياد فأخرجهم من قرين بعد أن كان معاوية قد
استلحقهم .

الا أنه لم ينقطع عن الكتابة الى الأمير ، ورأى في آخر الأمر أن يوسط أبا محرز والخليل بن أحمد والأمير سعيد الباهلي ، ثم طلب شفاعه أستاذه وصديقه سفيان بن عيينة المحدث الذي تردد عليه في مكة والذي ارتفع اسمه بين أهل السواد وأجبه العباسيون .

وما كادت كتاباته تصل الى هؤلاء حتى كان أمره قد انتهى الى المهدي ، فأرسل يستدعيه فسيق الى بغداد مخفورا ، ومثل بين يدي الخليفة وهو متوجس مضطرب لا يعرف كيف يؤدي مراسم الخضوع . ويبدو أن المهدي أحس بضائقته ، لأنه قال له :
— حسبك ، حسبك يا رجل فأنا اليوم للمظالم ١

وبوغت الأصمعي ، اذ لم يكن يتصور أن هذا يحدث ، ولكنه حين رأى سفيان بلحيته العظيمة وبجانبه أبو عبيد الله شريك القاضي اطمأن الى أن العدل مقضى ولو كره شائئوه ، ومن ثم راحت عيناه تتقلبان ليشهد وجوها أخرى .. هذا هو الوزير يعقوب ابن داود بن ظهمان .. شعوبى لثيم ، والى جانبه يحيى بن خالد البرمكى ! هو لم يره قط ولكن ما سمعه عن أوصافه ونعوته لا يرسم أمامه إلا تلك الصورة ، ولكن أيطمنن حقا والخليفة بين هذين ؟ والى وراء أبان بن صدقة .. واحد من الذين قد يؤجون النصيح ، وعن شمال المقعد الذي يتربع عليه الخليفة كان هناك الفضل بن الربيع .. عربى آخر ، ولكنه صغير أمام هؤلاء الذين يملكون حق الكلام ، ثم غلامان رجح أن يكونا الهادى والرشيد ..

والذى المهدي الذى يؤثرهما ويعدهما للأمر العظيم من بعده .
الخليفة شاب يتدفق حيوية وتلمع عيناه ذكاء ، ولكن عيني
يعقوب تتفجران شرا ودهاء .

— قلت أنا اليوم للمظالم ، فما بلغنى عنك ؟
وتنه الأصمعى .. أدرك أنه كان يسبح وضل في التيار
العظيم ، فأحنى رأسه وهو يقول :

— هو ما ترى يا أمير المؤمنين .. وجه كاسف ولحية رثة
وثياب بالية ، وما كنت بالذى أجرى هذا الجزاء على تهمة أنا
برىء منها كل البراءة .

قال الخليفة :

— وماذا عن بنى مروان فيما تقول ؟

أجاب الأصمعى :

— قوم راحوا فما لنا بهم سبب ، الا اذا أردتني يا أمير المؤمنين
على أن أتكلم فيهم بما تريد فترى فيهم ضؤولة ترفع من قدرك ..
يا أمير المؤمنين ان بنى هاشم لا كبر من أن ينزلوا هذا المنزل ،
وليس يناقصهم في رأيهم ولا غامطهم من حقهم أن يقول عني
المتقولون بما ينال منهم .

وعند ذلك سكت ولم ينبس أحد ، ولكنه لمح في العيون
اتقادا ، وشاهد سفيان بن عيينة يمسح على لحيته البيضاء برفق ،
فلم يملك الا أن يمضى قائلا :

— لو رأى أمير المؤمنين أن يأخذني فلن يخذ يدا تمنعني عنه
الا يدم ، ولكن البصر بالأرب أولى من الاستسلام للغضب ..

فلبسنا إلى ما يجهك أرمافنا بأحوج منا إلى ما يمسك ضياءه
يكون النفع إذ تظفر الغاية ، وكذلك ينظر المرء أين يضع نفسه ،
والعطت جماعة وتهدت جماعة أخرى فأشار المهدي أن مكلف
ثم قال :

— خطبتنا فصاحتك يا رجل ، ولكنك تدور حيث يحسن
الدوران ، ولم تقل قولتك في آل مروان .
قال الأصمعي :

— أنا لم أذكرهم قط يشهد الله وإنما حمل على نفر في قلوبهم
مرض فماذا يرى أمير المؤمنين ؟
وتبسم المهدي ثم قال :

— تسأل عن رأيي أنا ؟ اذهب يا أبا سعيد إلى بلدك وانظر
في أمرك على ألا تضع نفسك موضع الشبهة .. فإن العاقل يضع
أن ينظر فيما يؤذيه فيتركه ، وفيما يجدي عليه فيعمله ، وإن
ابن عيينة ليقسم أنك برئ وأحسن أنا من كلامك هذا
الافيا يخرج عنه .. أتفهمني ؟
قال وقد بدأ جسمه يرتجف :

— إن كان يرضى أمير المؤمنين أن ألزم بيتي لا أبرحه فليمت
وإن ..

فقاطعه الخليفة مختدا وهدر :
— بل افعل ما تريد ولكن لاتنس أن لنا عيوننا ترى وأذاننا
تسمع !



وتتمثل الأصمى خارجا ..

جندى يسلمه الى جندى ، وهو يضرب في ذهليق صحري
آونة وفي رعدة ذات طاقات معقودة آونة ، ثم في بسايق تسلمه
الى باب سامق رأى الفارس يدلف منه منتصبا ولا يميل ، ومن حول
القصر - قصر الذهب - بيوت ليست كبيوت البصرة .. جعلت
في سطوحها قباب كانت ترفعها عند ذفاق ، وثمة قبة كبيرة خضراء
هي التي كانت تحقف الايوان الذي كان فيه منذ قليل ، وعلى
رأس القبة فارس راجح .. انهم يقولون ان هذه تاج بغداد !
او مدينة السلام ...

وهذا قصر الخلد على شاطئ دجلة الغربى .. النهر هنا نظيف
يجرى رخاء ، والناس يترحلون تجاهه جباغات ، ومن وراء قصور
بني ، وسمع أنها ليحيى البرمكى ولأولاده وسراريه .
ثم اختلطت الصور وازدحمت .. القلايس والأقية حلت
محل العمام ، والغلمان يضعون القراطين ، والعقال ضائع !
والشجر يمانق الشجر ، والنسيم رقيق .
— هذه هي مدينة السلام ؟

— أجل يا أبا سعيد !

والثفت قرأى سفيان بن عيينة . يعتله الفضل بن الربيع ،
وكان سفيان لا يزال يمسح على لحيته البيضاء ، ولم ينطق بحرف
واحد في حين قال الفضل بصوت خفيض كالهس :
— هي لهم اليوم ، ولكننا سنمهلهم الى الغد !

العودة

دخل الأصمعي البصرة على الصباح وعرفه الناس، جبهة عريضة وعينان تشعان، بريقا ولحية سوداء تحتضن فما مليئا، والجبهة قائمة والعمامة بيضاء مضطربة، وفي القدمين نعلان وخيضان.

وكان منفرج الشفتين يتقلب بروح قرير، والقوم يحيونه ويهتفون به في مودة، إلا إذا كانوا من الحمراء فيعبرون أمامه بغير مبالاة يتيهون بقلانسهم تيهًا وكان هو يضحك لذلك ويعجب أن يتحول العبيد سادة، وفي سوق القصارين قامت إليه عجوز كانت مقتعدة غتبه دارها وقالت:

— هأتذا أبا سعيد!

وحياها، فأشارت إلى رجل قبالتها يضرب في الطريق خارجا من السوق وقالت:

— آيت ذلك الشيخ فإن عنده حديثا حسنا فاكتبه إن شئت.

— الآن .. وأنا عائد من سفر طويل؟

— انما أخلصت النصيحة وأردت الارشاد لك.

— أحسن الله ارشادك.

وأسرع وراء الشيخ، وكان في زى البدو، يتزيا زيا حسنا

وان يكن نظيفا ، وكان يمشى في تناقل فتسكن الأصمعي من اللحاق
به قبل أن يخفى فسلم عليه فرد عليه السلام ثم قال :

— من أنت ؟

— أنا عبد الملك بن قريب الأصمعي .

— ذو يتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم ؟

— نعم ، وقد بلغني أن عندك حديثا حسنا معجبا رائعا .

— هو ذاك .

— أتنبئني ؟

— نعم ، فأنا حذيفة بن سَور العجلاني وُلِدَ لأبى سبع
بنات متواليات ثم حملت أمي فقلق قلعا كاد يفلق حبة قلبه من خوف
بنت ثامنة ، فقال له شيخ من الحى « ألا استغثت بمن خلقهن أن
يكفيك مئوتتهن » قال « لا جرم ، لا أدعوه الا فى أحب البقاع
اليه ، فانه كريم لا يضيع قصد قاصديه ولا يخيب آمال آمليه » .
فأتى البيت الحرام وقال :

يا رب حسبى من بنات حسبى

شَيَّبَن رَأْسِي وَأَكْلَن كَسْبِي

ان زدتنى أخرى خلعت قلبى

وزدتنى هما يذق صلبى

فاذا بهاتف يقول :

لا تقنطن غشيت يا بن سَور

بذكر من خيرة الذكور

ليس بشمود ولا متزور

محمد من فعله مشكور

موجه في قوله مذكور

فرجع أبى واثقا بالله جل جلاله ، فوضعتى أُمى ونشأت أحسن
ما نشأ غلام عفة وكرما ، وبلغت مبلغ الرجال ، وقمت بأمر اخواتى
وزوجتهن — وكن عوانس — ثم قضى الله أن سترتهن والدتى ،
ثم من الله على أن أعطاني فأوسع وأكثر وله الحمد ، وولدت رجلا
كثيرا ونساء ، وإن بين يدي القوم من ظهري ثمانين رجلا
وامرأة (١) .

— أهذا كل عليك ؟

— هو حسبي .

— وهل جامعك عليه ذوو الألباب ؟

— إن قصدت هؤلاء الذين يعدون في الجوامع فلا ، وإن
كان غيرهم فقد عرفنى كثير ، وما وجدت أسوأ منك طالبا ،
تستوقفنى ثم لا تعجبك بضاعتى .

وتولى الأعرابي نافرا غاضبا ، فاتخذ الأصمى سمته الى
المسجد وقد انقبض . غير أن الدروب كانت مكتظة والأسواق
عامرة ، فثمة قادمون وذاهبون ، وحمير تحمل الصناديق ، والمراكب
تنزلق في روافد النهر الكبير .. المنظر بديع ، ولكنه لم ينل من
نفس الأصمى ! وقد دخل المسجد مبٹئا فما راعه الا ازحام
لم يكن له به عهد ، وهنا وهناك رأى أبا عبيدة بكل ما في وجهه

(١) ذو : الذى (يمانية) ، لاجرم : لا بد أو لا محالة ، المثلود

كالمنزور أى الذى يعطى بعد الحاج ، موجه أى ذو جاه وقدر .

من مكر وهفاء ، وعن يمينه تماما ابن الأعرابي حوله عشرات
من معارفه .. فيهم يونس بن حبيب مرجع أئمة المسجد في
مشكلات النحو ، وفيهم الخليل بن أحمد يربت على كتف ابن
الأعرابي ويقول له قولاً يضحكه ، وشعبة بن الحجاج أحسن من
ينظر في اللغة ، وأبو معمر .. ولكنه في حلقة أحسن من اشارات
أصحابها أنهم يتحدثون عن ابن الأعرابي ، ماذا حدث ؟
وكان قطرب أول من تنبه الى وجود الأصمعي فأسرع نحوه
يحتضنه وراح ينادى في المسجد :

— ها هو ذا جاء .. هذا أبو سعيد !

وأسرع أبو معمر يأخذه بين ذراعيه ، وتبعه غيره حتى
أبو عبيدة ، بل لقد أنشأ هذا يقول :

— أوحشنا والله منك يا أبا سعيد

وهمس الخليل وهو يقبله :

— ماذا فعل الله بك ؟

— خاب الوشاة بأذن الله

— والناس في بغداد .

— كأنهم ليسوا منا ، ولكنهم يشتغلون بأعظم مما نستغل به

— وما عساه هو يا أبا سعيد ؟

— على الأقل لا يسمعون الى ترهات الأعراب ، اتنى وأنا

اليكم قابلت واحدا فما راعنى الا حديثه عن ثمانين من ظهره ،

وهناك يقيمون العمائر ويوطدون للغد ، والله لئن قعدنا عن

مطلولتهم غلبنا الى الأبد .

وحمل السامعون كلامه محامل شتى .. فالعرب أدركوا أنه
ينفس على الشعوية ، والشعوية ظنوا أنه يدعوهم الى أن
يتعصوا للدهم ، وفريق ضائع يرى أن حسبه أن يعيش .. بينا
أخذ ابن الأعرابي يتقدم نحوه في تردد كأنما يخشى شيئاً ،
فما وقعت عيننا خلفه عليه حتى صاح :

— ألا هنأته يا أبا سعيد !

ولم يفهم الأصمعي شيئاً لأول وهلة ، فعاد خلف يقول :

— لقد بنى بواحدة منكم .

— منا نحن .. من باهلة ؟

— من جوارى باهلة .

— ومن هي ؟

— انها لباب جارية الأمير سعيد !

مع التاريخ

ومضت سنوات حدثت فيها أشياء كثيرة .. أهمها بالنسبة للأصمعي اتهامه بالدس لبشار بن برد عند المهدي وعند وزيره يعقوب ، فقد تناقل أهل البصرة أنه أشاع شعرا على لسان أبي معاذ يقول فيه :

بنى أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود
وكانت النتيجة أن المهدي أخذه أخذ الملحد ، ووكل به عبد الجبار صاحب الزنادقة فحمله الى البطائح وضربه حتى قضى عليه . ويروون أن بعض الباهليين شهدوا مصرعه بفرح ، وأن واحدا منهم قال لما طرح في السفينة :

— ليت عين أبي الشمقمق رأتني حين يقول « ان بشار بن برد تيس اعمى في سفينة » .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يحزن لذهاب بشار ، فقد حرص الأصمعي على أن يعلن حياده المطلق ازاء مصرعه . وراح ينكر بشدة أن يكون له يد فيما حدث ، بل قرر أنه يحمل دائما على

الوشاية وأعلن أسفه لموت شاعر كبير ، ولكن أبا هشام الباهلي
كان على تقيضه وأنشد أشعارا في هجائه ردها العوام .

ومن الأحداث الأخرى استخلاف الحسن بن هانيء بشارا في
مجنونه وتكنيتي بأبي نواس .. فقد كبر الفتى الجميل وصاحب
محمد بن منذر ومحمد بن بشير والرقاشي وسلمة الخاسر وأبان
اللاحقي والحسين الطبيع مولى باهلة ، واتصل بشعراء الكوفة
اللاهين ومنهم مطيع بن اياس وأبو الغتاهية وصریح الغوائی ،
وتفرقوا جميعا في النفقة على الجوارى والعلماء وعلى بوابي
الخرم وتسموا بعصبة المجان . فأثاروها فتنة ضج لها الناس ،
وقام المعتزلة في البلد يقاومونهم ويثيرون عليهم السلطان ! ولكن
لحسن طالع هؤلاء مات المهدي وتولى الهادي عام تسع وستين
ومائة ، ولما كان محبا للفنون وبخاصة الشعر فقد وجد كثير من
هؤلاء مطمئنا فيه حتى لقد ظفر سلم الخاسر منه ثلاثمائة ألف
درهم نظير قصيدة واحدة .

وبقدر ما فرح الأصمعي بسياسة الخليفة الجديدة القائمة على
التنكيل بالعلويين ، حزن للأبهة التي أحاط بها نفسه ؛ فقد شهد
بعيني رأسه كيف اذا ركب مشيت الرجال بين يديه بالسيف
المشهرة والقسي الموتورة ، والى جانب ذلك فتح قصره لابراهيم
الموصلی المغنی الشاعر الأديب وأعطاه في ثلاثة آيات له أطربته
أحسن ألف دينار .

وقامت الثورات ، وكان من الممكن أن يفرح الأصمعي بها ،
لولا أنه خشي ازدياد نفوذ الحمراء ، ولولا أن هذه كانت موجهة

ضد وزيره العربي الربيع بن يونس . ولما استتب الأمر قرر قراره ،
ثم دهش حين ترمى اليه وهو في حلقة بالمسجد أن أمير المؤمنين
قضى فجأة وخلفه أخوه هارون الرشيد ، وقيل اذ ذلك ان ليحيى
ابن خالد البرمكى دورا فيما حدث وقيل بل لعبت هذا الدور
الخيزان .

ثم ما أسرع ما حمل البريد الى البصرة أمر الخليفة الجديد ،
فقد أذيع أن الرشيد قال ليحيى « احكم بما ترى واستعمل من
شئت واعزل من رأيت وافرض من رأيت وأسقط من رأيت ، فاني
غير ناظر معك في شيء » واذ ذلك قال الأصمعي :

— واضيعته !

وكان أبوه قريب قد مات ، ولحقت به زوجته هو تاركة له
خمسة أولاد مات منهم ولدان في سنة واحدة ، وعاشت ثلاث بنات
اشتري لهن جارية تقوم على خدمتهن . وأحس كأنما الدنيا تدبر
عنه ، بل لقد قوى احساسه بذلك حين تكالب عليه الحمراء في
المسجد وظهر عليه أبو عبيدة ، وهو يذكر ذلك اليوم الذي كان
يستريح فيه بالاستماع الى أستاذه شعبة بن الحجاج . وكان
أبو عبيدة اذ ذاك قريبا منه على غير عادة ، وراح صوت الأستاذ
ينساب قارئاً قصيدة فروة بن مسكين .

فما جبنوا أننا نشد عليهم . ولكن رأوا نارا تحس وتسفع
ولم يرتج الأصمعي الى « تحس » وبدا له أن شعبة لا بد
أخطأ ، فانبرى يقول قبل أن يستطرد :

— انما هي تحس بالشين .

ولم يستأ الشيخ ؛ فقد كان الأصمعي لا يزال يعامله بأدب
جم ، بل كان يستملح ملحوظاته ، ولكنه في هذه المرة متأكد
مما يروى فتطلع إليه قائلاً بهدوء :

— هكذا أخذناها عن شيوخنا .

ولم يستسلم الأصمعي ، وكانت لديه مبررات قوية لاعتراضه ،
فقال برقة وأبو عبيدة يرقب بعيني صقر :

— اذا جاءت بالسين كما تقول أفادت معنى القتل ، واذا

جاءت بالشين أفادت معنى الوقود وهو الأصح لمعنى البيت .

ثم أفاض في هذه المسألة وأسهب ، وأخذ يسوق من الحجج
ما أقنع الجميع ، فظهر على شعبة الاستسلام وأطرق قليلاً ثم رفع
رأسه وقال :

— لو فرغت للزمتك !

وتنفس الأصمعي في رضى فأنبرى أبو عبيدة يقول :

— وممن أخذتها يا أبا سعيد ؟

أجاب الأصمعي :

— من أبى رحمه الله .

فتضاحك أبو عبيدة وصاح قائلاً في سخرية لاذعة :

— أحدثك بها أم ساقها لسلم بن قتيبة وهو يسايره على

فرسه ؟

ونفض واقفاً قبل أن يسمع الى جواب ، ويبدو أن شيئاً

شغله ... ذلك الشاب الذي يقفوا اثره ، وسمع الأصمعي من بجانبه

يقول :

— انه يطاول أن يوقعه في حياته .

— من هو ؟

— أبو نواس !

وأيد مسجديّ من الفضولين هذه القالة ، وقرر أنه مدرك
مدى الخطر الذي يتعرض له شاب يوقعه مسخت اللعين . حقا
يشاع عن الشاب ما يشاع من انحراف ، غير أن أصدقاءه يرعمون
أنه لا يكلف الا يجارية مجهولة ، وهي شابة غصة لم تتجاوز
بعد السابعة عشرة ولكنها شاعرة ومغنية لا يشق لها غبار .
وتعمق الأصمعي ذلك كله قبل أن يستسلم لفكرة ومضت
في خاطره .. ماذا لو حارب خصمه بالسلاح الذي يلعب به ؟
وأسرع وراء الاثنين ، ثم غاب عن العيون !

مع الحسن

دق الأصمعي على باب سليمان بن أبي سهل في وجل . فهو
 أن شوهه في هذه الساعة على مقربة من بيت هذا الزنديق أخذ
 قصبة لا قبل له بردها ، إلا أنه كان مضطرا إلى ذلك . إذ أعياه
 كل الخيل في العثور على أبي نواس ، حتى إذا عرف أنه يقصد
 سفيان — وهو من عصبة المجان — قرر أنه يتوجه إليه ، ولكن
 دهشة سليمان برؤيته كانت بالغة ثم لما عرف أن الأصمعي يسأل
 عن صديقه الحسن قال :

— لقد جعل شربه عندي أياما ثم انصرف على أن يعوم .

قال الأصمعي :

— أفتدلتني على مكانه هذه الساعة فأقصده ؟

فأجاب سليمان :

— ومن يدلني أنا ؟ انه يكتم كل شيء ، غير أنني أعرف أنه

وراء جارية رآها في المبرد ففتته وما عاد يصفو له عيش بسببها .

قال الأصمعي :

— سمها يا رجل .

فهر سليمان رأسه وقال :

لقد أبى أن يرفنى خيرها لأعاوله عليها وأحبال له فيها ،
في فجر هذا اليوم تنبث فإذا هو قاعد متيقظ ، ثم اذا هو
يستمعني آياتا في وصفها لم أحفظ منها الا هذا البيت :

كون القصيرة والطويلة فوقها دون السمنية دونها المهزول

ولم يرق الأصمعي ما سمع ، فمط شفتيه وقال بازدرأ :

— ان كان ما يقول شعرا قيا ضيعة الشعر في هذا البلد .

فقال سليمان وقد أدرك أنه بدأ يغيظ الأصمعي :

— بل هو الشعر والله ، وأما أن تقفوا عند حوامل والدخول

والذكروا الشيخ والقيصوم فهذا شيء لم يعد لنا به عهد .

وقد فطن الأصمعي الى ما يريد ذلك الماجن أن يجرم اليه ،

فقال وهو يخفي تيرمه :

— لست بسبيل مذاكرتك أيها الخيث ولكني وراء الحسن .

ثم جمع أطراف جبهته واندفع الى الباب ، غير أنه ما كان

يذهب منه حتى فوجيء بأبان بن عبد الحميد اللاحقي ، ماجن آخر

من عصبة المجان ، وكان يسكن لصق أبي عبيدة فقال له :

— هل رأيت الحسن ؟

— انه الآن في حمى عبد الوهاب الثقفي ، ولو رآه لذكه

ذكا

— وكيف ؟

— لقد غلق بجارتيه جنان ، وهو الآن سكران ينشد الشعر

مقبلا ذا الجدار وذا الجدار ، وتناقل القوم خبره وعن قريب

يحقق به المكر السيء .

— يا صبيحاً !

ومضى لا يلبى على شيء . فقد اهتدى الى صاحبه ، ولكن
كيف السبيل الى اقناعه وهو المستهام الذي لا يفكر الا في جارية
الثقفي ، أفيكون ما قصه أبان صحيحاً ، أم هي وشاة من وشايات
هذا الشاعر الخبيث ؟ ان جنان الجميلة الفاتنة لا تليق بأحد
غير أن يكون أميراً ، وقد دربها سيدها على الشعر والغناء وأدبها
ومحال أن يرضيها الحسن وهو هو من لاكت سمعته الأفسواه ،
وتبذل ، ووقع في كل محذور !

ويبدو أن الأمر كان دون ما صور صديقه ، لأنه لم يكند
يقرب من رصافة البصرة حيث دار الثقفي حتى لمحّه يقبل ويدبر ،
وقد دنت اليه ثلاث جوار رحن يعشن به .

— هل أنت الحسن بن هاني ؟

— أنا أبو نواس المتعنتي !

— العاشق الصب ؟

— أي والله !

— لمن ؟

— لمن لا تعلم الا الساعة ، ولكني رأيتها تقبل من باب

الرصافة وسط تماثيل حسان يحققنها وهي تختال تحت قضيب
بان .

— انه يقول شعراً .

— ابعذن يا أتن ، ودعنه لي !

واضرب عنه النسوة متضاحكات وقد رأين الأصمعي يأخذه

منهن ، ويسوقه أمامه وهو يهمس في أذنيه بكلام لم يستطعن سماعه . وما مضى طويل وقت حتى كان الشاعر العاشق مفتوح الأذنين ، يقظا الى كل حرف يمس أوتاره مسا .

* * *

وكان موعد الدرس قد أزف ، والقوم أخذوا يتقاطرون الى داخله ، والأصمعي يضع كفه على ذراع أبي عبيدة ويناقشه فيما أخذ به علماء البصرة . وقرر أنه لو ظل علماء الكوفة ينحدرون الى بغداد ويحتضنهم السلطان فلن يكون هناك مكان لواحد من علماء البصرة .

هل المفضل الضبي أكثر علما من خلف الأحمر ؟
وهل الكسائي الكوفي الذي تعلم النحو على كبر بأفضل منه هو ؟

وأبو العتاهية مخث الكوفة ، أين هو من الحسن بن هاني فتى البصرة وشاعرها ؟

لقد كان للبصرة مجدها . كان لها سلطانها ، ومن واجب علمائها وأدبائها أن يزحموا رجال الكوفة من أجل الحفاظ على هذا السلطان ، فإن هم فعلوا ظفروا بالشهرة والغنم ، وإن هم قعدوا باءوا بخسران مبين .

وهكذا كان يدور الحديث هادئا .. كأن شيئا لم يحدث بينهما ، واقترب أبو عبيدة من العمود الذي يتخذ مجلسه عنده وإذا عيناه تقعان على بيت من الشعر مكتوب عليه في نحو سبعة أذرع :
صلى الاله على لوط وشيعته أبا عبيدة قل بالله آمينا

ودارت الأرض بسبخت ، وفأفا وهمهم ، والتفت الى غريمه
وصديقه متوسلا . ولكن هذا كان جامد الوجه حتى كأن شيئا
لم يحدث ، فهمس له :

— يا أصمعى ، استر على ما رأيت وسامحنى قبل أن يقرأه
الناس !

وتطلع الأصمعى الى البيت فى برود ثم قال :

— وماذا فيه يا معمر ؟

قال أبو عبيدة :

— فيه هلاكى يا رجل . هلا فعلت قبل أن يزدحم المسجد
بطلابه .

وكان الخط على ارتفاع لا يمكن أن تصل اليه يد أحد ،
فاقترح أبو عبيدة أن يحمله الأصمعى ليصل اليه . ولكن الأصمعى
رفض بعنف محتجا بضخامة جثته ، وهنا لم يجد أبو عبيدة مفرأ
من أن ينحنى ليصل صديقه الى كتفيه فيتمكن من محو هذا
الشعر الوقح ، واذا الأصمعى وهو يعلوه يبطىء حتى يثقله
فيصبح :

— ويحك ، قطعت ظهري فهل أنهيت ؟

ولا يبادر الأصمعى بالاجابة ، حتى اذا ألح عليه بالسؤال
ثانية قال :

— أجل يا أبا عبيدة ...

وتطلع الى الناس الذين أدهشهم منظرهما واستطرد :

— ولكن بقيت كلمة واحدة .

— وما هي ؟

— لوط !

— هي والله شر كلمات هذا البيت ، وما أظنك صنعت شيئا

حتى الآن .

ويهبط الأصمعي الى الأرض أخيرا ، فيرفع أبو عبيدة وجهه

ليرى عشرات العيون ترمقه ، وأكثر من فهم يطلق ما شاء من

ضحكات .

كتاب من بغداد

الطريق الى المربد جميل . والمربد نفسه أصبح جميلا بما أقيم فيه من دور منسقة كثر فيها الشجر والنخيل ، وأصبحت البساتين التي كانت تقطع مسيل وديانه منتجعا لسكان البلد جميعا ، وفي واحد من هذه البساتين — وكان لبنى حرام — جلسوا .. الأصمعي والنضر بن شميل وسيبويه وعلى بن نصر الجهضمي ومؤرج السدوسي ، وراحوا يخوضون في أخبار أستاذهم الخليل بعد أن مضى عام على وفاته .

ثم أنشأوا يتذكرون آمالهم وقد أخذت تأفل على غير ما كانوا يتوقعون ، وبعضهم يحمد صنيع من هاجر من علماء البصرة وشعرائها الى بغداد .. أو الى مدينة السلام ، فقد كان الأصمعي يكره الاسم الفارسي كراهيته لكل ما لا يحمل روح العرب وجلدهم ، ولما أفضى الحديث بهم الى الخليفة هارون الرشيد لم يتردد الأصمعي في أن يقول :

— بل الخليفة يحيى بن خالد البرمكي سادن النوبهار الذي قال له أمير المؤمنين أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك .

قال سيوييه في وجل وقد كان أصغر الأربعة سنا :
— ألا تركنا هذا الحديث فعدنا الى حديث النحويين ورواة
الأخبار والشعراء ، أنا نفسي لم أر غاية النحويين الا كل شعر
فيه اغراب وجعلت في كتابي من ذلك مسائل أعلم ...
وتضاحك المجتمعون وقد تبينوا ما اعتراه من خوف لا يتفق
ووفرة شبابه ، غير أن الأصمعي لم يدعه يسترسل وقال :
— دع هذا لمقامه يا أبا بشر .. فنحن ما جئنا لغير اللهو ،
والا تفتحت لنا أبواب قد لا نفرغ من تغليقها الا في غد ، وربما
متنا قبل أن يأتى غد جعلت فداك !
وعادوا يضحكون ، ولكن النضر قال :
— ولكنى أرى ما يراه ابن قنبر فان هذه هى الوسيلة التى
يمكن أن نصلح بها معاشنا .

قال الأصمعي :
— أما أمر المعاش فهين . وما عليك الا أن تصنع صنيع
معمر بن المثنى فتحمل متاعك الى البرامكة لتجد فى عطائهم ما يغنيك
طول العمر عن جلسة كهذه ،
وهنا قال الجهمضى وهو يتطلع الى مؤرج السدوسى :
— وأنت ماذا ترى ؟
فوضع السدوسى يده فى كفه وأخرج ثمرة راح يلوكها فى بطنه
قبل أن يقول :
— سألت لعمرى من لا يسمع شيئا ، فان استزدتني قلت
وآين نحن من ندامى الملوك وسماهم ؟

فصاح الأصمعي :

— طلب هذا يسير ما كان الملوك أخيارا ، ولكنك تعلم مما
يأتينا من أبناء مَنْ يحيى البرمكى ومن جعفر ابنه ، ثم من الفضل
الذى يقال انه أخو الرشيد ، ومن موسى رابعهم وكلبهم .. وبعد
ذلك ابراهيم الموصلى وابنه وابن جامع ومخارق وعلتويه وبرصوما
وزلزل ، سوى الجوارى اللائى يزحمن مجالس العلماء والفقهاء !
أتدرون ماذا كانت النتيجة ؟ رفع الحجر عن العلويين وجعل الحجاز
لهم سكنا ، ثم دخل بنو سهل القصر وهم مجوس هذه الأمة ،
وشرع جعفر فى بناء دار يدفع فيها عشرين مليون درهم .. وانكبتاه !
أما مؤرج فلم يشأ أن يسمع الى هذا كله وقام يعدو موليا ،
فلم يجد سبيويه الا أن يحذو حذوه فخطف نعليه ونهض مبتعدا
وهو يردد :

— اللهم رحمتك !

وبقى النضر والجهضى ، لا لأنهما يستروحان حديث السياسة
وانما لأنهما يحبان حديث الأصمعي . بل لقد كانا يريان أن نزعته
الأموية ربما مستهما هما بما لا يبغيان ، ولكن عذوبة صوته
ورفته حين تصفو نفسه وطرافة النادرة التى شهر بها .. كل أولئك
كان ينسيهما المهالك التى تحفّ به ، ويبدو أن الجهضى كان
يفكر فيما عساه يخفف من غلوائه فقال له :

— اسمع يا أبا سعيد . الحق أن يحيى البرمكى شخص كامل
على رغم كل ما ترميه به من تقائص ! انه جدير وايم الله بهذه
المكانة التى سما إليها ، فهو أمين سديد الرأى ، عالم أديب ،

يدير الدولة كلها فيحسن الإدارة ، ولو كان وطد العزم على
اهلاك الأمة لما وكل الشورى للفضل بن الربيع وهو هو من نعم
في تعصبه للعرب وكرهيته للفرس والموالي كافة !

فضحك الأصمعي بمرارة ثم قال :

— البرمكي أمين .. هذا لعمر الله كل العجب ، فان يكن فهو
أمين أمانة العبد الذي يتحين القرض .

قال الجهمضي :

— بل صادق في أماتته يا أبا سعيد .

وهنا تدخل النضر بعد فترة صمت طويلة وقال :

— ان بعض القوم لا يؤمن بالمولى الأمين ، ويتخذ مما يقدم
عليه زط البصرة ونبطها مسوِّغا لتأكيد هذا الايمان ، وفي رأبي
أن الخيرزان أم الرشيد وسيدة القصر وهي تتعامل مع آل برمك
جميعا انما تصدر عن ثقة مطلقة بهم والا لكانت نهت ابنها عن أن
يعهد ليحيى بكل شيء حتى ديوان الخاتم .

قال الأصمعي باصرار عجيب :

— هذا هراء .. لقد اطلعت اليوم فقط على أحد كتب الخراج
انه باسم يحيى بن خالد ، ولم يصدر قط كتاب كهذا الا عن
أمير المؤمنين .. انها بوادر كارثة يدفعنا اليها يحيى وأولاده الثلاثة
ولا نملك الا أن نسأل الله اللطف بنا وبأولادنا .

فقال النضر وهو يتذاكر حديثا من أحاديث الرسول :

— لا طيرة وخيرها الغال .

قال الأصمعي :

— ليست طيرة ولكنه الحرص والبصر بالموضع ، فانما تصوير
المغانم كافة الى تعمق الأمور وبنا الى هذه حاجة قوية . فنحن
لم نوضع قط موضع غنى وخفض وانما موضع حذر وحرص .
فزفر الجهضمي بشيء من التأمل والتفكير ، ثم أمسك بعود
جاف قضمه قبل أن يقول :

— كل شيء مثل هذا العود اليابس مهما نصطرع عليه ، فان
أخذنا بما تراه أبا سعيد وجب أن نرحل الى بغداد .. مدينة السلام
كما تحب أن تسميها ، فلعلنا نستطيع أن نفعل شيئا وهذا أول
أسباب الحرص والبصر بالموضع .

وعند ذاك ظهر رجل من قرب وهو يحجل ، وفي يده كتاب ،
ولم يلبث أن قال حين وقع بصره عليهم دون أن يقصدهم :
— يا ذو الجلال والاكرام هل لى بحمى بنو حرام .
فتصاحك الاثنان ثم انبرى الأصمعي يخاطبه :
— هكذا يا رجل .. ما اسمك ؟

أجاب :

— ليث بن سليمان الأسدي .

فانطلق الأصمعي يقول مرتجلا :

ينادى ربّه باللحن ليث

لذاك اذن دعاؤه لا يجاب

وعاد يضحك ثانية ، بينما أخذ الرجل يتقرس فيه مشدوها
مغيظا وهو يتململ في قبائة وتتدلى خصلات من شعره الأسود
أسفل قلنسوته المستطيلة ، فلما هدأت الفورة صاح قائلا :

— ولكنى لم أدع ولم أسأل وانما أبحث عما يسمونه
بالأصمعى ، وقد قيل لى أنه فى هذه الناحية .

وهب الأصمعى واقفا ، وتلقف الرجل بين ذراعيه وهو يقول :

— هلم يا رجل ماذا وراءك ؟

— أريد الأصمعى .

— هو بعينه أمامك .

— أنت ؟

— ومن سواى ؟

— اذن خذ .. هذا كتاب الفضل بن الربيع وهو يقرئك

السلام من بغداد !

وسرعان ما دفع اليه بالكتاب ثم استدار على عقبه ومضى

مسرعا وهو يحجل فيشير منظره السخرية والضحك ، وبينما راح

الجهضى والنظر يتبعانه مبتسمين أخذ الأصمعى يطالع الكتاب

ثم لم يلبث أن قال وهو يدفع به اليهما :

— دعوة عرجاء يحملها أعرج كفانا الله شر العرج !

البَابُ الثَّانِي

في بغداد

الغريب

انتهت كل أسباب المقاومة في نفس الأصمعي !

كان يرى المتربة وهو سيد نفسه خيرا من غنى يأتيه وهو ذليل ، الا أن هذه القاعدة لم تكن لتثبت الى الأبد ، فالسلطان يضيق عليه ويده ضاقت عن أن تكفى كل حاجاته ، ووجد من لم يبل بلاءه يحيا في رغد دون أن يسلك مسالك الزلل . فكان معنى هذا أن التزمت لا يلزمه دائما قصدا سويا ، ومن ناحية أخرى أخذت رسائل الفضل بن الربيع — بعد أن ماتت الخيزران سند يحيى البرمكي عام ١٧٣ وتولى عنها أمر الخاتم — تأتيه تباعا من دار السلام . تدعوه ، وتزين له آفاقا أوسع يلقي فيها تعاليمه ، وترزقه الرضى عن نفسه والجاه والنشب ! فان أضفنا الى هذا أن الشعوبين نقلوا ميدان المعركة الى بغداد فشاغ ثم فساد ، وانحطت قيم ، وانهارت تقاليد ، وهان العربى وغلب.. قام حافز يحفز به الى الرحلة ، وتبينت الغاية التى ينبغى أن يحددها !

أجل ..

وكانت أعوام ثلاثة قد انقضت منذ ولى الرشيد الخلافة ،

وحملت السفينة الكهل الذى راح يفكر كيف له أن يخطب ود الملوك .

غادر البصرة وفيها بناته الثلاث متزوجات ، وأطلق العبد الذى قام على خدمته .. فقد كان من رأيه أن الاسلام يدعو الى العتق لا الى الاتجار بالرق ، ولم يدع كرها لبلده كما فعل أبو عبيدة وابن الأعرابي وسلم الخاسر وأبان اللاحقى ، ثم لم يوطن عزمه على ألا يعود اليه قط .

غادرها وفي نفسه كمد شغله طول طريقه ، فلم يملأ عينيه بالرياض والديارات والمباقل والكروم ، ولم يستروح رقة الهواء وطيب العطور . لا ولم يسمع الى غناء الملاحين ، فما ختم مطافه الا على دموع الشجن ، فلقد أحس أنه مضى ، وخيل اليه أنه لم يقدم شيئا كبيرا خلال السنوات الخمسين التى فرت فى صراع وتحصيل وعراك .

كان فاشلا .. تردده وهوجه كانا يدفعان به دائما الى الفشل ، ولم يكن قط أكثر شعورا بالفشل منه وهو يشاهد أسوار بغداد العريضة وقبابها الصفر . وعبر الباب الكبير فأفضى الى رحبة مرصوفة بالحجر كان يجب أن يقطعها ليصل الى الباب الثانى لدار السلام ، فلما مر منه واجهته العماثر والدور والمنائر والقصور .

كل شيء قد تغير ..

وما أبعد الفرق بين المدينة اليوم وبينها يوم سيق اليها مقيدا

من قبل ! آكان يظن أنه عائد إليها يدفعه أمل كهذا الأمل الذى يحدوه ؟

والناس يملأون الساحات والطرق .. عشرات بل مئات ، وحمير تعب وبراذين تخطر ، والجمال مع ذلك تلوذ بالجدران ! هذه هى بقايا ما للعرب فى بغداد ، واختفى كل أثر لهم .. حتى العمائم الا قليلا ، وانتشرت القلائص على الرؤوس ، ولبس المشايخ الطيالس السود ، وتقرطق الغلمان بقراطق الجوارى اللائى كن يرحن ويغدون فى دلال .

وهم يقولون بعد ذلك ان بغداد هى الحلقة التى تصل بينه وبين القدم .. كيف وأمير المؤمنين الشاب الذى يقال انه يصلى مائة ركعة فى اليوم يتسرى بعشرين من هؤلاء ويسمع الى ابراهيم الموصلى لأنه أول من وقع الايقاع بالقضيب ، والى علويه الذى حرف القديم كله ولا يغنى الا النغم الفارسى يصاحبه برصوما الزامر ؟

ويقولون انه يقتفى آثار المنصور الا فى بذل المال .. مرحى مرحى ! وأين ما جاء هو من أجله ؟ ألهذا اللهو أم ليمدح فى شعر فصيح فيجزل له العطاء ؟

وحملته قدماه الى الكرخ .

انها أوسع محلات البلد .. منظمة ، وتتفرع شوارع ، وفى كل شارع تجارة معينة ، وتمتد الشوارع حتى تخرج من السور فتكون محلة عظيمة يضيع فيها أى شىء كما هو ضائع .

وزار الرصافة فى الجانب الشرقى ، فلاحظ كثرة العسكر ،

خراسانيين وأساورة وفيهم بعض العرب . وشاهد الجامع وصلى فيه ، وتفرج على دار الوزارة البرمكية شمالي الرصافة حيث الشماسية .. المحلة الرسمية ومنها تصدر الكتب والأحكام .

وهكذا أصبح الجانب الغربي لنهر دجلة قطعة حياة نابضة ، وفي الوسط على ما قدر وروى الرواة المسجد الجامع .. كمسجد البصرة ، تحيط به دواوين الدولة وعشرات بل مئات من القصور ، وكلها في مأمن من غدر بلاد فارس وخراسان مع أن كل شبر منها لا يخلو من فارسي أو خراساني .

هذا هو العجب !

ودار الفضل بن الربيع . أفيئزل فيها أم يقصد دار الأمير سعيد الباهلي أم يرتاد خانا أم ينفق ليله هذا في المسجد كأنه واحد من مسجديي البصرة ؟ أيقبض الله واحدا من معارفه حتى وإن يكن أبا عبدة نفسه . ولكن محال ، فالناس ها هنا لا يعرفون أحدا ، والغريب غريب حتى يعرف مستور البلد .

الفضل بن الربيع

يمتد الطريق على نهر طابق في اتساع مريح ، وعلى جانبيه
الأشجار تحجب دورا تزهى مبتسمة ، وطرق هو واحدا من هذه
الدور بعد أن دلف من السور متتدا مترددا ، فلقية عبد" أسلمه
الى عبد آخر عدل به الى ردهة هفافة مفروشة الصحن مئبسة
الحيطان بالوشى المنمنم ..

وأخذ بالأبهة البادية وسأل نفسه « اذا كانت هذه حال
ابن الربيع فما يكون أمر الخليفة أو أمر وزيره يحيى » ولم يكن
الا قليل حتى طالعه الفضل مهلا وهو يقول في مزح يشبه الجد :
— قد كلمت فيك شاعرا من باهلة ليهجوك ما دمت لا تريد
أن تجعلنا تتزود منك .

فقال وقد داخله شيء من القلق :

— أما أن أهجى عندك فحاشا ، ولكن من الشاعر ؟

أجاب الفضل بن الربيع :

— أخاف ألا تنشط له ، على أنه من خلعاء بغداد ، وخاض

فيك مع أبى العتاهية شيئا .. والله انهما ليقدرانك !

قال الأصمعى :

— كأنه الحسين بن الضحاك .

فضحك الفضل ثم قال :

— والله انه هو .. يا غلام !

وكان قد صفق فدخل الغلام .. مولى أسود عليه ثياب موشية مرتفعة ، وعمامة صفراء فقال له :

— ادع^١ بالمائدة .

فمذ^٢ ساط وضع عليه خبز سميد وبقل وجدى مشوى ، ثم لم يزل الخدم يضعون ويرفعون والأصمعي دهش يقول في قراراته :

— يا سبحان الله ما تصنع الحدائة بأهلها !

وبادره الفضل يقول :

— هذه أكلة عربية ، نعقبها بأكلنا ها هنا . هات السمك

المشوى يا غلام .

ولكن الأصمعي لم يكن قد تأهب لهذا فصاح :

— هلا أعفيتني فلا أصيب الا الحلواء !

وانطلق الفضل بن الربيع يضحك ، ثم دعا بطبق فيه

بزماورد^(١) ورطل نبيذ فوثب الأصمعي صائحا :

— معاذ الله ! ألي أنا هذا الشراب ؟

وانفجر الفضل يضحك ثائبة :

— طلبت والله ثالثا يؤنسنا فلم أر أحق بذلك من هذا الرطل ،

فبحياتي بادر^٢ فأصيب منه قليلا .

(١) نوع من الحلوى يشبه ما يسمى في مصر « لقمة القاضي » .

قال :

— محال يا سيدى قد والله أفعل أى شىء الا هذا ، فاجلس
أنت وخذ شرابك وأما أنا فساأنصرف .

قال الفضل وهو لا يزال يضحك :

— الى أين ؟

أجاب :

— الى حيث لا يطالعنى شىء من هذا . سأقصد الأمير سعيد
ابن سلم الباهلى قال الفضل :

— لن تنزل الا عندى حتى أهيب لك بيتك الخاص . اطمئن
يا أبا سعيد ، فما فى الرطل ما يسكر وانه لم يختبر ، ومع ذلك
فهاثوا له الفواكه .

وجيء بتفاح وريحان وألوان أخرى راح الأصمعى يصيب منها
وقد راح يرقب الخدم يحملون بقايا المائدة حملا ، ثم كان أن دخل
شاب عليه طيلسان أبيض وسراويل وشى مسدول ، وفى يده عود
مزخرف . فقبل يد الفضل واتخذ جلسته على مبعدة وهو يمد
أصابعه يلمس بها الأوتار ، ولم تكد الأنعام تنساب حتى دخلت
جارية فيها ملاحه لباب يوم كانت شابة غضة مثلها ، وقد اثلثت
خصلات من شعرها الخيرى على كتفيها ، رآه خلل الشال الذى
كان ينسدل على قدمها فى دلال ، واتفض لها قلبه ولكنه أحجم .
فقد مضى العهد الذى يخفق فيه القلب ، وسمع بين الغناء ودقات
قلبه صوت الفضل يأتيه من بعيد :

— ألا قلت شيئا يا أبا سعيد ؟

قال الأصمعي وقد داخله النشاط وهزته الأريحية :
— والله انها لمعان تدور في نفسي ولن أطلقها الا هكذا . اسمع
يا سيدي :

يا رب خود من بنات الأحرار
من آل كسرى في ذرى الزندالوار
يستنّ في مفرقها مسك الفار
كانها من جسد في الأعطار
وسأتمها طويلة حتى أكون عندك شاعرا ، فما أسهل ذلك
عندي ، ولكن ما لهذا أتيت .

وأشار الفضل الى خدمه فانصرفوا ، وأغلق عليهما الباب ،
واستدناه كأنما يوشك أن يفضى له بسر خطير وقال :
— أرايت ما رأيت يا أبا سعيد ؟

أجاب :
— فيه ما فيه يا سيدي ، وانما الأمر بعد ذلك ...
فقاطعه قائلا :

— لا شيء والله ، ولكن فكرت أن يحيى يقعد هذا المقعد
ويقعد معه ظرفاء بغداد وعلماءها فتجتمع القلوب على بنى برمك
وتسلب حق أمير المؤمنين .

ولم يفهم الأصمعي شيئا فمضى الفضل يقول :
— سترى عندي نفرا من ظرفاء بغداد ، ستراهم يقصفون ،
وستقابل نفرا آخرين من الشعراء ، وستجمع لى علماء البصرة
بعد اذ استأثر يحيى وأولاده بعلماء الكوفة . أتدرى ما كان ؟

هز الأصمعي رأسه فقال الفضل :

— على بن حمزة الكسائي يقوم على تأديب محمد بن أمير المؤمنين وقد أدب أمير المؤمنين نفسه ، واليزيدي يؤدب أخاه عبد الله ، ومحمد بن الحسن الشيباني القاضي صاحب أبي حنيفة يتصل بالبرامكة ، وسهل بن هارون أديب بغداد الكبير يلوذ بجعفر البرمكي ، وسلم الخاسر يقصد الفضل أخاه الكبير . كل رجال الفكر والأدب ، كلهم يجتمعون مع خصومنا يا أبا سعيد ، والله لن تقوم لنا قائمة حتى يكون عندنا مثل ما عندهم ، وها نحن أولاء نريدك ونريد يونس بن حبيب و...

وقاطعه برفق قائلا وهو كالشارد :

— لم تحدثني عن أبي عبيدة ولا عن ابن الأعرابي
قال الفضل :

— اسحاق بن ابراهيم الموصلی يسعى من أجلهما عند أمير المؤمنين ، وذكرتك أنا عنده .

فصاح الأصمعي :

— يا سيدي الله الله .. فما أرجو أن أكلفك شططا ، فان أمير المؤمنين لو شاء لطلبني !

قال الفضل :

— يا أبا سعيد ، للملوك سجيّات أخطرها جهلهم بمن يجب أن يستعان به ، فان لم يجهلوا ألهمتهم الحاجة العارضة ، وعندي أن التعرض لهم بالذكر غنم وغناء ، ولهذا فلتكن قريبا حتى أدخلك عليه ، ومن غد ان شاء الله أعقد بينك وبين حجاب القصر مودة اذ

ما أكثر ما يطلبون من لفّ لفك في ساعات الليل أو أطراف النهار .
وتفكر الأصمعى قليلا ثم تهافت قائلا :
— ان نفسى تحدثنى بأشياء كثيرة هنا ، غير أئى لن أحجم
عن شىء قط .

ونفض يشد من جسمه فبدا متدفق النشاط ، ولم يكن فيه
شىء يدل على أنه فى الخمسين .. حتى شعر رأسه احتفظ بسواده ،
ولكن الفضل تعرض لهندامه قائلا :
— كل شىء فىك حسن .

— حتى وجهى ؟

— حتى وجهك .. الا ثيابك يا أبا سعيد ، غير أئى سأهديك
من عندى شيئا ، فالقصر غير ما اعتدت أن تنتاب ، وحسبك أن
ترى خادما واحدا فيه لتلقى بكل ما ترتديه ! وأما جعفر البرمكى
فعاية فى الأناقة ، والى جانبه الفضل أخوه لا يضع الا أفخم
الأكسية ويخلع أعلى البرود ويهدى أثمن الطيالس ، ولو علم
أبوهما يحبى بأن مناسج الحرير بالشام ستخرج مثل ما يهديه لمنع
ورود كل ثوب منها .

فقعد الأصمعى وهو يقول :

— ان هذا الرجل عجيب حقا .

قال الفضل :

— بل داهية ، يعطينى الحجابة لأنه يعرف أن أمير المؤمنين
يريدها لى ولكنه يكل أمر الوزارة للفضل ، ويتودد الى سيدة
القصر زبيدة أم جعفر وهو يدرك تماما أنها تكرهه ولكنه يعلم أن

الرشيد يعلق بها ، ويريد أن يقدم للخليفة أبا عبيدة فيخشي سلاطة
لسانه وشعوبيته فيؤخره الى أن تأتي ويطلب مني أن أستدعيك
لأقدمكما معا للرشيد .

واشرأب الأصمعي بعنقه وهتف :

— واذن فالأمر ميّت بينكما .. ويلاه مما يجري وأنا

لا أدري !

قال الفضل :

— ولكنني لن أفعل .. سأمنع دخوله القصر ما ظلمت أعيش ،

وأما أنت فاستعد لأقدمك للبرامكة فأنت مدعو مع أبي عبيدة
على مائدتهم !

الفَرْج

وتعرف الى حراس القصر وصار لهم مؤنسا .. فقد قدمه اليهم ابن الربيع ، ووكل به اسماعيل بن صبيح كاتب الفضل البرمكى وعين الفضل بن الربيع عليه ، وبلغ بما استعمل به مودتهم مكانا بينهم ؛ فكان يرتادهم فينفق عندهم الساعات مؤملا . يطلع عليه الجوارى الناهدات فيعجب ، ويناغى ، وينشد الأشعار مما يحفظ وما لا ينسى ، ثم يستغفر الله !

وهناك رأى أبا عبيدة وقد احتفت به جارية من هاتيك تضع قباء وشى ، وعلى رأسها قلنسوة رقيقة ، ويحيط خصرها زنار أخضر ، وفي رجليها نعل مدبجة الدروز وتمسك بيدها عود خيزران .

— ما هذه أبا عبيدة ؟

— جارية الفضل تستدعيني له .

— سهّل الله لك بها المتعذر من اللقاء .

— ولماذا بها يا أبا سعيد ؟

— هل أنت أعمى ؟ والله ما هى الا طالع سعد يكون على

الدرك معنا .

وعلى هذا جرت الأحوال أياما لا يرى جديدا ، الا يوم حضر
مأدبة الفضل بن يحيى البرمكى فى قصره الفخم . ولقد احتفى به
الرجل وحياءه أخواه جعفر وموسى ، وطيبا خاطره ، غير أنه لحظ
مدى ما يولى به أبو عبيدة من ترحيبهم .

وأدرك أن الأسرة حذقت الأخذ والعطاء ، والملاينة والمهادنة ،
وأجادت أساليب الاستهواء . وكانت المائدة فاخرة حقا ، جىء
فيها بأطعمة لم يسمع بها ، ثم اذا بين يديه سمك كنعدي وكامخ ،
فالتفت الى معمر وقال كالهامس :
— كل من هذا يا أبا عبيدة .

وزحزح طبق الكامخ تجاهه فانتفض ، ولم يملك الا أن يصيح
بصوت لفت اليه نظر الفضل وأضحكه قبل أن يخرج .
— والله العظيم ما فررت من البصرة الا من الكامخ والكنعد!

* * *

وخرج هو أيضا وقد أوجس خيفة ، واتجه من فوره الى قصر
الخلد يطرق أصحابه الحراس وقد طاولته الغايات بما كان يصير
به الى ملالة ، وأنشأ يقول :

وساع ما تضيق به المعانى	وأى فتى أعير ثبات قلب
ألا بل لا تواتيه الأمانى	تجاذبه المواهب عن إباء
عن الدرك الحميد لدى الرهان	فرب معرّس للناس أجلى
من الهفات ملتهب الجنان	وأى فتى أناف على سئمو
على العزمات كالعضب اليماني	بغير توسّع فى الصدر ماض

ولم يبعد أن خرج خادم وقد تقدم الليل وتربع الأرق بين عيني
الرشيد ، وصاح الخادم :

— هل بالحضرة أحد يحسن الشعر .

فوئب الأصمعي واقفا وهو يصيح :

— الله أكبر . رب قيد مضيق قد فكّه التيسير للانعام ، أنا

صاحبك ان كان صاحبك من طلب فأدمن أو حفظ فأقتن .

فتقدم الخادم يأخذ بيده وهو يقول :

— ادخل . ان يختم الله لك بالاحسان لديه والتصويب ، فلعلها

تكون ليلة تعوّض صاحبها الغنى .

قال :

— بشرك الله بالخير !

ودخل كالمبهور فواجه الرشيد في البهو جالسا كأنما ركب
البدر فوق أزواره جمالا والفضل بن يحيى الى جانبه ، والسمع
يحدق به على قضب المنابر ، والخدم فوق فرشه وقوف .

وقف به الخادم حيث يسمع تسليمه ثم قال :

— سلم على أمير المؤمنين .

فسلم بصوت عذب فرد ، ثم استطرد قائلا دون أن يتطلع نحوه :

— ينحى قليلا ليسكن روعه ان وجد للروعة حسا .

فقعده في مكانه حتى سكن جأشه ، ثم تجرأ وقال :

— يا أمير المؤمنين ، اضاءة كرمك وبهاء مجدك مجيران لمن

نظر اليك من اعتراض أذية له ، أيسألني أمير المؤمنين فأجيب أم

أبتدىء فأصيب ، ييمن أمير المؤمنين وفضله .

وتقدم فلمح الفضل يتبسم له ، ثم قال في صوت عميق :
— ما أحسن ما استدعى الاختبار واستهل به المفاتحة ، وأجدر
به أن يكون محسنا . والله يا أمير المؤمنين لقد تقدم مبرزا محسنا
في استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون ممتعا .
فاضطجع الرشيد وقال في هدوء :
— أرجو .. اذن !

فدنا نحوه ورآه يتفرس فيه ، وكافت عيناه عميقتين قهاذتين ،
ثم قال :

— شاعر أم راوية ؟

أجاب :

— راوية يا أمير المؤمنين .

فتساءل الرشيد قائلا :

— لمن ؟

فأجاب الأصمعي :

— لذي جيد وهزل بعد أن يكون محسنا !

قال :

— والله ما رأيت أوعى لعلم ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته
الأذهان منك ، ولئن صرت حامدا أثرك لتعرفن الفضل متوجها
إليك سريرا .

قال الأصمعي :

— أنا على الميدان يا أمير المؤمنين ، فيطلق أمير المؤمنين من
عقاله مجيئا فيما أحبه .

قال الرشيد :

— قد أنصف القارة من رامها . ولكن ما معنى المثل فى هذه الكلمة بديا ؟

فأجاب الأصمى :

— ذكرت العرب يا أمير المؤمنين أن التتابة كانت لهم رماة لا تقع سهامهم فى غير الحدق ، وكانت تكون فى الموكب الذى يكون فيه الملك على الجياد البلق بأيديهم الأسورة وفى أعناقهم الأطواق ، تسميهم العرب القارة .. فخرج من موكب الصغد فارس معلم بعذبات سود فى قلنسوته قد وضع ثشابته فى الوتر ثم صاح « أين رماة الحرب » قالوا « قد أنصف القارة من رامها » والملك أبو حسان اذ ذاك المضاف اليه .

وسكت الأصمى ليتعرف أثر حكايته ، فقال الرشيد :

— أحسنت . أرويت للعجاج ورؤية شيئا ؟

أجاب :

— هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافى وان غابا عنك بالأشخاص !

فمد يده تحت فراشه وأخرجها برقعة راح ينظر فيها ، ثم قال :

— أسمعنى « أرقنى طارق هم طرقا » لرؤية .

فتنفس الأصمى الصعداء ومضى فيها مضى الجواد فى سنن ميدانه ، تهدر بها أشداقه حتى اذا صار الى امتداح بنى أمية تذكر موقفه وثنى عنان لسانه الى امتداحه المنصور فى قوله « قلت لوزير

لم تصله مريمه» (١) ولم يخف ذلك على الرشيد فقال :

— أعن حيرة أم عن عمد ؟

أجاب :

— بل عن عمد تركت كذبه الى صدقه فيما وصف به المنصور

من مجده وهنا تدخل الفضل قائلا :

— أحسنت بارك الله فيك . مثلك يؤمل لهذا الموقف !

قال الرشيد :

— ارجع الى أول هذا الشعر .

فأخذ من أوله حتى صار الى صفة الجمل فأطال ، فقال الفضل :

— مالك تضيق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر في

ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب ؟ صر الى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره .

وأحسن الأصمعي يبغي عارم يجتاحه وتمنى لو قال شيئا يؤلم

به هذا الوزير الأعجمي ، ولكن الرشيد أعفاه حين قال له :

— اسكت .. هي التي أخرجتك من دارك وأزعجتك من قرارك

وسلبتك تاج ملكك ثم ماتت ، فعملت جلودها سياطا يضرب بها

قومك ضرب العبيد !

ثم قهقه ومضى قائلا في سخرية :

— لا تدع نفسك يا فضل والتعرض لما تكره .

فلم يجد الفضل الا أن يقول مستخزيا :

— لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله .

(١) زير : زير نساء وحريمه : علم لامرأة .

فقال الرشيد :

— أخطأت في كلامك هذا أيضا يرحمك الله فلو قلت
« واستغفر الله » قلت صوابا وانما يحمد الله على النعم .

ثم صرف وجهه الى الأصمعي الذي أحسن سعادة غامرة وقال :
— ما أحسن ما أديت في قدر ما سئلت .. أسمعني كلمة عدى
ابن الرقاع في الوليد بن يزيد بن عبد الملك « عرف الديار توهما
فاعتادها » .

فقال الفضل :

— يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع
الكذب ؟ لم لا تأمره أن يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك .
قال في ضيق :

— ويحك ! انه أدب ما يخطب أبكاره بالنسب وقلما يعتاض
عن مثله ، ولأن أسمع الشعر ممن يخبره وشغلته العناية به عمره
أحب اليّ من أن تشافهني به الرسوم ، وللممتدح بهذا الشعر
حركات ترد عليك فلا تصدر من غير اقتناع بها ، ولا أكون أول
مستن طريقة ذكر لم تؤدها الرواية .

قال الفضل والأصمعي يرقب ويسمع هذا الجدل المثير :

— قد والله يا أمير المؤمنين شاركك في الشوق وأعتك على
التوق .. يا أصمعي احد بنا ليلتك منشدا ، هذا سيدي أمير المؤمنين
قد أصغى اليك مستمعا فمر ويحك في عنان الانشاد ، فهي ليلة
دهرك لن تنصرف الا غانما .

وشعر الأصمعي بالفرح ، وتذكر أبا عبيدة وقد خلفه على المائدة

يحدث شقيقى الفضل ويسمر معهما ، واستمع الى الرشيد يقول :
— أما اذا قطعت على " ثانية فأحلف لتشركنى فى الجزاء ، فما
كان لى فى هذا شيء لم تقاسمنيه !
قال الفضل :

— قد والله يا أمير المؤمنين وطنت نفسى على ذلك متقدما
فلا تجعله وعيدا .
قال الرشيد :
— ولا أجعله وعيدا .
فقال الأصمعى متماكرا :

— الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها . انى أرى الخليفة
والوزير وهما يتناظران فى المواهب لى .
واطلق ينشد مستعرضا صورة أبى محرز وصورة أبى عمرو
ابن الحلاء ، وصورا أخرى لشعراء ولرواة شعر حتى اذا بلغ
الى قوله :

ترجى أغن كأن ابرة روقه

قلم أصاب من الدواة مدادها

استوى الرشيد جالسا وقال :

— أتحفظ فى هذا شيئا ؟

فأجاب مبتسما :

— نعم يا أمير المؤمنين قال الفرزدق لما قال عدى « ترجى
أغن كأن ابرة روقه » قلت لجريز « أى شيء تراه يناسب هذا
تشبيها » فقال جريز « قلم أصاب من الدواة مدادها » فما رجع

الجواب حتى قال عدى « قلم أصاب من الدواة مدادها » فقلت
لجبرير « ويحك لكان سمعك مخبوء في فؤاده » فقال جبرير
« اسكت ، شغلنى سبك عن جيد الكلام » .

فقال الرشيد :

— مرة في انشادك .

فمضى الأصمعى وقد أحس أنه ملك الزمام حتى بلغ الى قوله :
ولقد أراد الله اذ ولاكها من أمة اصلاحها ورشادها
فقال الفضل :

— كذب وما بز .

قال الرشيد :

— ماذا صنع اذ سمع هذا البيت ؟

فأجاب الأصمعى :

— ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال لا حول ولا قوة

إلا بالله !

قال الرشيد :

— مرة في انشادك .

فمضى حتى بلغ الى قوله :

تأتيه أسلاب الأعزة عنوة عصبا وتجمع للحروب عتادها

فقال الرشيد :

— لقد وصفه بحزم وعزم لا يعرض بينهما وكل

ولا استدلال .. فماذا صنع ؟

أجاب الأصمعى :

— يا أمير المؤمنين ذكرت الرواة أنه قال «ما شاء الله» .

قال الرشيد :

— أحسبك وهمت .

فقال الأصمعي متوجسا :

— يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية فليردني أمير المؤمنين

الى الصواب .

قال :

— انما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله اذ ولاكها من أمة اصلاحها ورشادها

ثم استطرد قائلا :

— والله ما قلت هذا عن سمع ولكننى أعلم أن الرجل لم يكن

يخطئ في مثل هذا .

قال الأصمعي :

— وهو والله الصواب .

فقال الرشيد :

— مر في انشادك .

فمضى حتى بلغ الى قول الشاعر :

وعلمت حتى لا أسأل واحدا عن حرف واحدة لكى أزدادها

فقال الرشيد :

— وكان من خبرهم ماذا ؟

فقال الأصمعي :

— ذكرت الرواة أن جريرا لما أشد عدى هذا البيت قال

« بلى والله وعشر مئين » فقال عدى « وقتر » فى سمعك أثقل من الرصاص » هذا والله يا أمير المؤمنين المديح المنتقى فقال الرشيد : — والله انه لنقى الكلام فى مدحه وتشبيبه .

فتدخل الفضل قائلا :

— يا أمير المؤمنين لا يحسن عدى أن يقول :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاما اذا قدروا

فقال الرشيد :

— بلى .. قد أحسن اذ يقول فى الوليد :

للحمد فيه مذاهب ما تنتهى ومكارم يعملون كل مكارم
ثم التفت الى الأصمعى وقال :

— ما حفظت له فى هذا الشعر شيئا حين قال :

أطفأت نيران الحروب وأوقدت نار قدحت براحتيك زنادها
فقال :

— ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه حك يميننا بشمال مقتدحا

بذلك ثم قال « الحمد لله على هبة الانعام » .

وهز الرشيد رأسه ثم قال :

— أرويت لذى الرمة شيئا ؟

فأجاب الأصمعى قائلا :

— الأكثر يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— والله انى لا أسألك سؤال امتحان وما كان هذا عليك ،

ولكننى أجعله سببا للمذاكرة ، فان وقع عن عرفانك شيء فلا ضيق عليك بذلك عندى ، فماذا أراد بقوله :
مُـمِرٌّ أُمِرْتُ مَتْنَهُ أَسَدِيَّةٌ يَمَانِيَّةٌ حَلَالَةٌ بِالمَصْنَعِ
فقال الأصمعى :

— وصف يا أمير المؤمنين حمارا وحشيا أسمنه بقل روضة
تشابكت فروعه ثم تواشجت عروقه من قطر سحابة كانت فى نوء
الأسد ثم فى الذراع منه .
فقال الرشيد :

— أصبت ، أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم ،
اذ هو شيء قلما يستخرج بغير السبب الذى رويت لهم أصوله
أو أدتهم اليه الأوهام والظنون ؟ فالله أعلم بذلك .
قال الأصمعى :

— يا أمير المؤمنين ، هذا كثير فى كلامهم ولا أحسبه الا عن
أثر ألقى اليهم .
قال الرشيد :

— قلما أجد الأشياء لا تثيرها الا الفكر فى القلوب ، فان
ذهبت الى أنه هبة الله ذكرهم بها ذهبت الى ما أدتهم اليه الأوهام..
ومع ذلك أرويت للشماخ شيئا ؟
فأجاب الأصمعى وهو يستعد لامتحان جديد :

— نعم يا أمير المؤمنين .
قال :

— يعجبني منه قوله :

إذا رُدَّ من ثَنَى الزَّمامِ ثَنَّتْ له جِيرانا كخِوطِ الخِيزرانِ المِوجِ

فقال الأصمعي مؤمنا :

— يا أمير المؤمنين هي عروس كلامه .

قال الرشيد :

— فأيتها الحسن الآن من كلامه ؟

أجاب :

— الرائية .

وأنشده أبياتا منها ، فقال :

— أمسك ، أستغفر الله ثلاثا .. أرح قليلا واجلس ، فقد

امتعت منشدا ووجدناك محسنا في أدبك ، مغبرا عن سرائر
حفظك .

ثم التفت الى الفضل قائلا :

— لكلام هؤلاء ومن تقدم من الشعراء دياج الكلام

الخصرواني يزيد على القدم جدة وحسنا ، فاذا جاءك الكلام المزين
بالبديع جاءك الحرير الصيني المذهب ، يبقى على المحادثة في
أفواه الرواة . فاذا كان له روثق صواب ، وعته الأسماع ولذ في
القلوب ولكن في الأقل منه . يعجبني مثل قول مسلم في أبيك
وأخيك الذي افتتحه بمخاطبة حليته مفتخرا عليها بطول السرى
في اكتساب المغانم حيث قال :

أجذك هل تدري أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يذكر جعفر
أفرايت .. ما ألطف ما جعلها معدنا لكمال الصفات ومحاسنها !

يا أصمعى اننى أجد ملالة ولعل أبا العباس يكون الآن أنشط
لذلك ، وهو لنا ضيف فى ليلتنا هذه فأقم معه مسامرا له .
ونهض فتبادر الخدم فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه ،
ثم قدمت النعل فلما وضع قدمه فيها جعل الخادم يسوى عقب
النعل فى رجله فقال له :

— أرفق ويحك .. حسبك قد عقرتنى !

فقال الفضل :

لله در المعجم ما أحكم صنعتهم ! لو كانت سندية ما احتجت
الى هذه الكلفة .

قال الرشيد محتدا احتدادا أعجب له الأصمعى وحمده :

— هذه نعلى ونعل آبائى رحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل

آبائك .. لا تزال تعارضنى فى الشيء ولا أدعك بغير جواب
يمضك .. يا غلام على بصالح الخادم فقد أمرته بتعجيل ثلاثين ألف
درهم للأصمعى فى ليلته هذه !

قال الفضل للأصمعى وهو يتبع الرشيد بعينيه حتى اختفى :

— لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه أحد غيره

لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين ، وانى أدفع لك مثلها
الا ألف درهم وتصبح من غد فتلقى الخازن ان شاء الله .

الفائدة تسير

كان الغد المامة بأفاق المجد قبل أن يقتحمها ويأخذ منها قسطه المقدر ، ويستذل فيها الزمان ! وعجب للظروف التي هيات له كل أسباب الفرج فجأة ، فلما جلس الى مائدة الفضل بن الربيع في بستان قصره والى جانبه نخب من رجالات العصر — فيهم أبو عبيدة وأبو بكر النحوى والجهضمى وسلم الخاسر الشاعر الغنى تلميذ بشار — كان كمن كلال بالغار ؛ فهو موضع كل عين وقصد كل متحدث . ثم وصل رسول من قبل الحسن بن سهل يدعوه هو والحاضرين دعوة ضيافة ، بعد أن يأذن الفضل بن الربيع .

وقد استقبلت الدعوة والضيف في حديث عن عالمى البصرة ، وانهم ليجهلون أو يعلمون ما يثور في نفسيهما من أحاسيس . فاستمهلوا الرسول الى غد ، ومضوا فى التعداد والحصص ؛ فاذا الى جانب كل رسالة رسالة ، ومع الكتاب عند الرجل صنوه عند الآخر ، فكأنهما فرسا رهان .

يقدم أبو عبيدة كتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب فعل وأفعل وكتاب المصادر وكتاب الأضداد ، فيقدم الأصمعى كتاب الخيل

وكتاب الشاة وكتاب فعل وأفعل ، ويزيد فيقدم كتاب الهمزة
وكتاب المقصور والممدود وكتاب الصفات ثم كتاب اللغات .
ويذكر أبو عبيدة أن له كتاب الشعر والشعراء وجمع شعر
امرىء القيس ، فيعلن الأصمعي أن عنده كتابا في معاني الشعر
وكتابا في الأراجيز فضلا عن أنه جمع أيضا شعر امرىء القيس .
ويقول أبو عبيدة انه وضع مؤلفات في اعراب القرآن ومعاني
القرآن وغريب الحديث ، فيسلم الأصمعي بأنه لا ينحو نحو
زميله فيما يتصل بكتاب الله ولكنه ألف كتابا في غريب الحديث ،
والأمر على أية حال لا يعده فضلا لأنه لا يزال على الدرب ولم
يسلم الراية بعد ، وفي الطريق كتب عن الأمثال وهذيل وعنترة .
بل انه بالنسبة لعنترة بالذات يضع فيه سجلا كبيرا لم يفرغ الا من
جزئه الأول مع أنه مشغول به منذ سنوات طوال ، وليس في هذا
الاعتراف قصور منه ولكنه اقرار بفداحة المسؤولية .

ثم سكت الرجلان ، وسكت الضيف ، يرسمون أمامهم المرحلة
الشاقة التي قطعها قبل أن يقعدا قعدتهم هذه متوجين بالاكبار .
ولكن الهوى لا يفتأ يسأل أيهما السابق ، أهذا العربي الفصيح
الجرىء الذى يأسر ويطرب ويحكى فيأخذ بمجامع القلوب أم
المولى المثقف الذى ان تمكن خاض في أخبار الأولين والآخرين ؟
لم يكن ثمة سبيل الى هذا ، غير أن الفضل يلتفت الى
الأصمعي فجأة ويسأل :

— تقول ان لك كتابا في الخيل يا أبا سعيد ؟

— هو ذاك .

— كم هو ؟

— مجلدة واحدة .

وهمهم الحاضرون ، وأرتج على الفضل . فقد كان يظن أنه
أخذ بشيء كبير يروع به هذا الذى يعتقد به الموالى ويكسر به
نفوسهم ، ثم تبين أنه ان لم يسأله السؤال نفسه أظهر تحيزه
للعربى فلم يجد بدا من أن يتوجه اليه سائلا ليجيب فى تيه كبير :
— خمسون مجلدة !

ويرتفع الصياح ، ويبدو كأن الأصمعى غلب على أمره . ولكن
الفضل بن الربيع يسرع فيشير الى فرس كان يتسكع بين أشجار
الستان قريبا منهم ويقول لأبى عبيدة :
— قم الى هذا الفرس وأمسك منه عضوا عضوا وسمه .
فترأجع أبو عبيدة قائلا :

— لست بيطارا ، وانما هذا شيء أخذته عن العرب !
وأسرع الفضل يلتفت نحو الأصمعى ، وهو يعلم أنه يقدر
على ما عجز عنه أبو عبيدة ، ويقول له :
— قم يا أصمعى وافعل أنت ذلك .

فقام خفيفا كمعاده وأكب على الفرس يأخذ بأذنيه ويمسك
بناصيته ، ثم شرع يذكر اسم كل عضو مستشهدا على ما يقول
بشعر يحفظه حتى بلغ حافر الفرس والمجتمعون فى ذهول ، حتى
إذا انتهى صاح الفضل :

— خذ الفرس فهو لك !
وانقض المجلس ، فخرج الأصمعى يمتطى صهوة الفرس ،

وأبو عبيدة راجل يتميز غيظا ويستشعر الهوان . غير أن هذا
الاحساس تضاعف حين التقيا في اليوم التالي عند الحسن بن سهل ،
وكان قد سبقهم اليه بعض ضيف أمس . ولما لم يكن الحسن قد
فرغ من عمله المقرر فقد انصرف عنهم بعض الوقت ينظر في رقاع
الناس ويوقع عليها ثم يدفعها الى الخازن ، حتى قضى في خمسين
رقعة وعاد الى ضيوفه يقول :

— قد فعلنا خيرا ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور
الناس والرعية ، فلنأخذ الآن فيما نحتاج اليه .

ثم راحوا يفيضون في ذكر الحفاظ فعرضوا للزهرى وقتادة
وغيرهما ممن يشهد لهم بدقة الرواية وسعة الدراية ، وهنا قال
أبو عبيدة في خبث :

— ما الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وبالحضرة ها هنا
من يقول انه ما قرأ كتابا قط فاحتاج الى أن يعود فيه ولا دخل
قلبه شيء وخرج عنه !

وأسرع الأصمعي يقول :

— انما يريدني بهذا القول أيها الأمير ، والأمر في ذلك على
ما حكى وأنا أقرب اليه .. قد نظر الأمير في خمسين رقعة واني
لأعيد ما فيها وما وقع به على كل رقعة رقعة .

ودهش الضيف ، ولم يملك الحسن الا أن يأمر بالرقاع
فأحضرت ، فقال الأصمعي :

— الرقعة الأولى عن ضيعة بسكة شيخ بن عميرة تحيفت
فخرت ، وصاحبها زيد بن منصور الثقفي ، ووقع له الأمير

بتأجيل خراجها الى العام المقبل بعد حذف العشر الذي يؤخذ
بعد النصف .

وتنظر في الرقعة فاذا هو لم يكذب فيها شيئاً ، فلما كانت
الرقعة الثانية لم يتمهل الأصمعي ليفكر بل قرر ما فيها مسرعاً بين
بصر الحاضرين ودهشهم . وهكذا مرّ في أربعين رقعة ونيف ،
فوثب اليه نصر بن عليّ الجهضمي وصاح :
— أيها الرجل ... ابق على نفسك من العين !

أول درس

وبينما كان يحيا هذه الحياة ، راح أبو عبيدة يتواري حتى عن بلاط البرامكة ، وحرص هؤلاء على أن يقرروا — بتقربهم إليه هو — أن شيئا لم يفجهم في أبي عبيدة ، وان داهمه الأصمعي لم تدهمهم قط .. فجعفر البرمكي يذكره للرشيد ، ومروان بن أبي حفصة شاعر القصر يلهج بتفوقه ، ويعقد معه أواصر الصداقة اسحاق بن ابراهيم الموصلى بل يوافقه على كثير من آرائه في الشعراء قديمهم ومحدثهم على حد سواء .

وكان أبو يوسف القاضي الذي اعتاد أن يجعل مجلس الغناء عند الخليفة الى درس وعظ تسيل فيه الدموع ، يجد فيه سندا لأنه كان ينصرف عن هذا الضرب من الحياة .

وشهد الأمير سعيد الباهلي أن العلم اذا لم يقصر على ابن عمه — يعنى الأصمعي — ولم يختص به فقد أصاب الذكاء كله والحفظ كله ، وليس لذلك منشأ الا أرومته ، أليس هو من باهلة ؟

قد يضحك هذا وقد يثير ، الا أن المجتمع الذي يقبل على تمرد الغرائز ويشجع اللهو كان يفسح السبيل لأكثر من عالم

كالأصمعى .. فهو يعيش فى تناقض خطير ، ومن ثم لا عجب أن تكون هناك جماعتان من المتفرجين على هذا الكهل الشاب وهو يتسلل الى قلب الرشيد ؛ احدهما تخشاه لأن له ميولا تعتبر معاول هدم لما يشيدون من صروح ، والأخرى تدعو له لأنه كسب لأرض جديدة فى ميدان المعركة التى شنتها الشعوبية .

واشتد الهرج والمرج بعد أيام فى بلاط الرشيد بالركة ، فقد كان كل من فيه ينتظر بفارغ الصبر امتحانا جديدا لعالم البصرة . وأحس الأصمعى أنه يوشك أن يرتجف برغم شجاعته ، غير أنه كان شديد التلهف على لقاء منافسيه وحاسديه ، ولم تصدمه رؤيته لأبى عبيدة ولا للمفضل الضبى ولا للكسائى بل شعر على العكس بأن وجودهم قد يفيد على نحو من الأنحاء .

ولم يخيب هو ظنون منتظريه وشاديه .. لقد كانت ثقته بالغة ، وراعهم منه بساطته وخفته ، وشحوب جلده وعيناه الحادتان ، وبادره الرشيد يقول مبتسما :

— يا أصمعى كيف أنت بعدنا ؟

فأجاب وهو ينظر نحوه :

— والله ما لاقتنى بعدك أرض يا أمير المؤمنين .

فتبسم الخليفة ولم يقل أحد شيئا ، حتى اذا حان وقت الرحيل الى بغداد وهم هو بالانصراف مع المنصرفين استبقاه الرشيد وصاح :

— يا غلمان خذوا علينا الباب وأعدوا الطعام .

ثم أخذ بيد الأصمعى وأدخله فى مجلس آخر فاذا مائدة قد

نصبت وعليها كل ما لذ وطاب ، وشرع الستيرات من نواح شتى
بألوان من الغناء الرصين ، غير أن الرشيد يقول له فجأة :
— ما معنى قولك « ما لا قتني أرض » يا عبد الملك ؟
فأجاب :

— ما استقرت بى أرض كما يقال فلان لا يليق شيئا أى
لا يستقر معه شيء .

فتبسم الرشيد وقال بهدوء :

— هذا حسن ولكن لا ينبغي أن تكلمنى بين يدي الناس
إلا بما أفهمه ، فإذا خلوت فعلمنى .. فانه يقبح بالسلطان أن لا يكون
علما لأنه لا يخلو اما أن أسكت واما أن أجيب ، فإذا سكت فيعلم
الناس أنى لا أعلم اذ لم أجب ، وإذا أجبت بغير الجواب فيعلم من
حولى أنى لم أفهم ما قلت .

وأحسن الأصمعى انه أخطأ فانقيض ، غير أنه وهو يرى انه
يتعلم أشياء جديدة يفرضها عليه الوضع الجديد أدرك أن هذا
الخليفة الذى يروون عنه ما يروون أكثر الناس حبا فى التعلم
والإفادة . فأطرق وهو يتمتم بكلام كأنه يعتذر ، فقال الرشيد :

— لندع هذا يا عبد الملك فأنا وجهت اليك بسبب جاريتين
أهديتا الى قد أخذتا طرفا من الأدب وأحببت أن تبور ما عندهما
وتشير فيهما بما هو الصواب عندك ...

وصمت قليلا ثم صاح بعلمانه :

— ليمض الى عاتكة فيقال لها أحضرى الجاريتين .

فحضرت وبهما الجاريتان ، وتبين الأصمعى من حديث عاتكة

مع الرشيد أنها على قدر مدهش من الثقافة ، غير أنه أخذ بجمال
الجارتين وانشأ يتفرس فيهما وهما تغضان عنه النظر ، فلما أشار
الرشيد اليه أن يبدأ معهما قال لاحداهما :

— ما اسمك أنت ؟

فأجابت :

— لباب !

هكذا ببساطة ، فاذا الجارية التي ملأته اعجابا تثير فيه
كوامنه ، ويرى فيها ذكرى قديمة ، وكان أمرا صيانيا حقا أن
يهتنر ويستسلم للحظة ضعف ، فلما تطلع نحوه الرشيد مستفسرا
قال لها وهو يريد أن يترفق بها :

— فما عندك من العلم .

قالت :

— ما أمر الله تعالى به في كتابه ثم ما تنظر فيه من الأشعار
والآداب والأخبار .

فأنشأ يسألها عن حروف من القرآن فأجابته كأنها تقرأ في
عينيه الجواب ، ثم سألها عن النحو والعروض والأخبار فما قصرت ،
فصاح :

— بارك الله تعالى فيك فان كنت تقرضين من الشعر فأنشدينا

شيئا ! فاندفعت في هذا الشعر

يا غياث البلاد في كل محل ما يريد العباد الا رضاكا
لا ومن شرف البلاد وأعلى ما أطاع الإله عبدا عصاكا

فاتجه الأصمعي بقوله للخليفة :

— ما رأيت امرأة في مسك رجل مثلها !
وسأل الأخرى وقد فتر ، الا أنه كان أقسى عليها قليلا فبدت
آمام الجميع دونها ، فقرر ذلك ثم أضاف :
— الا أنها ان ووظب عليها لحقت لباب .

فقال الرشيد على الفور :
— فلتصلح هذه التي وصفها بالكمال لتحمل الى الليلة ،
وأما هذه فتأخذها عاتكة .

وهب واقفا يهمس لأحد خدمه بشيء فانصرف النساء ، وأراد
الأصمعي أن يمضي فقال له الرشيد :

— انتظر يا عبد الملك فأنا ضجر ، وهأنذا أجلس أحب أن
أسمع حديثا أنفرج به .

فقال الأصمعي :

— لأي الحديث يقصد أمير المؤمنين ؟

فأجاب :

— لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس وطرائف أخبارهم .
فانطلق الأصمعي يقول :

— كان صاحب لنا من البدو أغشاه وأتحدث اليه ، وقد أتت
عليه ست وتسعون سنة أصبح الناس ذهنا وأجودهم أكلا وأقواهم
بدنا ، فغبرت عنه زمانا ثم قصدته فوجدته ناعل البدن كاسف
البال متغير الحال فقلت له « ما شأنك ، أأصابتك مصيبة ؟ » قال
« لا ! » قلت « فمرض عراك ؟ » قال « لا ! » قلت « فما سبب
هذا الذي أراه بك ؟ » .

فقال : « قصدت بعض القرابة فألفت عندهم جارية قد لاثت
 رأسها وطلت بالورس ما بين قرنها الى قدمها وعليها قميص وقناع
 مصبوغان وفي عنقها طبل توقع عليه وتنشد :
 محاسنها سهام للمنايا مريشة بأنواع الخطوب
 يرى ريب المنون لهن سهما يصيب بنصله مهج القلوب
 فأجبتها :

قفى شفتى فى موضع الطبل ترتعى
 كما قد أبحت الطبل فى جيدك الحسن
 هبى عودا أجوفا تحت شنة
 تمتع فيما بين نحرى والذقن
 فلما سمعت الشعر منى نزع الطبل ورمت به فى وجهى
 وبادرت الى الخباء ، فلم أزل واقفا حتى حميت الشمس على مفرق
 رأسى لا تخرج ولا ترجع الى جوابا فقلت أنا والله معها كما
 قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطال اقامتى على غير شىء يا سليمى أراقبه
 ثم انصرفت سخين العين قرح القلب ، فهذا الذى ترى من
 التغير هو من عشقى لها .
 وسكت الأصمعى باتتهائه من قصة البدوى ، فقال الرشيد
 ضاحكا :

— ويحك يا عبد الملك ابن ست وتسعين سنة يعشق ؟
 فقال الأصمعى :
 — قد كان هذا يا أمير المؤمنين .

فنادى يستدعى الفضل ، فلما مثل قال له :

— أعط عبد الملك مائة ألف درهم .

وكانت مفاجأة مذهلة ، ثم كان أن فوجيء ثانية وهو ينصرف .

اذ أقبل عليه خادم يصحب جارية تحمل شيئاً في يدها وتقول :

— أنا جارية لباب وهى تقرأ عليك السلام وتقول لك ان

أمير المؤمنين أمر لى بألف دينار وهذا نصيبك منها .

وتناول منها ما تحمل فاذا المال ألف ، واذا هو منشرح الصدر ،

ويسمعها وهى تمضى عنه تقول :

— هى تقول لن تخليك من المواصله بالبر أبدا .

على غير موعد

انسجم الرجلان معا .. الرشيد والأصمعي وكلاهما طامح غنى بمواهبه ، واغتنب الفضل بن الربيع حين وجد رجلا من غير الحمراء يحتفظ على الرغم مما يدبر له في الخفاء بمكانة رفيعة في القصر ظهر فيها على كل من الكسائي مؤدب محمد واليزيدي مؤدب عبد الله ، وكان هذان الرجلان على قدر كبير من العلم ولكن يعوزهما دائما اخلاص الأصمعي وحضور بديته .. هما حفظا ليبرا سامعيهما ، وحفظ الأصمعي ليؤدي رسالة ، وكان الرشيد على علم تام بذلك الفرق !

ويعلم أيضا أن سميده ومعلمه أقل الناس غرورا وأزهدهم في التألق حتى رمى بالبخل . والأصمعي من جانبه الذي كان يتوقع أن يراه ماردا ضخم الجثة كخادمه سرور يكتشف فيه انسا نا رقيقا شديد الاحساس بحاجة الغير ، ثم يضعف أمام الكلمة الطيبة ، وذلك أمر كان يكلفه كثيرا .

لقد انتهك يحيى البرمكي وأبناؤه أوضاعا كثيرة في المجتمع ، فلم ير في فعلهم ما يضير ، بل كان يدعو لهم بالتوفيق والسداد . ولولا ما كان يأخذ به نفسه من حزم يدعو له ابن الربيع لأشفي

على الهلكة والقناء ، ولكن الله حافظه ما كان يعمل لخير
هذه الأمة .

كان الرشيد يرى في آل برمك مبعث رضى ، وكان الأصمعى
وهو ينظر بعينه وعين ابن الربيع يرى فيهم أداة هدم تنتظر اللحظة
الحاسمة .

وكان الرشيد الانسان الكريم يكبرهم ويتحدث عنهم بعطف ،
وكان الأصمعى يحذرهم ويحصى خطواتهم ، ويحجم عن مجالسهم
ما كان هناك سبيل الى الاحجام . قال مرة « اتنى لا أستطيع أن
أستقر على رأى فىهم ، ولكن من المؤكد أنهم شياطين » .

وكانت مناقشاته مع الفضل بن الربيع تتمخض عن نتائج
عجيبة ، غير أنها لم تمنعها من أن يصانعاهم ثم يضعاء عيونا لهما
عليهم ، وقد يكون العين لكاتب أو لحارس أو لجارية من
جوارهم !

وهكذا تمر الشهور والسنون .

وذات يوم يجلس الخليفة الى أصحابه و ينتظر الأصمعى
فلا يدخل ، ويتحدث المتحدثون فى الشعر فيسأل الرشيد عن
صدر هذا البيت :

ومن يسأل الصعلوك أين مذهبـه .

فلم يعرفه أحد ، ويحاول الجميع عبثا أن يشحذوا أذهانهم ،
حتى اذا غلبوا على أمرهم راحوا يتساءلون :
— أين الأصمعى ليحيب ؟

أجل أين الأصمعي ؟ ويسأل عنه الرشيد ، فينبري اسحاق
الموصلى قائلا :

— انه مريض ، وأنا أمضى اليه فأسأله .

ويطرق الخليفة مليا ثم يقول :

— احملوا اليه ألف دينار لنفقته واكتبوا في هذا اليه .

وأعد المال فحملة رسول مع السؤال في كتاب ، قاصدا دار

الأصمعي .

فرد هذا الجواب على رقعة يقول فيها « أنشدنا خلف لأبي

النشاش والنهشلى :

وسائلة أين الرحيل وسائل

ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

الآيات .. » غير أنه لا يمضى الا قليل على رجوع الرسول

حتى يدخل هو بنفسه متماسكا وفي عينيه آثار سهاد ، فيقبل

الرشيد عليه حفا ويدنيه منه ، ويروح هو يتفقده أهل المجلس .

فاذا هم جعفر البرمكى ، وابن الربيع ، وأبو يوسف القاضى ،

وأبو عبيدة ، والكسائى ، واليزيدى ، والعباس بن الأحنف

الشاعر ، وغيرهم ممن يعرف وممن لا يعرف .

أكان من الضرورى أن يقبل فى هذه الساعة ؟

انه مريض حقا ، ولكن اجتماع هذه النخب فى تلك الساعة

ينبغى ألا يفوته ، ومن ثم شد عزمه وتأهب لكل طارئ . فلم

يكن الا لحظات حتى أدرك فيما كانوا يتحدثون ، فتناول طرف

الحديث منهم وقال :

— قال أبو عمرو بن العلاء « أفصح الشعراء ألسنا وأعربهم
أهل السروات وهن ثلاث ، وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى
اليمن : فأولها هذيل وهى تلى الرمل من تهامة ، ثم على السراة
الوسطى وقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الأزد أزد
شنوءة وهم بنو الحرث بن كعب بن الحرث بن نصر بن الأزد .
وسكت ليستريح ، الا أن أبا عبيدة أحس أنه تنكب الجادة
فقال :

— ليس هذا ما نريد يا أصمعى ، وأنا أقول افتتح الشعر
بامرىء القيس وختم بابن هرمة .. فالشاعر امرؤ القيس !
فقال يونس :

— ولكنى أرى أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد ..
انما هو كلام وأجودهم كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره
شئ يستطيع أحد أن يقول لو كان مكانه غيره كان أجود .
قال أبو عبيدة :

— لست أرى هذا تماما فالشاعر انما كان يقول من الرجز
البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى
كان العجاج أول من أطلقه وقصده وشبب فيه وذكر الديار
واستوقف الركاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب
ووصف الراحلة كما فعل الشعراء بالقصيد ، فكان فى الرجز
كامرىء القيس فى الشعراء وليس هو أشعر الشعراء .
وهنا يتدخل الرشيد ويقول فى مزح :

— أتقولون هذا والأصمعي لا يتكلم ؟ انه والله شيطان

الشعر !

فقال :

— سلوني أجب .

قال جعفر :

— قل لنا أبا سعيد أى بيت تقول العرب أشعر ؟

فأجاب مسرعا :

— الذى يسابق لفظه معناه .

وسأل الكسائي :

— وماذا تقول فى شاعرين يتفقان فى المعنى الواحد ولم يسمع

أحدهما قول صاحبه ؟

أجاب :

— عقول الرجال توافت على ألسنتهما .

ثم أخذ الأسئلة على هذا النحو تتعاوره فيجيب وينشد ،
حتى يعلن الرشيد أنه فضلا عن حفظه الشعر يقوله فيبدع حتى
يعجز بعض الشعراء ، وهنا يحس العباس بن الأحنف كما لو أنه
قصد بهذا التعريض فيقول :

— يا أمير المؤمنين قد عملت شعرا لم يسبقنى الى معناه أحد

ثم أنشد :

إذا ما شئت أن تبصر	شيئا يعجب الناسا
فصورها هنا فوزا	وصور ثم عباسا
ودع بينهما شبرا	فان زاد فلا باسا

فان لم يَدْنُوا حتى ترى رأسيهما راسا
فكذبه .. وكذبها بما قاست وما قاسى
فتطلع الرشيد الى الأصمعى فقال على الفور :
— يا أمير المؤمنين قد سبق اليه .
فقال له :

— هات !

فأشدد :

لو أن صورة من أهوى مثلة
وصورتى لاجتمعنا في الجدار معا
إذا تأملتنا ألفيتنا عجا
الفان ما افترقا يوما ولا اجتماعا
وبهت العباس ولكنه صاح قائلاً :

— والله يا أمير المؤمنين وحق رأسك ما سمعت بهذين البيتين .
فأعرض الرشيد عنه يسمع الى مشكلة أثارها أبو يوسف
القاضى .. فهل يقال أمات بدل أمهات أم أن الصواب واحدة
منهما ، فقال اليزيدى :

— الأمهات للأدميين والأمات للبهائم .

فقال الأصمعى :

— معاذ الله أما سمعتم .

قوال معروف وفعاله عقار متنى أمهات الرباع

ثم راح ينشد في أمات الأدميين وأمهات البهائم ، حتى قال
الرشيد :

— حسبك .. حسبك !

فصاح الرشيد :

— أزيده لو كان يريد وانما كان ينبغي أن يسأل في غير

هذا يا أمير المؤمنين .

فالتفت أبو يوسف إليه وقال :

— في أى شيء مثلاً ؟

فأجاب :

— في الفرق بين عقلت القليل وعقلت عنه .

وسكت ولم ينبس أحد ، فهز أبو يوسف كتفيه وقال له

بهدوء :

— قد كنت أظنك للشعر فقط ، أما أنك تتصدى لما قد يزيدنا

غناء فافعل باذن الله .

فقال الأصمعى وهو يتسم برفق :

— عقلت القليل اذا أدبت ديته وعقلت عنه اذا ألزمته دية .

واضطجع الرشيد مرتاحاً مسروراً ! ولكن الأصمعى وهو يتفقد

الوجوه ليرى وقع كلامه لمح العباس بن الأخنف لا يزال كاسفاً

وأحسن كأنما الدموع تريد أن تطفر من عينيه فخشى أن يكون

سبياً في حرمانه من عطاء الخليفة فاتجه إليه قائلاً :

— أتعفو يا أمير المؤمنين !

أجاب :

— ما كان للعفو سبيل .

فقال وهو يشير تجاه العباس :

— صدق والله ابن الأحنف وأنا عملت البيتين الساعة !
وضحك الرشيد حتى استلقى وضحك المجتمعون ، ولكن
الكسائي كان طوال هذه المدة صامتا فلما عن له أن يخوض فيما
يخوض فيه القوم قال للخليفة :

— جاء دورى أنا يا أمير المؤمنين فأسأل الأصمعى .

فتساءل الرشيد :

— فيم يا على ؟

فأجاب :

— فى الشعر .

فصاح الخليفة :

— يا على اذا جاء الشعر فاياك والأصمعى .

فقال الأصمعى :

— بل أسأله أنا فى اللغة .. أتدل على معنى قول الراعى .

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما

ودعا فلم أر مثله مخذولا

فتضحك الكسائي بسخرية وقال :

— كان محرما بالحج .

قال الأصمعى :

— فقول الشاعر

قتلوا كسرى بليل محرما

فتولى لم يمتنع بكفن

هل كان محرما بالحج أيضا ؟ خذها عنى قوله الأول محرما أى فى

حرمة الإسلام ، ومن ثم قيل مسلم محرم أى لم يحل من نفسه شيئاً يوجب القتل ، وقوله محرماً فى كسرى يعنى حرمة العهد الذى كان له فى عتق أصحابه .

وانصرف أهل المجلس مودعين ، حتى اذا كانوا على الطريق فطن أبو عبيدة الى أن الأصمعى لا يركب الا رجليه فصاح :
— وأين فرس الفضل يا أبا سعيد ؟

فأجاب :
— والله انه ليكلفنى ما لا أطيق فاشتريت بضمنه ثلاثة حمير .
فقال :

— وأين هى ؟

فأجاب :
— وجدتها جعلت فداك على ما قالت ابنة الخس عازبة الليل وخزى المجلس فلا لبن فيحتلب ولا صوف فيجتز ، فبعثها لأتنفع بضمنها !

ولي العهد

دخل الحجرة على الأصمعي فاذا هو شخص رآه قبل .. منذ بعيد ، من هو ؟ ليث الأسدى ، أليس كذلك ، وأين كان ؟ وراح يخرج من صدره قرطاسا كهذا الذى بعث به ابن الربيع اليه وهو فى البصرة .. ولكن عينيه ، هاتين العينين العميقتين الداكنتين ، انهما تنبأته عن ..

— من أنت يا ليث ؟

فقال :

— أنت هو من تخاطبه .

قال الأصمعي :

— ولكنك شخص آخر ، قل !

فضحك ليث وصاح :

— ما عليك منه ، ألك قبله دين فتريده أم

فقاطعه الأصمعي :

— أنت اسماعيل بن صبيح ، أجل هو أنت مهما تحجل أمامى

وتغير من هيأتك .. فما وراءك ؟

واسماعيل هذا كاتب فى ديوان البرامكة .. مولى من الموالى

ولكنه ينحرف عن بنى جلدته ، ويكره يحيى بن خالد منذ حاول أن يؤخر النوروز ليوافق موعد الجباية نضج المحصول ، فرأى اسماعيل في هذا عودة للمجوسية واساءة للاسلام ، وكان أول من فاتح ابن الربيع في هذا الأمر واذاعه في الحرم .. فأرغت أم جعفر وأزبدت ، وأثارت بنى هاشم !

قال اسماعيل :

— كان يجدر بى أن أتصل بابن الربيع ولكنه مع الخليفة في رحلة الصيد وصحبهما الفضل قبل أن يسافر الى خراسان ، ولكن جعفر أخاه يدبر شيئا قد يحسن بابن الربيع أن يبلغه عن طريقك ، فقد لا يتاح لى أن أراه قبل أن تراه ألت لأنى راحل من غد . ولم يكن الأصمعى يتوقع كثيرا ، فمد يده الى اسماعيل يريد أن يأخذ القرطاس ، ولكنه لم يقدمه وقال :

— مهلا يا أبا سعيد مهلا ، فقد ينبغي أن تعلم أولا أنه صورة من كتاب أرسله جعفر البرمكى لصنائه في البلاد يحضهم فيه على ما جئت من أجله .

فتقبل الأصمعى هذا الكلام بلا تعليق وقال :

— ثم ماذا ؟

أجاب اسماعيل :

— ثم ينتهى الأمر الى عبد الله بن مراجل ! وصمت . فأحس الأصمعى أن وراء هذا الكاتب شيئا خطيرا ، والحقيقة أنه وإن لم يخبر بما يدبر جعفر البرمكى فقد أيقن أن مجرد ذكر اسم الأمير عبد الله بن مراجل — جارية الرشيد

الفارسية التي أصبحت زوجه — ينطوى على مؤامرة ترمى الى
الاطاحة بنفوذ بنى هاشم المثل في محمد الأمير الصغير ابن زبيدة.
واستخلص أنه مهما يكن لون المؤامرة فهي لا يمكن أن تخرج
عن اغراء الرشيد على أن يبائع بولاية العهد لابنه عبد الله ، مع
أن النية كانت متجهة دائما الى أن يبائع لابنه محمد .. كان هذا
معروفا على الرغم من أن الرشيد نفسه كان يتوسم النجاسة في
عبد الله ويقول برغم صغر سنه :

— والله انه لجدير بهذا الأمر ، ولكن أين أنا من آل هاشم
الميامين ؟

وقال الأصمعي في ألم :

— ألم يمكنك ايفاد رسول الى ابن الربيع يا رجل ؟

فمال اسماعيل الى أمام وهو قبالة وهمس :

— ليس ايفاد الرسول بالأمر اليسير يا أبا سعيد ، والا فما

الذي دعاني الى أن آتيك متنكرا أمام عيون البرامكة ؟ ومع ذلك

فقد بلغت وسأرحل غدا مع سعيد الحرشي لنجبي بقايا خراج

الموصل .

قال الأصمعي شاردا :

— أتعلم بهذا أم جعفر ؟

أجاب اسماعيل وهو يقدم القرطاس :

— أكبر الظن لا .

وانصرف ، فوجد الأصمعي نفسه في دوامة ، ورأى آماله

توشك العاصفة أن تقتلعها وقد ظل سنوات يرعاها ويسهر عليها .

فإن يكن الفضل البرمكى يكتب مثل هذا الكتاب (وفضه ليقراً ما جاء فيه) فلا بد أن تكون هناك كتب أخرى نبعث بها نحن لرجالنا .

وابتسم فى مرارة وهو يرى نفسه يتكلم بلسان الجماعة العربية .. سلم الباهلى ويزيد بن مزيد الشيبانى والفضل بن الربيع وأم جعفر زبيدة وأخوها عيسى بن جعفر ، ثم بنى هاشم أخوال الأمير محمد .

فهل ثمة سبيل الى واحد من هؤلاء ؟

هل من سبيل ؟

ولكن .. ثم تذكر لباب ، لباب التى امتحنها للرشيد ومنحته الألف ، أليس من الممكن أن تعينه على الوصول الى أم جعفر أم تراها تكيد له فتتصل بمراحل وتفسد التدبير كله ؟ ومع ذلك فكيف السبيل اليها بدورها ؟

وفكر فى عون حاجب الفضل بن الربيع .. فقد يستطيع أن يصل الى لباب بزوجه أو بجارية تعرفها زوجه فالأمر سيان ، الا أنه رأى السلسلة تتعقد الى حد بعيد ، ويصبح الأمر الى حرم الرشيد أعصى عليه من الوصول الى الرشيد نفسه ، وقال لنفسه ان العقبة الكبرى أن الفضل البرمكى يستأثر بعقل أمير المؤمنين كما يستأثر جعفر بقلبه .

لكن الأصمعى مال أخيراً الى التحفظ فى تخوفه ، وأخذ من جديد يقلب وجوه الرأى حتى انتهى الى ضرورة مفاتحة اليزيدى .. فقد يستطيع أن يدلّه على شيء يخدم تلميذه الذى

يوشك أن يطاح به ، فسعى اليه في الجامع ولكنه لم يجد منه ما كان يطمح فيه وأنشأ يجيب اجابات غامضة . وكل ما قدره في هذا الصدد أنهم — يقصد البرامكة — يعملون في الوقت الحالي على حماية عرش الرشيد بعد أن بدأ الخوارج ضرباتهم فأرهمقوا يزيد بن مزيد ، وفي الوقت نفسه أخذ الروم يتحركون جهة الثغور فقال الأصمعي :

— ان هذا لا يعنى جديدا .

قال اليزيدي :

— ماذا تقصد يا أبا سعيد ؟

فأجاب الأصمعي :

— ان هذا الذي يتمسك أمام العامة بأسباب العدل حتى

يظفر بقلوبهم وتعلقوا هم به ، لأكثر شرا عليهم من الخوارج والروم .. ان هؤلاء الذين اجتمعوا حول دار يحيى بن خالد يصيحون له حتى أثاروا الرشيد فصاح « بارك الله عليه وأحسن جزاءه » هؤلاء لن يجدوا منه غدا إلا الهلاك الكبير .

تعبسا لك .. تعبسا لك !

ومضى عنه منكسرا يفكر ثانية ، غير أن تفكيره لم يصل به الى شيء . ومضى يوم ويومان وأسبوع ، ثم رجع الرشيد فلم يلبث الأصمعي أن طير النبأ لابن الربيع ، وفي المساء عقد أول اجتماع خاص في القصر بشأن ولاية العهد .. سمع الأصمعي أم جعفر نفسها تتكلم فيه من وراء الستار !

وفي الاجتماع الثاني دعا الرشيد يحيى بن خالد واستشاره

فحبذ عقد البيعة للابن الأكبر — عبد الله — غير أن الفضل
ابن الربيع كان له بالمرصاد فلم يلبث أن أشار عليه باعطاء العهد
لمحمد ويلقبه الأمين — و ينتظر حتى يكبر ويكبر أخوه عبد الله ،
ومتى ظهرت الفوارق بينهما عقد الولاية ثانية للصالح منهما .
وأعلن نبأ الاتفاق فكان رجحانا لكفة العرب ، واعتبروا
عام ١٧٥ نصرا على الشعوبية لهج به كل الشعراء ، حتى هؤلاء
الذين آثروا آل برمك بمدايحهم . وكان سلم الخاسر — شيخ
الشعراء اذ ذاك — قد أنشد :

قد وفق الله الخليفة اذ بنى

بيت الخليفة للهجان الأزهر

فهو الخليفة عن أبيه وجده

شهدا عليه بمنظر وبمخير

قد بايع الثقلان في مهد الهدى

لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وليت عهد الأنام وأمرهم

فدمغت بالمعروف رأس المنكر

فتبعه كثيرون .. بل فوجيء الأصمعي بالشاعر نفسه يمدح

الفضل بن الربيع بلا مناسبة في قصيدة يذكر فيها أنه جبر الاسلام
يوم وهى ، وأنه بنى رواق مجد مده على العباس ! وقدم أبو العتاهية

من الكوفة وأبو نواس من البصرة يسهران في العيد ويملآن غبطة
سماء بغداد .

وفي هذه الأثناء يعود سعيد الجرشى من الموصل ، ويوافي
باب الرشيد بمال عظيم . فيأمر بصرفه على الناس ، وتكون ثمة
مقارنة ما يعطيه هو وما يعطيه آل برمك !

يوم الشبج

وحج الرشيد فحج معه الأصمعي ، وكان في موكب اجتمع فيه الحرم وأقطاب الجد والهزل .. يضع حلة جميلة ويرك برذونا من برازين الخلافة ، ولم يكن أحد أقرب الى الخليفة منه .. فلا يكون ثمة منتجع الا روى فيه الأصمعي خبرا أو أنشد شعرا ، ولا تأتي ليلة الا ملاءها سمرا ونوادر .. يتردد بها صوته ، فتنهو اليه الأسماع .

فهو مرة يصطنع لهجات البدو الذين يحكى عنهم ، وهو يقع على اصطلاحات القبائل التي يعرض لها ، وهو مرة أخرى يكاد يغنى الشعر الذي يلقيه فيثير اعجاب الجميع حتى كبار الشعراء الذين كانوا في الموكب كسلم وأبى العتاهية ، وقد فطن الرشيد الى هذه الظاهرة فقال :

— الأصمعي أعذب من تحدث وأنشد .

وقد كان هذا سببا في تحريك ضغينة السمار عليه ، وفي مقدمة هؤلاء اسحاق الموصلي الذي كان يحاول عبثا أن يباريه في المذاكرة ، وهو مع ذلك يخلو به ليناشده القصيد ويحفظ عنه !

وتم كل شيء في الحج على النحو المرسوم ، غير أن شيتين
وقعا فكافا نشوزا في تلك الرحلة السهلة .

أولهما امساك يحيى البرمكى بحاجات الحرم فضيق عليهن
وأثار بتضييقه زبيدة ، وقد اشتكت الى زوجها فاستدعاه وهو
عاتب فقال له يحيى بهدوء :

— أمتهوم أنا في حرمك يا أمير المؤمنين ؟

قال الرشيد يجيبه :

— لا والله ولكن ..

فقاطعه يحيى بحنان رقيق وهو يقول :

— لا تقبل قولها على ودعنا الى ما هو أهم ، فقد تمت بيعة

اهل خراسان للأمين .. هكذا أرسل ولدى الفضل هذه الساعة !

وأما الشيء الثانى فقد كان أكثر ايلاما على قلب الأصمعى

من غيره ، وتذكر به أول درس تلقاه على يد الرشيد في مخاطبة

الملوك . واعتبر أنه قد يكون درسا ثانيا يلقى فيه ما يفيد وان

يكن فيه ما يبعث على الأسى ، سأل الرشيد عن مسألة فأسرع

يقول :

— على الخير سقطت يا أمير المؤمنين .

فصاح :

— أسقطك الله على رأسك !

وكانت قاسية ضحك لها أهل المجلس ، فأحس الأصمعى أنه

أشبه بالطائر لا يستطيع أن يغرد الا وهو خارج قفصه ، وما كان

ما يرسله الا بعض ما ينبغى أن يرسل .. حقا فتحت له أبواب

المؤانسة ، وحقا تمكن من قلوب الجميع ، غير أنه في حاجة الى أن ينطلق فكان أن تخلف عن الموكب في البصرة .

ومضى عام قضاه في التحصيل والتأليف والتردد على المسجد يعقد فيه مثل حلقاته الأولى ، وزار بناته ثم التقى بابن الأعرابي فسأله عن أهله فلم يشف غليله بشيء ، ولكن رسولا يفد عليه من مدينة السلام ويقول له :

— أمير المؤمنين يأمر بحملك على دواب البريد .

فجهز على الفور وحمل اليه ، وما دخل يسلم عليه بالخلافة حتى أوماً اليه أن يجلس وهو يقول :

— لا حسن لدنيا لا يكون فيها مثلك يا أصمعي .

غير أنه لاحظ أن جعفر بن يحيى قد رفع كل أسباب التكلف بينه وبين الرشيد حتى راح يتكلم باسمه ، وأدرك أنه غلب عليه غلبة لا تخفى على أحد ، فتوجس حتى انصرف الناس فقال الرشيد لهما جزلا :

— الآن اكملت بكما سعادتني .. ألا تريان !

وأخرج كيسا فاذا هو مليء بدنانير نقش عليها اسم جعفر ، فتوهجت عينا البرمكي وأمسك بقطع النقد ينظر فيها بامعان . ثم خرج وهو يبدى اعتذاره ، وأما الرشيد فقد قال :

— انه كريم حلو المعشر ، بعكس أخيه الفضل .. انه الفضل حاكم متسلط ولكنه يصلح حال الرعية وقد أمر باشعال القناديل في المساجد .. انه عاد من خراسان ، وسينفق هنا أياما .
كان يتكلم بسرعة ، كطفل استخفه الطرب ، ولكن الأصمعي

استشعر أنه قلق ولم يكن أدل على ذلك القلق من قوله فجأة :

— ألا تحب أن ترى وندي محمدا وعبد الله ؟

فأجاب قائلا :

— بلى يا أمير المؤمنين .

فدعا بهما فأقبلا غلامين صغيرين يسلمان على أبيهما بالخلافة ،

ثم جلسا بأدب . فأمره الرشيد بمطارحتهما الأدب ، ففعل . حتى

إذا انقضى بعض الوقت قال الرشيد :

— كيف ترى أدبهما ؟

فأجاب :

— يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلهما بذكائهما .

فضمهما الى صدره وأمرهما بالذهاب ، ثم التفت نحوه وفي

عينيه عبرة وقال :

— يا أصمعي .. كيف بهما اذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما

ووقع بأسهما بينهما حتى تسفك الدماء ويود كثير من الأحياء

لو أنهم كانوا موتى ؟

فلم يجب لأنه لم يكن يعرف ما السبيل الى الاجابة ، الا أنه

أصبح على يقين أن أشياء كثيرة حدثت في القصر خلال العام الذي

أنفقه في البصرة ، وأن أمير المؤمنين لا يهنا بما يهجن في نفسه من

هواجس . فلما تكلم كان يريد أن يقطع فترة الصمت لا أكثر ،

ولذلك كان سؤاله الرشيد يبدو غريبا .

— وهل بينهما شيء يا أمير المؤمنين ؟

وهز الرشيد رأسه وهمس :

— انهما يكرهان بعضهما البعض .. يبدو أن هناك أيدي تحرك فيهما الضعيفة ، ربما كانت أم جعفر وربما كانت الأخرى ولكني قررت شيئا لن أعدل عنه .. ان الفضل نفسه يرى ما رأيت ، وقد أجمع العام الماضي كلمة الخراسانيين على الأمين . وفجأة تغير الرشيد .. طفح وجهه بشرا ، وهب واقفا وهو يصيح :

— ليحفظهما الله ، وأما نحن فلنطعم شيئا .

وسرعان ما نادى على غلامه فقدم اليه فالودجة في صحن كبير ، فالتفت الى الأصمعي قائلا :

— يا عبد الملك

فخف اليه يقول :

— لبيك يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— حدثني بحديث مزرد أخى السماخ

فقال الأصمعي :

— نعم يا أمير المؤمنين . ان مزردا كان رجلا جشعا نهما ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه وذلك مما يضره ويحفظه . فذهبت يوما في بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزردا في بيتها ، فدخل الخيمة فأخذ صاعين من دقيق وصاعا من عجوة وصاعا من سمن . ف ضرب بعضه ببعض وأكله ، ثم أنشأ يقول :

ولما مضت أُمى تزور عيالها
 هجمت على العِكم^(١) الذى كان يُمنع
 خلطت بصاعى حِنطة صاع عجوة
 إلى صاع سمن فوقها يتريع^(٢)
 ودللت أمثال الأثافي كأنها
 رؤوس رُخال^(٣) قطعت لا تجمع
 وقلت لبطنى أبشرى اليوم انه
 حمى أمنا مما تفيد وتجمع
 فان كنت مصفورا^(٤) فهذا دواؤه
 وان كنت غرثانا^(٥) فذا يوم تشبع
 وما انتهى الأصمعى من انشاده حتى استضحك الرشيد وراح
 يمسك بطنه ويستلقى على ظهره ، ثم قعد فمد يده بصحن
 الفالودجة وقال :
 — خذ .. فذا يوم تشبع فيه يا أصمعى !

(١) العكم : العدل أو الغرارة .

(٢) يتريع : يكثر ويطفو .

(٣) رخال : الرخال بالضم ويكسر جمع رخل وهو الانثى من
 اولاد الضأن .

(٤) مصفورا : يقال صفر صفرا اجتمع في بطنه الصفار وهو الماء
 الأصفر يجتمع فى البطن وقيل الدود .

(٥) غرثانا : جائعا والغرث والغارث الجائع .

إسحاق الموصلي

وعلى هذا النحو سارت حياته ... يركب مع الخليفة اذا ركب ،
ويصحبه في رحلاته للصيد ، ويلهم معه بالركة ، ويشاركه في نزوله
ببعض الثغور . وفي أثناء حروبه مع البيزنطيين كان لا يملك الا أن
يدعو بأن يكلل مسعاه في سبيل الله بالظفر ، فقد كان مفتونا
بحماسة وبشبابه وبقدرته على أن يقدم للعرب كل شيء برغم كل
ما ينتقص منه في بعض الأحيان .

أما ضعفه ازاء جعفر فثقلته المفرطة فيه ، حتى لقد عجزت زبيدة
نفسها عن منعه من مواصلته ، بل ان يحيى البرمكي يقدم عليه
ويتكلم معه في شأن ابنه المدلل فيقول :

— يا أمير المؤمنين اني أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن
ترجع العاقبة عليّ في ذلك منك ، فلو أعفيتة واقتصرت على
ما يتولاه من جسيم أعمالك ، لكان أحبّ اليّ وأولى بتفضيلك
وآمن عليه عندي !

وأما موقفه من البيزنطيين فقد كان يغذى في الأصمعي تيه
العربيّ المتسكن المتسلط وكثيراً ما ربط انتصارات الخليفة التي
كانت تتوالى على الشهور والأعوام بانتصارات غنرة .. ذلك

الشاعر الفارس الذى تسود العرب فى جاهليتهم وهزم الفرس والروم جميعا ، وان يكن مدّة لأولاء وهؤلاء يد العون أحيانا . على أن الأمر فيما يبدو لم يكن ليسير هكذا رخاء ، فقد لاحظ أن جعفرأ نفسه — وقد رأى وشائج القربى بينه وبين سلم الباهلى وروابط الصداقة بينه وبين ابن الربيع — بدأ يميل عنه ويفرى آل برمك به ، وأحس أن مقلب القط فى يد البرمكى هو اسحاق ابن ابراهيم الموصلى .

والحقيقة أن ذلك الرجل وان يكن مغنيا فى المحل الأول فقد كان قادرا على الشعر يقوله ويحفظه ويردده أمام الرشيد ، ثم يصدر بعد عن ثقافة واسعة تدهش الخليفة وتربطه به . وبدأت المنافسة بينه وبين الأصمعى بداية عجيبة ، من من الرجلين أقدر على تصيد دراهم أمير المؤمنين ؟

دخلا يوما عليه وهو حزين يفكر فيما جره عليه ولداه ، فحادثاه وراحا يرويان له من الطرائف ما يميل عليه فراغه . ثم فتح الله على اسحاق بقصيدة ، لعله كان قد أعدها قبل فأخذ ينشدها حتى قال :

وكيف أخاف الفقر أو أعدم الغنى

ورأى أمير المؤمنين جميل

فقال له الرشيد :

— لا تخف ان شاء الله !

وأمر له بخمسين ألف درهم ، ثم راح يصف شعره قائلا :

— لله در أبيات تأتينا بها وما أشد أصولها وأقل فصولها !

فصاح اسحاق :

— وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه ، فعلام

أخذ الجائزة ؟

فضحك الرشيد ثم قال :

— اجعلوها لهذا القول مائة ألف .

فدهش الأصمعي ، ولم يحاول أن يصنع شيئا خشية أن يفسره الخليفة بأنه يطمع في عطاء . غير أنه أدرك منذ هذه الساعة أن خصمه الذي يصدر ببعض ما يصدر به أبو عبيدة أحذق منه في تصيد الأموال .

ويخرج اسحاق ويحكى الحكاية متشفيا أو كالمتشفى ، ثم يتطوع بحكاية أخرى يزعم فيها أن الأصمعي حكاها له حين دخل على الرشيد بعد وعكة والرشيد في الفرش منغمس كما ولدته أمه فقال له :

— يا أصمعي من أين طرقت اليوم ؟

فأجاب :

— احتجمت يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— وأى شيء أكلت عليها ؟

فقال يجيبه :

— سكباجة وطباهجة .

فعاد الرشيد يسأله :

— هل تشرب ؟

فأجاب :

— نعم يا أمير المؤمنين :

اسقنى حتى ترانى مائلا وترى عمران دينى قد خرب
فصاح الرشيد بخادمه :

— يا مسروق ، أى شىء معك ادفعه للأصمعى .

ولم يحدث شىء من هذا اطلاقا ، أولا لأن الأصمعى نفسه
لا يشرب الخمر ، وثانيا أنه لا يمكن أن يرى الرشيد وهو عريان ،
ولا يريد بالتالى أن يظهره مزرىا بالدين داعيا غيره الى تعاطى
ما ينهى عنه الله ، ولكنها فرية أو وشاية أو شىء ثقيل تعود أن
يجابه به من اسحاق حتى يكون له فى كل يوم شأن جديد . ولقد
تعود الأصمعى بعد ذلك أن يفسر الوضع على أساس أنه ايعاز
من جانب جعفر ، وقرر أن يجعل للمعركة ميدانها الشخصى
والقومى ؛ فهو يحارب اسحاق لأنه بعض صنائع آل برمك وصورة
من صور الحمراء ، وهو يحاربه أيضا لأنه يريد أن يظهر به عند
الخليفة . ومن ثم دأب على أن يتحين الفرص ليوقع به كما يوقع
هو به ، ولكن ايقاعه به لم يكن مما يدمر ، لأنه لم يكن يجد منه
ما يجعله يعنف معه كثيرا .

وقد حدث أن خاض فيه اسحاق ، ثم سمع أن الأمير أبا ربيعة
زاره فى بيته ، فاستهدها واستمنحه مالا ؛ فلما أرسل اليه
الأمير بما طلب بعث اسحاق اليه يقول :

أليس من العجائب أن قردا أصيغ باهليا يستطيل
ويزعم أنه قد كان يفتى أبا عمرو ويسأله الخليل

إذا ما قال : قال أبي .. عجبنا
وما ان كان يدري ما دبیر
وجلله عطاء الملط عارا
نصحت أبا ربيعة فيه جهدى
فقل لأبي ربيعة اذ عصانى
لقد ضاعت برودك فاحتسبها
فما كان من الأصمعي الا أن استشاط غضبا ، ولم يجد بدا من
أن يحذو حذو اسحاق فينشد قصيدة يقول فيها :

أئن تغنيت للشرب الكرام ألا
رد الخليط جمال الحى فافترقوا

وقيل أحسنت فاستدعاك ذاك الى
ما قلت ويحك لا يذهب بك الخرق

وقيل أنت حسان الناس كلهم
وابن الحسان فقد قالوا وما صدقوا

فما بهذا تقوم التاديبات ولا
يشى عليك اذا ما ضمك الخرق

وفى هذه الأثناء يبعث اليه الفضل بن يحيى فيظن ظنونا ويرى
أنه — وهو الذى لم يكن يسيغ الاتصار الا مقرونا بالسماحة —
قد آن له أن يخرج عن هذا المبدأ فيعلن تحديه للفضل نفسه .

(١) الفص : ملتقى كل عظيمين ، وحدقة العين ، والفص أيضا
اصل الأمر وحقيقته .

ولم يكن في الحق يعوزه السلاح ، غير أن هذا البرمكى يستطيع
بدهائه أن يقلب ميزان القوى ، فكان لابد أن يكون متأهبا لكل
خطر يندر منه .

على أنه لم يكده يدخل عليه حتى يتلاشى كل ما أعده ، وتضيع
حماسته فيقتر اذ يقول له الفضل :

— يا أصمعي هل لك زوجة ؟

فلما هز رأسه يغمغم أن لا ، عاد الفضل يقول :

— فجارية ؟

فأجاب :

— جارية مهنة .

فقال الفضل وهو يتفحصه :

— فماذا تقول في جارية أخرى نظيفة أهديها لك ؟

فتعجب الأصمعي وأخذ يفكر هل ثمة شرك ، وهل تراه

يعبث به ؟ ولماذا يريد أن يصله بعبائه وأخوه يصله بكيده ، أهى
هدنة ؟ قال بعد أن فكر وفكر :

— والله انى لمحتاج الى ذلك .

فأمر الفضل فاذا جارية تخرج عليهما ، ساحرة حلوة ،

فلا تكاد تقف أمامهما حتى يخاطبها قائلا :

— قد وهبتك لهذا .

ويلتفت نحو الأصمعي ويقول مستطردا :

— خذها يا أصمعي .

وهنا يحدث ما لم يتوقعه أحد ، فقد انفلتت الجارية مولى
وأنشأت تبكى ثم تقول :

— يا سيدى أى ذنب جنيت حتى تدفعنى الى هذا مع ما أرى
من قبح صورته ؟

وفجع الأصمعى . فهو قبيح كما يعرف ، ولكن هل الى هذا
الحد يهون بقبحه عند هذا البرمكى ؟ وفكر فى أن يعاتبه ، وفكر
فى أن يلقنه درسا فى احترام العربى ، ثم فكر فى أن ينصرف الى
قصر ابن الربيع يستشيريه فيما يصنع ، غير أن ما وقع بعد ذلك
دفعه الى مشكلة جديدة اذ انبرى الفضل يقول :

— يا أصمعى ، هل لك أن أعوضك منها ألف دينار ؟

ما معنى هذا ؟

الذن لم يكن الفضل يسخر منه ، فهل تراه يريد أن يمكر ؟
ولكن لماذا .. لماذا هو بالذات ؟ وسمع الفضل يعيد السؤال فأجاب
قائلا وهو جامد الوجه :

— ما أكره ذلك

فدفع اليه المال والجارية تنصرف ، حتى اذا أحس أن نفسه
قد هدأت سمع الفضل يقول فى صراحة وصدق :

— يا أصمعى انى أنكرت من هذه الجارية أمرا فأردت
عقوبتها بك ثم رحمتها منك !

وضحك فوجد الأصمعى نفسه — لأمر ما — يشاركه ضحكه
وقد ارتفع الى مستوى مزحه ويقول :

— فهلا أعلمتنى بذلك قبل مجيئى اليك ؟ انى لم آتاك حتى

سرحت لحييتي وأصلحت عمتي . ولو عرفت الخبر لصرت اليك على
هيئة خلقتي ، فوالله لو رأيتني كذلك لما عاودت شيئا تنكره منها
طوال حياتها !

* * *

وانصرف ووجهه ضاحك ، ولكنه كان يغص ويطوى أعماقه
على ما لا يجب أن يبدئه .

عواصف

أظلت سحابات الخوف هذا المجتمع واضطرب لها الأصمعى .
 ففى العام السادس والسبعين بعد المائة بدأت فتنة أحد
 العلويين ، هو يحيى بن عبد الله أخو النفس الزكية . يقدر هذا
 العلوى أن الديلم يستطيعون أن يمدوا له يدا فيستقر بينهم ويشيرهم
 على الخليفة ، فتكون حريبات واغارات ، ثم تعد الجيوش الكبار
 يقودها غزاة لا يشق له غبار .

يغتم الرشيد ويحزن الأصمعى له ، بل لعله يحزن أن يرى من
 يبسط سلطانا يسفه السنة ويحط من أهلها الأبرار ، وينسى حزازاته
 أو مداعباته مع اسحاق ولا يرجو الا أن يوفق الفضل البرمكى
 فيما كلفه أمير المؤمنين .. وكان قد جهز بخمسين ألفا من جنود
 الركن الأشد !

وقد رأى فى هذا القدر ما يغنى عن التفكير فى أية هزيمة ،
 غير أنه لم يلبث الا قليلا حتى سمع أن البرمكى الداهية يكتب
 العلوى ويبدل له الأمان .. باسم أمير المؤمنين ، والى هذا الحد
 هان الرشيد ، فما عسى أن يحدث وقد قرر شيئا رأى تنفيذه حفظا
 لعرشه ؟

لقد بذل الأمان وعليه خطه وأشهد عليه الأكابر .. وعاد الرجال
فأتنى على البرمكى وأكرم العلوى ، فكان قيل وقال واشتد
اللفظ .

الحزب العربى يهجس ويهمس ، وابن الربيع يروح ويحيى ،
ويقدم أبو البخترى القاضى على الخليفة ويقول « هذا أمان
منتقضى من وجوه » فينصب الفضل البرمكى نفسه للذود عن
العلوى . وراح يرد حجج المحتجين وينفذ آراءهم ، ولكن الخليفة
يتوسط بعد أن يمزق كتاب الأمان ويكل أمر العلوى للفضل .

وهنا يأتى دور الأصمعى فيخوف وينذر ، فتقوى عند الرشيد
الشكوك فى العلوى ويطلب العلل عليه ثم يتبعه ويرصد له ، فلا
يصل أمره الى شىء حتى يأتية الفضل بن الربيع بخبر رهيب ..
فقد أطلق البرمكى سراح العلوى وبعث به الى الحجاز ، فيقبض
عليه من جديد وتكون نهايته فى أحد السجون ببغداد .

لقد قام ليث الأسدى أو اسماعيل بن صبيح بمهمته خير
قيام ، ولكنه لم يستطيع أن يكشف لابن الربيع مزيدا ، فقد
سافر الفضل الى خراسان منكسرا ورحل أخوه جعفر الى مصر
فبدا أن آل برمك هداؤا . وظن الأصمعى اذ ذاك أن الدنيا عادت
تقبل عليه بادبارها عن هؤلاء الذين يدسون له ، وقدر أن صراعه
مع اسحاق انتهى الى الأبد .

الا أنه كان واهما ، فقد رجع جعفر .. الخليفة لم يستطع
أن يبعده عنه طويلا ، ثم رجع الفضل فجمع له وأمر الشعراء بمدحه

وسأل الخطباء أن يذكروا فضله ، وانبرى اسحاق الموصلي يمدحه
قائلاً .

لو كان بيني وبيننا الفضل معرفة
فضل ابن يحيى لأعداني على الزمن

هو الفتى الماجد الميمون طأثره
والمشتري الحند بالغالي من الثمن
برجوعهما عاد الصراع من جديد ، واشتدت عرامة اسحاق
ووطأته ، وبدأ يلمح بضرورة استدعاء أبي عبيدة من البصرة بحجة
أن الأصمعي يكرر نفسه وانه يتوسل للبقاء في القصر باهداء كتبه
للبرامكة على رغم سوء نظرهم اليه .

ولكن الرشيد لم يكن يريد أى تغيير فى بلاطه ، وسافر الى
الرقعة مصطحباً الأصمعي وسائر حاشيته من العلماء والشعراء ،
وفى الطريق يسأل الخليفة :

— هل حملت شيئاً من كتبك يا أصمعي ؟

أجاب :

— نعم .. حملت منها ما خف حملته !

فعاد الرشيد يسأل :

— كم حملت ؟

فأجاب :

— ثمانية عشر صندوقاً .

فصاح الخليفة دهشاً :

— هذا لما خففت فلو ثقلت كم كنت تحمل .

ومن الرقة انحدر الى الحجاز فصح بيت الله ليخطف الموت
مروان بن أبي خضعة .. وكان الأصمعي يؤثره ويكاد يفضلهُ على
أبي العتاهية مع أن هذا — برغم شعوبيته — يصرح بولائه المطلق
للسياسة العربية التي ينتهجها الفضل بن الربيع .

هذا بلاء الأصمعي عن قومه في هذه العواصف الهوج ، وليس
يضيره أنه لم يكشف عن تديره لأحد سوى ابن الربيع ، فلكل
مذهبه في التكثير . ولعله كان يرى أن ينتصف قومه من البرامكة
عن طريق الايمان والثلب ، فذهب ينفخ في سمع الرشيد هونا
ويحيط صنيعه بسياج أقيم على أن الحذر مع الأعراب أولى من
الشك في الأعراب .. فالله هو الذي جعل الجنسين كلا الى سبيل ،
ولن يلتقيا الا على حرب تدمر أو أحقاد تشمر !

ومن وراء أولاء وهؤلاء أعداء الثغور البيزنطيون .. يقضون
المضاجع ويحملون الفوداج ، فيكتب العرب صفحات تهز الأصمعي
فيدون ولا يمنعه من التدوين الا ما يقع عادة بينه وبين اسحاق ،
وفي أحد الأيام يذهب الى ابن الربيع بقصره ويقول :

— يطمعني فضلك أن أطلب اليك التوسط لدى جعفر

ليكف عني ، فاني لو كنت قادرا لكذبت كما يكذب هو على .

وكان الفضل بن الربيع يعلم تماما أن صديقه من الذين
يكرهون أن يورطوا أنفسهم بكذب ما .. بل هو يتعفف الى حد
أنه يأبى أن يروى شعرا في هجاء أحد ، ويتمشى هذا مع منهجه

العلمى المتزمت ، فلا يروى ما يشك فيه ويحاول أن يختار الصحيح من الحديث الشريف ثم يتوقى تفسير القرآن الكريم .
 كان ابن الربيع يعلم ذلك ، ويعلم أيضا أن قوة ما لا تستطيع أن تدفعه الى أن يزور أو ينحل أو يفتت ، ولهذا أثر أن يوغر صدره على جعفر نفسه — وقد شهد كيف كان الأصمعى يضيق بمسلكه — ليستغزه ويبعث فيه ما هو خامد ، فقال له :
 — يا أبا سعيد .. والله ما أدرى ما يحرك البرمكى عليك الا أن يكون ذلك حسدا منه على ظفرك بقلب أمير المؤمنين ، وقد أجمع على أن يقصيك .. وما تتبع اسحاق الموصلى لك الا من توجيهه هو وتديره ، غير أن المهم هو أن أم جعفر تجمجم ضده وترى ان استبداده بالخليفة يقضى الأمين عن الموضع الذى وضعناه فيه .

قال الأصمعى :

— هذا الشيطان الذى أهديت له « النوادر » والذى دفعت

الى أن أمدحه ...

وسكت يفكر ، وابن الربيع كان يفكر أيضا ، وعن له أن يردد

أمامه الأبيات التى لهج فيها بذكر جعفر .

إذا قيل من للندى والعلی من الناس قيل الفتى جعفر

ثم راح يتصور هذا البرمكى الخبيث وهو يخلو بالرشيد

فيرسم الصورة قاسية أمام الأصمعى ، بل يبعد فينقل له كلاما

والكلام مؤذ .. خطير .. يسىء الى أم جعفر والى ولدها ، ويشيد

بمراحل وبذكاء ابنها عبد الله ، ويؤذن بتحول الرشيد عن الأمين

ينتزع منه البيعة اتزاعا ، فيضمحل النفوذ العربى الذى يمثل
تيار الحفاظ على المجد المؤثل .

— هذا الشيطان الذى .. الذى .. دعنا منه فوالله لا أسكت
عنه وسأكشف عن تديره لأمير المؤمنين ، ولكن ألا ترى أنه
يفرط فى سبى لو علم بتديرى عليه ؟ يا الله .. ما هذه الحيرة التى
تتأبى كلما هممت بشئ أحفظ فيه حياتى ؟

قال الفضل بن الربيع :

— الأرض ممهدة أمامك يا أصمعى وأم جعفر التى طار
طائرهما تمد لك يدها وتستجد من الخليفة أذنا تسمع ، فقل له
كل شئ .. صارحه بأنه فقد سلطانه وأقصر بنى هاشم وأذل
العرب ! قل له ان قصور البرامكة مفتوحة للخلفاء والماجنين .. تراق
الخمور فيها حتى الصباح ، ويحكون الحكايات عن مزدك ومانى ،
ويتندرون علينا ، وينشد فيهم أبو نواس وابن مناذر والحسين بن
الضحاك الخليع الباهلى .. الباهلى يا أصمعى ، ألا تسمع ؟

ولم يطق الأصمعى أكثر من هذا ، فهرول الى داره كالمحموم
ثم خرج الى الجامع ولسانه يدور بأبيات يقول فيها :

اذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وان تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك
وتكلم كثيرا مع خلصائه ، فلم يكن الا يوم واحد بعد ذلك
حتى دعى الى قصر الخلد فظن أنه مأخوذ ولكن الرسول طمأنه ..
فالخليفة يريد أن يسمر بعد أن فض مجلس النظراء ، فلما وصل

راعه أن يجده قلقا يقعد مرة ويضطجع أخرى وتدمع عيناه ،
وما وقع بصره عليه حتى قال له برقة :

— اجلس !

فجلس الأصمعى وهو لا ينبس ولكنه ينتظر الاذن بالكلام
فلما قال له الرشيد :

— أرايتنى أبكى ؟

قال :

— نعم !

فقال الرشيد :

— أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا .

ثم دفع اليه بورقة كانت فى يده وهو يقول ويكاد يشجج :

— اقرأ !

فاذا فى الورقة شعر لأبى العتاهية .. شعر حزين يهدد بالموت
ويسأل عن الملوك الذين ذهبوا ، واذا هو يقول :

— يا أصمعى كأنى والله أخاطب بهذا الشعر دون الناس

ولكن ..

وصت فجأة وقد راحت دموعه تتساقط فتغنى عن كل كلام ،

فلما ملك أيده أنشأ يقول بصوت رهيب :

قلد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الرأى لا فكسا ولا برما

وأدرك الأصمعى على الفور ماذا يريد بقوله هذا .. ماذا

يعنى ، فلم يكن عبد الله ابنه الأكبر الا ذا الثقة وموحد الرأى ؛

فقد كان الأمين على عكسه ضعيفا هينا ، يصدر عن ولع بالمجون

ويتصرف بنزق بحيث يبدو كما لو أن الفضل البرمكي يفره بذلك اغراء .

وكان العام ١٨٢ هـ .. وقد كبر الأخوان ، وصار من الضروري أن يفصل أبوهما ليقرر من منهما أحق بالبيعة . ولما حاول الأصمعي أن يقول شيئا يؤخر به ما يعتزمه ارتج عليه ، ثم ضاعت الفرصة نهائيا حين جاء يحيى بن خالد وخاض مع الخليفة في حديث ولاية العهد ، وحينما سأله الرشيد بقوله :

— من ترى من الأخوين أحق بالبيعة ؟

تطلع الى الأصمعي ثم قال :

— أشير عليك يا أمير المؤمنين وهذا جالس ؟

وثار الأصمعي ولكنه لم يملك الا أن يتأهب للخروج فيشير اليه الرشيد بأن يكتفى بالتنحي ، فيدلف من باب قريب ينتظر وليس بينه وبين الرجلين الا ستار يسمع القليل ولا يثرى الملامح . وقد سمع هو بعض المناجاة حتى مضى الليل واذا الأمور تتضح ، ثم يخرج على الصباح الى دار الفضل بن الربيع ليقول له في جزع :
— لقد انتهى الأمر وغدا أو بعد غد ينابيع لابن مراجل !

الحصاد

وبويغ لعبد الله بعد الأمين ولقب بالمأمون ، وولاه أبوه خراسان . ولما سلمه الى جعفر البرمكي اقتتل به من رجة الخلد الى قصره الخاص ليبعد به عن بطش زبيدة ، فقد بلغه ثورتها عليه وعلى أبيه وسائر اخوته ، وسمعا تصيح في الرشيد ذات يوم :

— أنت غريق في بحر عميق من مودتهم !

ومنذ ذلك الحين وقصر الخلد يضطرب بالشائعات ، وتحاك فيه المؤامرات . وأعلن الأصمعي عداؤه الضاري لآل برمك دون تردد فاتهموه بالعدو والجحود ، ولما سمع أمير المؤمنين يقول عن عبد الله المأمون :

— والله ان فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس

الهادي

قال :

— والله انه ليشيرها حربا تعينه عليها الحمراء وما أراه يفي

لأخيه الأمين !

واختلف العلماء كما لم يختلف أحد .. فاليزيدي وأبو عبيدة وابن الأعرابي والفراء وسيبويه مع المأمون ، والكسائي يقف

موقف الأصمعي باعتباره مؤدب الأمين ، وأبو محرز خلف الأحمر
ويونس بن حبيب وأبو زيد سعيد الأنصارى والجهضمي والنضر
ابن شميل ومؤرج السدوسي لا يجادلون في مسألة البيعة إلا من
حيث تكون المصلحة . ثم لا يلبث أن ينعى خلف ويعقبه يونس بن
حبيب ثم بعض الأعراب الذين كانوا يلنون بقصر الخلد ،
فتضعف الجبهة العربية ولا تجدى المحاولات التي يبذلها كل من
الفضل بن الربيع وزبيدة وجعفر بن موسى لانتقاذه .
ومما زاد الأمر سوءا إثارة الأمين للشاعر أبي نواس يجمعهما
الشباب وحب المجون ، في حين عجز بوق زبيدة — وهو
أبو العتاهية — عن تقوية الحزب العربي .

والرشيد يمضى في سياسته لا يبالى بشيء ، حتى لقد ظهر أنه
استراح نهائيا من المشكلة بعد أن نصب ابن مراجل وليا لعهد
الأمين ثم ولى ابنه القاسم ولى عهد للمأمون ولقبه المؤتمر ، ولم
يخص أحدا من المتعاركين بمودة لتعصب ما وائما لحب مبرا من
الهوى . فقد كان أبا قبل كل شيء ويريد الخير لولديه جميعا ،
وقد رأى الخير فيما أقدم عليه !

أما مجالس السرور ومجالس السمر فقد كانت مليئة أبدا ،
والخزائن مفتوحة للمجتهدين . بل لقد شغل الخليفة بالعلم والشعر
حتى لم يعد يشعر أنه واقع بين شقى رحي ، وعبثا حاول الأصمعي
أن ينبهه ، ثم أسقط في يده حينما رأى أنه يشهد مجالس
السرور طوال أيام الشتاء وهو في ثوب واحد مع جعفر البرمكي .
وخيل للأصمعي لأول مرة في حياته أنه أصبح أعجز من أن

يقدم شيئاً ، بل لعله أحس لأول مرة أيضاً أنه شاخ وإن يكن لا يزال فتى الروح عامر القلب بالأمل . وقد سأله الرشيد ذات يوم أن يحدثه حديثاً يفرحه فشعر بأنه لا يقدر على شيء ، فقال كمن يراوغ :

— بل أحدثك يا أمير المؤمنين حديث العجز .

فتساءل الرشيد :

— وما هو لعمرك ؟

فانطلق يقول :

— بلغني عن بعض العرب فصاحة ، فأتيته فوجدته يخضب فقال « يابن أخى ما الذى أقصدك الى ؟ » قلت « الاستئناس بك والاستماع من حديثك » قال « يابن أخى قصدتني وأنا أخضب والخضاب من مقدمات الضعف ، ولطالما فرغت الوحوش ، وقدت الجيوش ، ورويت السيف ، وقرت الضيف ، وحميت الجار ، وأبيت العار ، وشربت الراح ، وجالست الملاح ، وعاديت القروم وعلوت الخصوم ، واليوم — يابن أخى — الكبر وضعف البصر تركاني من بعد الصفو والكدر كحال القائل :

شَيْبُ نَعْلِهِ كَيْمًا نُسَّرَ بِهِ

كهَيْئَةِ الثَّوبِ مَطْوِيًّا عَلَى خِرْقٍ

فَكُنْتُ كَالْغَصْنِ يَرْتَاحُ الْفَوَادُ بِهِ

فَصَبِرْتُ عَرْدًا بِلَا مَاءٍ وَلَا وَرْقٍ

صَبْرًا عَلَى الدَّهْرِ إِنْ الدَّهْرُ ذُو غَيْرٍ

وَأَهْلُهُ مِنْهُ بَيْنَ الصَّفْوِ وَالرَّنَقِ

فأطرق الرشيد ملياً ثم مد يده تحت الوسادة وأخرج بدرة وهو يقول :

— يا أصمعي ان حدثتني ثانية بحديث في العجز فأضحكتني وهبتك هذه البدرة !

وأدرك الأصمعي على الفور أن الرشيد يحاول اغراءه في الوقت الذي يحتاج فيه فعلاً الى مثل هذه البدرة ، فتفكر قليلاً ثم قال :

— نعم يا أمير المؤمنين .. بينا أنا في صحارى العرب في يوم شديد البرد والريح اذا أنا بأعرابي قاعد الى أجبة قد احتملت الريح كساءه فألقته على الأجبة وهو عريان فقلت له « يا اعرابي ما أجلسك ها هنا على هذه الحال ؟ » فقال : « جارية واعدتها يقال لها سلمى أنا منتظر لها » فقلت له : « فهل قلت في سلمى شيئاً ؟ » قال : « نعم » . قلت له : « أسمعني لله أبوك ! » قال : « لا أسمعك حتى تأخذ كسائي وتلقيه على » . فأخذت الكساء وألقيته عليه فأنشأ يقول :

لعل الله أن يأتي سلمى فيسطحها ويلقيني عليها
ويأتي بعد ذاك سحب مزن يطهرنا ولا نسعى اليها
واستضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره كعادته دائماً كلما استخفه الطرب وقال :

— خذ البدرة لا بورك لك فيها !

على أن سرور الخليفة لم يعد يرضيه كما كان يحدث من قبل ،

وزاد الطين بلة تحدى بعض تلاميذه له كالجرمي متابعة لاسحاق
الموصلى ، وقد سأله الجرمي ذات يوم مختبرا اياه :
— كيف تصغر مختار ؟

فأجاب الأصمعي وهو معلمه في اللغة :
— مختير !

فصاح الجرمي :

— أخطأت ، انما هو مختيار .

ولم يملك الأصمعي الا أن يقرّ بخطئه ، غير أنه أراد في
المجلس نفسه أن يقتص لنفسه فسأل :

— اذن قل لي كيف تنشّد هذا البيت :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا فالآن حين بدون للنظار
أو بدان .. ؟

فقال الجرمي :

— بدان .

— أخطأت ، انما هو بدون أى ظهري .

وأما الموصلى فقد بلغ من تحايله عليه والعبث به أنه أنشده

يوما أبياتا جاء فيها :

هل الى أن تنام عيني سيبيل ان عهدى بالنوم عهد طويل

غاب عني من لا أسمى فعيني كل يوم وجدا عليه تسيل

ان ما قلّ منك يكثر عندي وكثير ممن تحب قليل

والحق أن الأصمعي أعجب بهذه الأبيات اعجابا بالغا فسأل :

— من صاحبها جعلت فداك ؟

فأجاب ببساطة :

— هي لأحد الأعراب .

فانطلق الأصمعي يرددها حتى حفظها ، وهنا قال اسحاق :

— أقول الحق انها بنت ليلتها .

فاستشعر الأصمعي حرجا غير أنه قال :

— لا جرم فان أثر التوليد فيها يبين .

فاتفجر اسحاق صائحا :

— ولا جرم فان أثر الحسد فيك ظاهر !

وتركه ليجتمعا عند الفضل بن الربيع على توزع وبلبله وسوء

ظن ، ولكن الأصمعي الذي كان قد تأهب ليثار منه يجد المصادفة

وحدها تدبر له ما يريد ، فقد كان اسحاق ينشد ابن الربيع أبياتا

في وصف الفرس أخذها في ساعات الصفاء من الأصمعي ، فلما

اتتهى قال له الأصمعي :

— هات بقيتها .

فاضطرب الموصلي وسأل دهشا :

— أولها بقية ؟

أجاب الأصمعي :

— أجل لها بقية .

قال اسحاق وقد تألقت حبات العرق على جبينه :

— ولكن ألم تقل انه لم يبق شيء منها ؟

فصاح الأصمعي :

— بل بقي منها عيونها .

ثم انطلق بصوته العذب ينشد بعد اسحاق ثلاثين بيتا كأنما
كان يكتمها عنه لمثل هذا اليوم .

وهكذا ، أو على هذا راحت الأيام تمر بين حلو ومر ، وإن
كان مرها مما لا يحتمل . ولكنه — وقد قرر أن يخوض معركة
الحمراء الى النهاية — أبى أن يعود الى البصرة مع أنه نصح
بذلك مرة وهدد مرارا ؛ فلقد أجاد الكر والفر ، وحقق أساليب
التدبير ، فلم يكن بد من أن يبقى ليظل مرتقبا عن كذب ما يأتي
به الغد .

بداية النهاية

سافر الرشيد الى الرقة للاستجمام واصطحب معه الأصمعي ،
وكان العام عام قحط وجفاف . فلم يكد الليل يقبل حتى أمطرت
السماء فاستبشر الجميع وفرح الخليفة نفسه وقال لسيره :
— أعندك شيء بمناسبة نزول المطر يا أصمعي ؟

فقال الأصمعي يجيب :

— عندي ما أقوله ولكنني أخشى أن يسمعه جعفر بن يحيى .
فضحك الخليفة لأنه كان يعلم ما بين البرامكة كلهم وبين
الأصمعي ، ولكنه كان يرى أنهم جميعا كل الى هدف خاص
فلا يحق لهم أن يحجبوا عنه ما يسره ؛ فعلى الواحد منهم حين يكون
في مجلس أمير المؤمنين أن ينسى حزازاته ويفعل ما يؤمر به ، ولهذا
عجب أن يظهر الأصمعي هذا الخوف وهو في حضرته فعتب عليه
وصاح :

— هات ما أعندك .

فصاح الأصمعي :

— انه مع ذلك حديث أعرابي ، وأنا أثقله ؛ فقد حدثني قال :

أصابتنا سنة محدبة وعندنا رجل غنى وله كلب ، فجعل الكلب يعوى جوعاً فأنشد صاحبه يقول :

تشكّيت إلى الكلب شدة جوعه وني مثل ما بالكلب أو نى أكثر
فقلت لعل الله يأتى بغيشه فيضنحى كلانا قاعداً يتأمر
كأنى أمير المؤمنين من الغنى وأنت من التجمى كأنك جعفر
فأغرق الرشيد فى الضحك وقال :

— قاتله الله من أعرابى .

قال الأصمعى :

— لوى عنه عذاره !

فدهش الخليفة وبدا عليه أنه لم يفهم ما يرمى إليه الأصمعى ،
فأهنف ببطء ثم قال :

— الآن يحق لك تعليمى فما معنى ما تقول ؟

أجاب الأصمعى :

— أعنى أن الأعرابى عصا أبا الفضل جعفر فلم يطمعه ورماك
رحمت أمير المؤمنين بما لا يرمى به الا المتهم ، ومن استرعى الذئب
فقد ظلم !

فصرخ الرشيد قائلاً :

— هو مثل آخر يا أصمعى ؟

قال الأصمعى :

— والثالث أن البغاث بأرضنا يستنسر ، وأقولها يا أمير
المؤمنين مرة أخيرة أحق الناس بالتدبير العقلاء الأبرار ومن لا يحمل

الأمانة قادرا عليها فاستصلح بما أوتى من ذلك ما استطاع من أمر
الرعية حق عزله .

فتساءل الرشيد قائلا :

— أنت تعنيهم يا عبد الملك .

قال الأصمعي :

— أنا أعنى أن فيهم شرا الى جانب ما يكشفون عنه من
فضل ، ولكن أبا الفضل وأخاه الفضل لا أراهما الا كمتبغى
الصيد في عريسة الأسد .

فقال الرشيد :

— عدنا الى الأمثال يا أصمعي : مرة هم البغاث ، ومرة فيهم
الحمق حتى يطرخوا حمى الليث ، فوالله ما أدرى الى أين تسير بى
وقد سددت على المسالك ؟

قال الأصمعي :

— اسمع هذه النادرة أولا يا أمير المؤمنين . كان ثمة أعرابى
طويل قبيح خطب امرأة فقييل له « أى ضرب تريدها ؟ » قال
« أريدها قصيرة جميلة فيأتى ولدنا فى جمالها وطولى » فتزوج
امراة على تلك الصفة ، فجاء ولدها فى قصرها وفى قبحه !

فهز الخليفة رأسه وهمس :

— الآن فهمت .

قال الأصمعي :

— أنت والله يا أمير المؤمنين كمن يدبر تدبير الأعرابى وقد
حسبت فيك قصورا فتركت لهم يصنعون الكمال ، ولو أنصفت

يا أمير المؤمنين استبدلت عزمك بعزمهم فترى أن ما كان لك أذاك
وما كان عليك لا يدفعونه عنك .

فاستضحك الرشيد وقال :

— أنت تكرههم يا عبد الملك ؟

فقال :

— والله لا أكره الا ما أراه فيهم من صبا .

فصرخ الرشيد :

— أتكرههم يا رجل ؟

قال الأصمعي :

— لا والله ، ولكنني أقل لك ما أسمع . فان سألتني عن

تجربتي أنا معهم قلت فيهم الباغي اذا فعل والعياب اذا سمع ،
ثم انتى رأيت واعظهم غير محقق لما يرويه ، بل قد يسوق ما يبعث
في النفس شكاً . انهم يا أمير المؤمنين مولعون بالتكاثر !

وكعادة الرشيد دائماً كلما حزه أمر أطرق ، ومن حيث

اتتهى الأصمعي أخذ يفكر وان كادت سوابق الأيام لتميل به إلى
غير ما ينبغي أن يفكر فيه . فالأمور تتعقد والأحداث تتوالى ،

وعرف هو ميول قصره وفيه زبيدة وأخوها والفضل بن الربيع

وهذا العالم البصري الذي لا يملك فكاً كما ما شد نفسه إليه ليظل

على الولاء الأصيل . ولكن الحقيقة أنه هو مسلوب واستنسر

البغثان في أرضه ، فكم تكون الكارثة لو صح يوماً فرأى نفسه

على غير ما يجب أن يكون !

ان العجب آفة الانسان ، وقد ملئ البرامكة عجباً .. يتيهون

على الخلق ويعطونهم على أساس أنهم أصحاب الأمر ، ولعلمهم
إذا هموا ظنوا أنهم الغالبون ولا يستطيع أحد صدهم . فالى أين
يسرون ؟



وقرر فى عام ١٨٦ أن يحج وقد اعتزم أمرا ، فخرج الى الأنبار
ومنها الى المدينة فأعطى عطاء باسمه ، وقدم كل من الأمين والمأمون
عطاء . ثم سار الى مكة وأعطى أهلها ، فكان مجموع ما أنفقه
ألف ألف دينار وخمسين ألفا .

والحق أن وصول الرشيد الى مكة قد دبر على نحو ضمن
اجتماع كل الفقهاء والعلماء والقواد والقضاة . وشهد الأصمعي
الخليفة وهو يكتب كتابا أشهد فيه على الأمين وطالبه بالوفاء
لأخيه الكبير ، وكتب كتابا آخر أشهد فيه على المأمون وطالبه
بالوفاء لأخيه الأمين . وعلق الكتاين فى الكعبة ، وأشهد الناس
على ذلك كله ، ولما انتهت مراسيم الاشهاد وانصرف الى شتونه
قال الناس بعضهم لبعض :

— قد ألقى بينهما سرا وحربا !

ثورة الرشيد

تطورت الأمور بسرعة مذهلة ، فقد بعث الفضل بن الربيع للأصمعي ، فاذا عنده اسماعيل بن صبيح . وقدم له ابن الربيع كتابا قديما بخاتم جعفر بن يحيى الى أخيه موسى البرمكى يأمره فيه بالتوجه الى الحجاز لاصطحاب يحيى العلوى الى خراسان والدعوة له فيها .

— ولماذا هو معك وكان المفروض أن يكون عند موسى البرمكى ؟

لقد كان هذا أول ما تبادر الى ذهن الأصمعي ، فلما سمع اسماعيل بن صبيح ذلك قال يجيبه :

— يا أبا سعيد ، لقد تطورت مسألة العلوى بسرعة لم يستطع فيها أحد من البرامكة ان يسبق الأحداث ، ومن ثم عدل جعفر وأمرني باعدام الكتاب فنسيته في مكتبتى ، على أنى أقول صادقا ان الفضل كان لا يرى رأى جعفر على الاطلاق !
قال الفضل بن الربيع :

— لا يعنيما ما يراه الفضل أو أخوه أو أبوهما فالخيانة ميّنة ، ولولا رحمة الله لكنا هلكنا من سنين . والعجيب بعد هذا

أن على بن عيسى بن ماهان اتهم موسى هذا اتهامات لم تبقه في السجن طويلا ، ألا كم كنا غافلين ! ان ابن ماهان الذي ظلم الخراسانيين وعسر عليهم وأخذ أموالهم أكثر أمانة عندنا من هؤلاء الذين يدعون الرفق ويدعون الى السماحة والدعة .

وفي هذه اللحظة الخطيرة يدخل السندی بن شاهك — صاحب الشرطة — ويسر لابن الربيع بشيء ثم يخرج متعجلا ، ويلحظ الأصمعي أن عيني ابن الربيع تأتلقان جزلا ثم يسمعه يقول :

— ألا تدريان ؟ ان أمير المؤمنين يطلب الى ابن شاهك أن يتأهب للقبض على البرامكة وحجز أموالهم ، وستعجل هذه الرسالة بالأمر فينتهى كل شيء ، ترى ماذا حدث ونحن في غفلة ؟

وخرج اسماعيل بن صبيح في زى ليث الأسدي وهو يحجل ، وتبعه الأصمعي على أن يذهب ابن الربيع مساء الى القصر بعد أن يتخذ عدة تدابير معينة . ولكن الأصمعي لا يكاد يستقر في داره حتى يأتيه رسول من قبل الخليفة ، فيسرع الى قصر الأنبار — خارج بغداد — ليرى ثمة حركة غير عادية ، وكان جبرائيل بن بختيشوع — الطبيب الخاص — في مخدع الخليفة .

ولم يكذ يستقر المجلس بالأصمعي حتى فتح الباب عن يحيى البرمكي يدخل في وقار ويسلم ، فيتطلع اليه الخليفة ببرود ثم يرد ردا ضعيفا ، ويعود فيقبل على جبرائيل يسأله في صوت كظيم :

— أيدخل عليك منزلك أحد بغير إذن ؟

قال جبرائيل :

— لا !

فقال الرشيد :

— فما بالناس يدخل علينا بغير إذن ؟

وأحسن يحيى الذى اتخذه الخليفة أبا أنه مقصود بهذا

التعريض ، فقال برفق :

— يا أمير المؤمنين ما ابتدأت ذلك الساعة ولكن أمير المؤمنين

خصنى به حتى أن كنت لأدخل وهو فى فراشه مجردا حينا وحينا

فى بعض ازاره ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يجب ،

فاذا قد علمت فانى سأكون عنده فى الطبقة التى يجعلنى فيها .

واستحيا الرشيد وأطرق على حين استشعر الأصمعى رثاء

فحو الرجل المسن . فهو فيما يبدو أكثر اخلاصا من ولديه وأعظم

وفاء ، ولكنه فيما يدبر أمير المؤمنين مأخوذ بجريرتهما ، على أنه

لم يكن الا ريشما التقط الرشيد أنفاسه ليرتفع صوته مرددا :

— ما أردت ما تكره ، ولكن

وسكت دفعة واحدة فقال البرمكى :

— ماذا يا أمير المؤمنين ؟

فصرخ الرشيد :

— لقد ورد من فارس ستة آلاف ألف درهم فطلبت منها ألف

ألف فكرهته على يا أبت ، واليوم أطلب من جعفر عشرة آلاف درهم

فيقول لا توجد عندى دزاهم ، فما معنى هذا ؟

وسكت قليلا ليسترد أنفاسه ثم استطرد صارخا :

— يا مسرور ، ماذا رأيت فى دفاتر الديوان ؟ قل له : انهم

نهبوا مالى وذهبوا بخزائنى .. أرايت ؟

ولم يتحمل يحيى الموقف فقد كان عليه عصيا ، واعتذر
بشيخوخته وانسحب ولكن الرشيد لم ينقطع عن صياحه ومضى
يقول :

— أغنيانهم وأفقروا أولادنا ، وليس لأحد من أولادنا ضيعة
من ضياعهم . قل لجعفر هذا يا جبرائيل !

وخرج ابن بختيشوع ، وقد أراد الأصمعى أن يتبعه إلا أن
الخليفة أمسك به وهو يقول :

— تريث يا أصمعى فأنا حزين فى هذا اليوم ، فهل قرأت على
من شعر العتاهى أو استدعيته لينشدنا ما نعتبر به .

قال الأصمعى :

— بل أقرأ عليك ما لا يزهك فى الحياة وإن يكن حزينا
كنفسك الحزينة يا أمير المؤمنين .

فقال الرشيد :

— وما هو يا أصمعى ؟

فانطلق يقول :

— دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى ، فإذا جارية
على قبر كأنها تمثال وعليها من الحلى والحلل ما لم أر مثله وهى
تبكى بعين غزيرة وصوت شجى ، فالتفت الى صاحبنى فقلت
« هل رأيت أعجب من هذه ؟ » قال « لا والله ولا أحسبني أراه » .
ثم قلت لها : « يا هذه انى أراك حزينة وما عليك زى الحزن » ،
فأنشأت تقول :

فان تسألانى فيم حزني فانتى
رهينة هذا القبر يا فتية
وانى لأستحييه والترب بيننا
كما كنت أستحيه حين يرانى
أهابك إجلالا وإن كنت فى الرى
مخافة يوم أن يسوك لسانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :
يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى
بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلى وفى حلال
كأنتى لست من أهل المصيات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه
إن قد تُسرَّ به من بعض هياتى
فمن رآنى رأى عبّرى مولّهة
عجبة الزى تبكى بين أموات

واقبه الأصمى فاذا عينا الرشيد تذران الدمع واذا لحيته
الكثة مخضلة وهو ينشج ثم يقول :
— والله لقد شغلتنى بمصابها عن مصابنا فلك منى الجزاء ١

النسبة

وفي الصباح صدرت أوامر — لم تنفذ — بالعودة الى قصر الخلد ، وسمع الأصمعى من ابن الربيع أن الرشيد يبيت أمرا بعد اطلاعه على كتاب جعفر البرمكى . بدليل أنه أمر ابن شاهك بمراقبة الرصافة للقبض على دور البرامكة حالما تصدر أوامره فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار .

ومضى النهار دون وقوع ما يريب ، ولكن الليل لم يكن فى هذا اليوم بالذى يغرى الأصمعى بنوم هنىء . فقد راح يتقلب فى مضجعه ما تقلب ، ثم أغمض عينيه على هاجسة فزعت رؤياه ، فكان ينتفض لأقل ركز ، وتخيفه الحركة العارضة . ثم لم يدر أطل الوقت أم قصر وهو يقظان نائم ، ولكنه يتنبه بغتة على صوت فاذا عيناه شاخصتان وقلبه واجف .

أكان هناك أمر ما ؟

أكان ثمة ما يخشاه ، فميم القلق ؟

هذا صرير باب ، وهذا صوت جاريته العجوز ، وصوت آخر غليظ ينصت له الأصمعى ، ثم ينهض لا يكاد يمس الأرض بقدميه ويندفع الى الخارج فيعلم أن الرشيد يوجه اليه هذا الرسول المائل

أمامه . ولقد هم أن يرتاب ، والساعة ساعة يرتاب فيها البرى ،
ولكن الرسول يقول بهدوء :

— أمير المؤمنين يطلبك للمسامرة فعجل له .

ويثوب الى وعيه هونا ما ، ثم يلتف بعباءته ويتنعل تعلية
ويسعى الى برذونه وقد قصد أن يلقي النجع ويظفر بالرضى .
وكل شيء هادىء ، والظلام لا ينفرج عن بصيص ، وبغداد
العظيمة راقدة !

ويصل الى الأنبار ثم يخب ببرنونه تجاه القصر الذى كان على
الرشيذ أن يبرحه أمس ، ويلبث قليلا على الباب الضخم ريثما
يفتح الحارس له ، فما تبين طلعتة حتى صاح به :

— عجل يا أبا سعيد فقد انصرف مسرور منذ ساعة !

ولم يفهم شيئا ، ولكنه تبين فى لهجة الحارس شيئا فاضطرب ،
ووجد نفسه فجأة يحاول عبثا أن يذكر ذنبا ما ، وجعل يظن الظنون
وقد تصور أن تديرا كشف عن رأسه القبيح فاذا هو نفسه
مقتول ، فلما دفع الى باب الخليفة وفتح له وجده يتكئ على
وسادة حمراء وهو مطرق وعيناه مخضلتان .

حدق فيه وأطال ، ورفع الرشيذ رأسه ليأمره بالجلوس ثم
يعود الى اطراقته يطبق جفنيه على دمعتين من دموعه ، وكأنما يجهد
فى أن يجسهما فلا يرى الأصمعى ضعفه ، ثم استوى على قدميه
وهو يهتف :

— يا عبد الملك !

وأخذ الأصمعى وارتجف ، ثم اشرأب اليه بعنقه وهو يرجو

أن تحسف به الأرض قبل أن يلفظ حرفا واحدا فيطيح به ، وقال :
— لييك يا أمير المؤمنين !

ويخفض رأسه في غير اطمئنان والخوف يكاد يعصف به
ويعصف بالأرض والمجدران وهذه الطنافس وتلك الستر التي
تتحرك كأنما وراعها من يرصده . وينظر ثم ينظر ، وعندما يطول
الصمت يشعر كأنه يترفع ترشح المتأقلم العليل ، فيمدّ بصرا كليلًا
فحو الرشيد ، فيراه متألق العينين ثم يفتح فمه وينشد :
لو أن جعفر خاف أسلب الردى

لنجا بمهجته طميرٌ ملجَمٌ
ولكان حذر المنون بحيث لا

يرجو اللحاق به العقابُ القشعمُ
لكنه لما تقارب يومه

لم يدفع الحدثان عنه منجمٌ

وفي اللحظات التي كان يلقي فيها الكلمات الأخيرة من الأبيات
أشار إلى يساره فإذا شيء لم ينتبه إليه مغطى بمنديل . كأنه طست
أو كأنه قدر من قدور البصرة الكبار ، وفهم أن أمير المؤمنين
يطلب إليه رفع ذلك المنديل ، فتقدم ومدّ يده ثم ردها ،
فقال الرشيد :

— اكشف عما في الطست يا أصمعي .

ويمضى الرشيد يردد عبارته تلك في أسي يشوبه شيء من
التهديد ، فينتزع الأصمعي المنديل ثم يصرخ وهو يرتد إلى وراء .
فقد رأى في الطست رأس جعفر البرمكي !

— أرايت هذا يا أصمعى ؟

سؤال شعر كأنه يأتيه من غور سحيق وصوت الخليفة يقطر به مرارة ، ويداه ترتفعان الى عينيه كأنه يريد أن يحجب عنه الرؤية القتالة ، فيهنز رأسه وهو لا يجد لسانا مطاوعا على الاجابة ، فيسمعه يقول ثانية بصوت رهيب :
— الحق بأهلك يا بن قريب .

فتقهقر الى الباب دون أن ينبس ، ولم يتفرخ ركوعه (١) الا وهو على الباب الخارجي فانفلت يعدو وقد نسي برذونه ، ولما تذكره وهو في منتصف الطريق أبى أن يعود خشية أن يؤخذ . غير أنه راح يفكر بأناة فبدا له كأن الخليفة أراد باستدعائه أن يكشف عما كان من نتائج تعريضه هو بجعفر ودسه لأهله . ربما ، وربما أحب أن يروى للناس هذه الأبيات التي أنشدها له حتى يدرك من يدرك أنه لم يكن غافلا ، وانما كان ينتظر تقارب اليوم الرهيب !

وسرعان ما وجد نفسه ينظم أبياتا ، وهو يسأل عن بقية البرامكة ، وقد انتهى الى أن النكبة لا بد أن تكون قد امتدت اليهم . أفلم يكونوا ضالعين مع جعفر ، أو كان هو ضالعا معهم ؟ الأمر على أية حال يهيج هائج الشعر ، فليقل اذن :
أيها المغرور هل لك
عبرة في أن برمك
غرم عق قلب الله حساب الهشتمرك

(١) أى لم يذهب عنه الرعب .

وعلى باب بغداد وكان الضحى قد ارتفع أحاط بما خفى عنه ،
 فقد كان الناس يرددون أن ابن شاهك أوقع بالبرامكة جميعا
 وساق الى الرشيد كالا من يحيى وابنه الفضل وهما مكبلان ،
 فدخل داره وهو لا يزال ينظم حتى انتهى بهذا البيت
 عبرة لم ترضها أنست ولا قبل أب لك

فهل لحق الأصمعي بأهله ؟

لقد تردد ...

ثم قرر أن يبقى وقد ظن أنه ظافر بكل شيء ، وتصور أن وجه
 الرشيد قد خلص له بعد أن تولّى الفضل بن الربيع الوزارة . ولكن
 اسحاق يكيد له علنا ، ويحاول أن يفسد بينه وبين الخليفة ، ويذكر
 بأبى عبيدة من جديد !

بل يجرؤ فيضع مرتبته عند ابن الربيع نفسه ، ويغري به
 ويصف بخله ، ثم ينشده أبياتا يقول فيها :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فان العلم عند أبى عبيدة
 وآثره وقدمه عليه ودع عنك القريند ابن القريده

كان ذلك سنة ١٨٨ على وجه التحديد ، وقد وفد أبو عبيدة
 فعلا على بغداد في هذه الأثناء ورحب به الفضل ، فرأى
 الأصمعي أن دوره في دار السلام قد انتهى فشرع للرحيل وهو
 يغص ويكتم في أعماقه اللواع .

الباب الثالث

العودة إلى البصرة

الرجل الحزين

قال ثعلب « قدم الأصمعي بغداد وأقام فيها مدة ، ثم خرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة » .
تاريخ بغداد ١٠ : ١٧٤

وقال « قيل للأصمعي : كيف حفظت ونسى أصحابك ؟ قال : درست وتركوا » .

المزهر ٢ : ٣٠٣

وقال التوزي « خرجت الى بغداد فحضرت حلقة الفراء فرأيتهم يحكى عن الأعراب ، ويحتشد بشواهد ما كان أصحابنا يحفلون ببعضها ، فلما أنس بى قال لى : ما فعل أبو زيد ؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده وقد أسن ! فقال : ذاك أعلم الناس باللغة وأحفظهم لها ، ما فعل أبو عبيدة ؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده على سوء خلقه ! فقال : أما انه أكمل القوم وأعلمهم بأيام العرب ومذاهبها ، ما فعل الأصمعي ؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده . قال : ذاك أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة وأحضرهم حفظا » .

وقال أبو الطيب اللغوى « ولم ير الناس أحضر جواباً وأتقن
لما يحفظ من الأصمعى ، ولا أصدق لهجة منه » .

مراتب النحويين ٤٨

والحق أنه ظل حافظاً ، ولم يؤثر تقدم سنه — وقد بلغ
الخامسة والستين — فى ملكاتها فيضعفها ، الا أن يكون احساسه
الدائم بالتطور نتيجة طبيعية لكل ما حدث . وكان البصريون الذين
عرفهم قد تفرقوا أيدي سباً ، باستثناء قلة ما فتت تلاحقه بكيدها ،
وعلى الرأس أبو عبيدة وقد ضعف وشاخ . وحاول ابن أخيه
عبد الله أن يتصدى له فكان ينهاه ، كما عاتب ابن اخته أحمد بن
حاتم الباهلى لأنه تعرض له ببعض شر .

وقد كان البيت الذى استقر فيه قرب المسجد الجامع ، والذبول
الذى يحط على حجراته ، وذلك الشيب الذى وخط شعره ،
والحسرة التى تفرعه بمرارتها كلما عصفت به الذكرى .. كان ذلك
كله منسجماً أعجب الانسجام مع القتامة التى ترين على البصرة
وكان عهده بها مشرقة غضة نابضة بالحياة !

والتقى بنفسه فى مهاوى الكابة ، وراح يجتر خواطره ويألم
لخوالجه ، وحدث تلاميذه كثيراً عن الأمل الذى يضع . وحينما
كان يتصرف الى البيت ، يأخذ نفسه بالكتابة يريد أن يتم ما فاتته ؛
فسجل فى الشعر أموراً ، وأضاف الى نوادره نوادر ، ثم أخذ ينظر فى
كتاب المفضل الضبى وهو يفكر فى خطة تصل المرء بما فيه .
وكان فى مروره بالمربد قد رأى أبا حاتم السجستاني فاستدناهم ،

واستروح هو دعوته .. وقد رأى الأصمعي فيه سندا ما أرادت
الحمراء أن تدبر وتكيد ؛ فهو من جشم العربية ، وهو في حال
كحاله .. انقباضا وملالة من العيش ، وطاقاة مغمورة وتريد أن
تنشق باللغة والأخبار والشعر ، فضلا عن أنه يتقن العروض الذي
وضعه أستاذه الخليل .

وقد كان جلوس السجستاني الى حلقة الأصمعي اعلانا عن
مكانة الرجل ، فتحلق حوله كثيرون منهم الرياشي والتوزي
وأبو عبيد القاسم وعمر بن شبة والجُمَحِي والترمذی . بل لقد
عاد الجرمي فجلس اليه معتذرا فلقى منه ترحابا وكرما ، وأفرد القوم
أماكن للشباب الطلعة فظهر شاب صغير عريض أسمر متورم
الجفنين ، ولكنه كان جم الذكاء .. اسمه عمرو بن بحر ويطلقون
عليه الجاحظ ، ولم يكن الأصمعي يهش له كثيرا لأنه كان معتزليا ،
ويبدو أنه أحس ذلك تماما لأنه أخذ يقول عليه ، ويوم شوهده
الأصمعي يركب حمارا هزيبا أشاع عنه ما أشاع من أسباب
البخل ، ولكن الأصمعي الذي كان يزهد في متاع الدنيا لم يلتفت
الى هرائه قط !

ولقد بدأت متاعب الأصمعي الحقيقية — منذ عاد الى
البصرة — بعد قراءته كتاب أبي عبيدة « مجاز القرآن » وضادف
أن كان أبو حاتم في حلقة فسمعه يملأ بيتا لأحد المهذلين وقع
في آخر قصيدته وهو :

حتى إذا أسلكوهم في قَتَائِدَ
شَلًّا كما تَطْرُدُ الْجَمَالَ الشُّرُداً (١)

ويقول أبو عبيدة فيه : هذا كلام لم يجيء له خبر ومثله قول
الله عز وجل « ولو أن قرأنا سثيرت به الجبال أو قُطِعت به
الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعا » . فجاء أبو حاتم
إلى الأصمعي وأخبره بذلك فاستشيط غضبا وقال :
— أخطأ ابن الحائك وإنما الخبر في قوله « شلا » كأنه قال
« شلوهم شلا » ولكن اصبر .. فإني أظنه كما قال لأن أبا الجودي
الراجز أنشدني :

لَوْ قَدَّ حَدَاهُنَّ أَبُو الْجُودَى

بِرَبْجَزٍ مُسْحَنَفَرٍ السُّرُودَى

مستويات كنوى البرني (٢)

فهذا كلام لم يجيء له خبر ، ومع ذلك فلماذا يقحم القرآن
وهو ليس بأهل له ؟ انه في مجازه يفسر برأيه !
سمع أبو عبيدة بكل ذلك فركب حماره ومر بحلقة الأصمعي
في المريد — وقد تعود ذلك — فنزل عن حماره وسلم عليه ، ثم
جلس يحادثه كأنما لم يأت من أجل شيء معين ، وفجأة صاح :
— يا أبا سعيد ما تقول في الخبز ؟

(١) قَتَائِدَ : موضع ؛ الجمالة : أصحاب الجمال ؛ يقول حتى
إذا أسلكوهم هذا الموضع شلوهم شلا .
(٢) مسحنفر : ممتد ؛ البرني : ضرب من التمر أصفر مدوّر
واحدته برنية .

أجاب :

— هو الذى تخبزه وتأكله !

فقال أبو عبيدة :

— آه .. فسر كتاب الله برأيك قال الله تعالى « انى أراينى

أحمل فوق رأسى خبزا » .

قال الأصمعى :

— هذا شيء بان لى فقلته ولم أفسره برأى .

فقال له أبو عبيدة :

— وهذا الذى تعنيه علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره

برأينا .

ثم لم ينتظر أكثر من هذا ، وقام الى حماره فركبه ، فقال

الأصمعى :

— ألم يبلغه ما قال القراء بدار السلام ؟ قال لو حمل الى

أبو عبيدة لضربه عشرين فى كتاب المجاز !

شذرات في اللغة

قال المبرد « كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو ، وكان أكثر من الأصمعي في النحو ، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام والأخبار ، وكان للأصمعي يد غراء في اللغة ، لا يعرف فيها مثله وفي كثرة الرواية » .

نزهة الالباء ١٥٢

لقد كان يحرص الحرص كله على أن تظل اللغة كما خلفها العرب الأولون كاملة قوية سليمة البنيان ، حقا كان لهؤلاء العرب كلام على معان — كما يقرر — فاذا ابتدلت تلك المعاني « لم يتكلم بذلك الكلام » الا أن هذا المتروك أو المبتدل يجب ألا يخل بالكيان العام . فهذا من صور التطور ، ولكن ينبغي ألا يجعله الحمراء وسيلة الى تدمير اللغة !

— هذا الدرس يجب أن نجعله أساسا للادراك الصحيح فاذا قلنا « ساق اليها صداقها » لا فصيح الا اذا كان الصداق ابلا وغنما ، وقد اتقضى هذا . ولكن من له حق الحكم ؟ نحن لا نجوز

الا الأصح ولا يعرف الأصح الا ذوو البصر باللغة ، وهم هؤلاء
الذين يخافون ويصدقون .
فقال واحد من تلاميذه :

— من تعنى على وجه التحديد ؟

واخرجت شفاه عن ابتسام وضاحت شفاه بغضب ، ولكن
الأصمى مضى يقول وكأن أحدا لن يسأل :

— وأعنى الذين انتهى اليهم علم اللغة !

قال آخر :

— ولكنهم يختلفون .

وقال ثالث ، وكان أبا حاتم السجستاني :

— وفى هذا يتفاوت الثقات ، ألم تر أنهم يقولون فاذ الميت

وفاظت نفسه وفاضت نفسه ؟

وهنا أشار الأصمى الى تلميذه برفق وقال :

— أنا أقول فاذ الميت وفاضت نفسه .

قال السجستاني :

— وهم يقولون فى التهديد أبرق وأرعد .

فتبسّم الأصمى وقال :

— لست أقول ذلك الا أن أرى البرق وأسمع الرعد .

فقال أبو حاتم :

— لقد قال الكميت :

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لى بضائر
قال الأصمى :

— الكمية من أهل الموصل وليس بحجة ، ولكن الحجة

من يقول :

إذا جاوزت من ذات عرق ثنية

فقل لأبي قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلي وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله .

وقد كان أبو حاتم وهو يناقش أستاذه يريد أن يكشف عن كنوز ما في حافظته ، فضلا عن أنه كان يرى أن التعصب له غناء للعرب أي غناء . فكلاهما مرصود مراقب ، وكلاهما يرجو أن يمنع فساد الموالي الذين يصدر عن عزم أكيد على النيل من العرب عن طريق لغتهم .

وكان الأصمعي نفسه لا يريد أن يظهر متعنتا ولا متكبرا تياها ، بل كان يعترف بقصوره إذا اختبر وأرتج عليه . فقد سئل في الحلقة نفسها وقد تشعب الكلام فيها عن « الحسبر » فقال ببساطة :

— لا أدري أهو الحبر بكسر الحاء وفتحها للرجل العالم .

غير أنه لما عوتب على أنه يخطيء كبارا كبشار وذو الرمة

وجري قال :

— هؤلاء أعوزهم الغريب وأفسدهم التحضر ، فذو الرمة

الذي يشهد مثلا :

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة

أراك لها في البصرة اليوم ثاويا

يخطيء كما تخطئون فهو ليس بحجة ، إذ طالما أكل المالح

والبقل في حوائيت البقالين ، ألم يقرأ قوله تعالى « أمسك عليك زوجك » .

وعندما ساد الصمت تقدم أبو حاتم يسأل :

— وماذا في قول الشاعر القديم وكنت أجزته يا أبا سعيد :
فبكي بناتي شجوهن وزوجتي

والطامعون الى ثم تصدعوا

قال الأصمعي :

— الأصح ما جاء في كتاب الله وان كنت أجزت قول القديم
فقد أخطأت وان يكن خطئي صوابا عند غيري . هي الأيام تعلم
وتهدي من أراد التعلم والهداية . لقد وضعت كثيرا من الكتب
وأنا دون العشرين ووضعت كتباً بعد تحصيل طويل وأنا فوق
الستين ، فليس يستوى ما وضعت والعمر ، لأن أفضل ما كان
عند الرجل اذا احتتك .

ورن في صوته ذلك الرنين الحبيب الذي لم يفارقه قط ،
واشتد تلاميذه دنوا منه مأخوذين ، على حين أخذ يستطرد قائلاً :
— كتبت كتباً ربما كان الخير في أن يطلع عليها المنصفون ،
غير أنها لم تكن الا مستهل علم رجوت أن يكبر ويرسخ . وأمس
فقط راجعت شيئاً من هذه الكتب أو « كتاب النبات والشجر »
فماذا رأيت فيه ؟ رأيت دأب الشباب وبهجته ، ولكني لم أر عمق
الشيخوخة وأفاتها . لقد بدأته بقولي بعد الحمد رأيت أرض بنى
فلان غب المطر واعدة حسنة اذا رجلي خيرها وتمام نبتها في أول
ما يظهر النبات . وأنهيته بذكر الرعم والصاب.. ذلك الشجر بالغور

الذى اذا قطع خرج منه لبن يحلب العين اذا أصابها ، وبين
سقوط المطر وتحلب العين لا نرى الا الاسم بعد الاسم والشعر
تمليه المناسبة !

وأخرج أوراقا ونشرها ثم راح يمرر عينيها عليها دون أن يتبس
وتلاميذ صامتون ، والمكان كله هادئ الا من صوت شيوخ
الحلقات الأخرى ترتفع هونا ما ، ومن بعيد ضحك عابث لمن
يجلس فى الصحن من المسجدين .

— ويقال أخوص العرفج بخوص أخوصا اذا اكتسى وتم

توريقه ..

وتوقف مبتسما ثم استطرد :

— والعبهر وهو النرجس والسمسق وهو المرزنجوس

وبعضهم يسميه العبقر .

وتضاءل صوته حين راحت عيناه تمر على الصفحات فى

تثاقل ، وهنا قال أبو حاتم السجستاني :

— ان لم يكن فيه الا جهد الجمع فذلك حسبك ، وجبذا

لو أمليته علينا ثم أمليت غيره ما كان فى العمر بقية .

فأطرق الأصمعى مليا ثم قال :

— هيهات يا سجستاني ! أتظن فى العمر بقية ؟

رَبِيعُ الشَّعْرِ

ظل في العمر بقية فشاهد أحداثا مع امتداد الزمن ، وهاج علي
الأمجاد يقى لها بوقفات مع عترة الذي ذهب بعامة ذكر الحرب ،
ثم ربط بها انتصارات الرشيد في مرويات كبار .

ولو شاء أن يسلك في كتبه سبيل المؤرخين لسجل وفاة الكبار
الذين كانوا من جيله كالقراء والكسائي ولكنه رفض هذا العمل ،
على أنه لم يجد مقرا من أن يعلن اغتيابه بوفاة يحيى البرمكي
عام ١٩٠ ، ثم ود لو سافر الى الرقة فوصل من جديد حبله بحبل
الخليفة ، وأبت الظروف الا أن تجعله رهين بلده يرصد للحمراء
وقد شمروا عن ساعد الجد باتساع نفوذ أسرة بني سهل المجوسية .
ثم يموت الفضل بن يحيى وهو في حبسه بالرقة ، ويعقبه
الرشيد نفسه وهو بين يدي ابن الربيع واسماعيل بن صبيح ،
وخادمه مسرور .. فتعجس الهاجسة في فؤاد الأصمعي ، ولكنه
لا يفكر الا في أن يموت ميتة الأبرار .

ورأى اكمالا لرسالته أن يدلي برأيه فيما تبقى من مسائل
العلم الى أن تحين منيته ، ولكن السنين تطول . واذا يشعر
بإدارة الضعف تريد أن تعبت بذكرته يعود الى مدونات ليقراً

مفضليات الضبى على ضوءها ، ثم يفسرها ، ويشعر في املاء
« الأصمعيات » من أوراق كان أعدها منذ سنوات .

وربطه بين المفضليات والأصمعيات — وكلها من عيون الشعر —
قائم على أساس أن اختيارات الضبى تحقق معنى « الفحولة »
التي يجعلها هو الفیصل في تقبل شعر الشاعر . ولقد طالما أشار
الى هذا المعنى في محاضراته ومناقشاته ، ولما سأله أبو حاتم عن
معنى الشاعر الفحل قال :

— يراد أن له مزية على غيره كمزية الفحل على الحقائق ،
وبيت جرير يدلک على هذا .

وابنُ اللبون إذا ما كُنَّ في قَرَن

لم يستطع صولة البزل القناعيس (١)

ولكنه خلط وهو يملئ بين ما رواه المفضل الضبى وما زاده
هو ، فكان الذى يقارن بين نسخة المفضل الأصلية وبين ما يملئ
يأخذه شيء من الاضطراب ؛ ففى ميمية سنان بن أبى حارثة التى
يقول فى أولها :

قتلٌ للشلم وابن هند بعده ان كنت رائم عزفا فاستقدم
أربعة آيات أخيرة — مع أن كلها تسعة — يرويها الضبى
لبشر بن أبى خازم .

وأصمعيته اللامية التى نسبها لعبد قيس بن خفاف التميمي

(١) ابن اللبون : ولد الناقة فى دخوله الثالثة من عمره ، قرن :
جبل مفتول ، صولة : وثبة ، البزل : جمع بازل وهو البعير الذى طلع
نابه فى التاسعة من عمره ، القناعيس : الشداد .

هي من مرويات المفضل وان اختلف عنه في ترتيب أبياتها ، وإلى جانب هذا يضيف بيتا من عنده يقول فيه :

واستأنِ حلمك في أمورك كلها

وإذا عزمت على الهوى فتوكل

وذكر عن حبيب بن شاذب مرثية رواها أبوه لكعب بن سعد الغنوي ، وقصيدة من البحر نفسه وبالروى ذاته نسبها لغريقة بن مسافع العبسي ، فاختلف حولها تلاميذه . وذهب بعضهم إلى أنه لا شك أخطأ أو وهم — لضعفه بلا جدال في هذه السن — لأن ماءهما واحد والسياق يستلزم وحدتهما ، ولكن أحدا لم يملك أن يراجعه .

وقد أثارت أماليه تلك كبار حفاظ عصره ولا سيما أبا عبيدة ، الذي كان قد بلغ أرذل العمر . فاحتدم النزاع بينهما وان لم يكن من القوة بحيث يلفت الأنظار ، وكان أخطر ما فيه محاولة الأصمعي أن يكشف عن كذب أبي العتاهية وسوء خلقه ، اذ رآه يقرر أن البيتين التاليين :

هم هينون وأيسار ذوو كرم

سواس مكرمة أبناء أيسار

ان يسألوا الخير يعطوه وان خبروا

في الجهر أدرك منهم طيب أخبار

هما للعرندس الكلابي يمدح بعض الغنوين ، ففضحه واتهمه بالوضع ، وأعلن ذلك بقوله :

— معال أن يمدح كلابي غنويا لما بينهما من العداوة .

وكان أبو حاتم وعبد الرحمن بن عبد الله بن قريب حاضرين
أطراف المناقشة فاستفتيا الأصمعي شيئا فأفاض في ذكر الغنوين،
وانطلق يقول بصوته الهادئ الرخيم :

— حدثنا شيخ من أهل نجد قال كان طفيل الغنوى يسمى
في الجاهلية مجبرا لحسن شعره ، ولم أجمع له فيما جمعت وأنا
أقرأ المفضليات .

قال أبو حاتم متسائلا :

— وامرؤ القيس الذي جمعت شعره ؟

فأجاب الأصمعي بثقة :

— طفيل عندى أشعر من امرئ القيس .

وهذا الاعتراف الحاسم هو الذى جعله في الوقت نفسه يحق
الحق أولا فقال :

— وقد أخذ طفيل من امرئ القيس شيئا ، وكان معاوية
ابن أبى سفيان يقول « دعوا لى طفيلا فإن شعره أشبه بشعر
الأولين من زهير » .

قال ابن أخيه :

— كأنك تريد أن تجعل الشعر كله لطفيل .

فقال الأصمعي :

— لا والله ، ولكن اليك ما أعرف . لقد سئل شيخ عالم
من الشعراء فقال « كان الشعر في الجاهلية في ربيعة وصار في
قيس ، ثم جاء الاسلام فصار في تميم » .
وهنا قال أبو حاتم :

— لمَ لم يذكر اليمن ؟

فأجاب :

— انما أراد بنى نزار فأما هؤلاء كلهم فانما تعلموا من رأس

الشعراء امرىء القيس ، وانما كان للشعر في اليمن .

وصبت قليلا ثم استنطرد قائلا :

— أفي الدنيا مثل فرسان قيس وشعرائهم ؟ منهم عنبرة وخفاف

ابن ندبة وعباس بن مرداس ودريد بن الصمة .

وصبت ثانية ثم عاد يقول :

— ذكرت عنبرة كثيرا ، وفي املائي للأصمعيات ذكرت لخفاف

أربع قصائد واخترت لابن مرداس واحدة ولابن الصمة اثنتين ..

أتذكران ؟

قال عبد الرحمن :

— ولكن أى الناس طرا أشعر ؟

فأجاب مسرعا :

— النابغة عندي .

قال :

— تقدم عليه أحدا ؟

أجاب :

— لا ، ولا أدركت العلماء بالشعر يفضلون عليه أحدا .

قال السجستاني :

— فزهير بن أبي سلمى ؟

قال :

— اختلف فيه ، قال أبو عمرو وقد سأله رجل « النابغة
أشعر أم زهير » ما يصلح زهير أن يكون أجيراً للنابغة .. أوس
ابن حجر أشعر من زهير ولكن النابغة طأطأ منه ، قال أوس
« بجيش ترى منه القضاء معضلاً » في قافية وقال النابغة فجاء
بمعناه في نصف بيت وزاد شيئاً آخر فقال :

جيش يظل به القضاء معضلاً يدع الأكام كأنهن صحارى
وعلى هذا النحو يطول الحديث ويتشعب ، فيجذب الطلاب
الشباب والشيوخ على حد سواء ، فينصت من ينصت ، ويكتب
من يكتب . والرجل الرزق لا يكل ولا يمل ، وإنما يمضى حتى
يدوى صوت في المسجد فجأة قائلاً :

— يا معشر المسلمين لقد خطب الأمين أمير المؤمنين لابنه
موسى في جوامع بغداد ولقبه الناطق بالحق .
وتصايح قوم هنا وهناك متسائلين :

— والمأمون ؟

ولم يجب أحد ، ولكن الأصمعى ينهض فجأة جامعاً أوراقه
وهو يردد لنفسه :

— لا شك أنه أبطل اسمه من الخطبة . أتسمعون ؟

التاجر البخيل

وقع ما كان يخشاه الأصمعي .. فقد كان خلع الأمين أخاه
من ولاية العهد ايدافا بتصادمهما ، وكان يرى أن الحرب بينهما
ان كانت تقدم شرا فليس أكبر من أن ينتصر الحمراء وكانوا قد
أعلنوا موافقتهم على أن يثور المأمون بخراسان .

غير أن شيئا آخر كان يملأ صدره اشفاقا ، هو اضطراب
الأمر في اقطاعه الزراعي .. وكان قد أصبح من ذوى اليسار
باتجاره في الأثمار والابل جميعا ، ورأى أن امتداد القتال الى
البصرة يعنى فساد ما يرجو لعيشه طال أم قصر .

وكان في هذه الأثناء يتعرض لحملات الجاحظ تعرضه لحملات
أبى عبيدة ، ان حملات الجاحظ كانت تدور غالبا حول تضييقه في
العيش على نفسه ، وكان قد قيل له على ما مر في حادثة الخمار
الهزيل .

— بعد براذين الخلافة تركب هذا ؟

فقال متمثلا :

ولما أبت إلا طرأقا بيوردها

وتكديرها الشرب الذى كان صافيا

شربنا برنتق من هواها مُكْدَر
وليس يعاف للرنق من كان صاديا

هذا وأملك ديني أحب الى من ذلك مع فقده !
ومضى بهذا الحمار الهزيل حتى دخل الجامع ، فقابله التوزي
متهللا ، ثم قال له :

— كنت في حلقة أبي عبيدة فذكرت قول الشاعر :

وأضحت رسوم الدار قفرا كأنها

كتاب محاه الباهلي بن أصمعا

فقال « هذا يقوله في جد الأصمعي » .

وتغير وجه أبي سعيد وشعر بالاضطراب .. فقد كان على
ابن أصمع جد أبي الأصمعي يتولى محو المصاحف المخالفة لمصحف
عثمان من قبل الحجاج ، ولم يكن الأصمعي يظن أن أبا عبيدة
يعرف هذه الواقعة ، أما وقد تحقق هذا فقد وجب أن يبين وجه
الحق ، الا أنه قال :

— هذا كتاب عثمان ورد على ابن عامر ، فلم يجد من يقرؤه

الا جدي !

وكان الجاحظ حاضرا فانبرى يقول :

— أنتظن ذلك يا أصمعي ؟ . ومع ذلك فدعني أسأل هل كان

جدك بخيلا ؟

ولم يعجب أحدا سوء أدبه ، وودوا لو سكت الا أنه استرسل

يقول :

— كأنما كان الباهليون جميعا الأصمعي الذي يرفض أن
يقرض مما أنعم الله عليه ، ألم يقل فيهم الشاعر :
وللباهلى على خبزه كتاب لا كله الاكله
قال الأصمعي مبادرا :

— ان كنت ترى فى البخل شتما فذلك أكبر الوهم ، ولكن
الذى يستقرض منه ثم يأبى لا يكون بخيلا مطلقا ، فشر الأمور
طلب القرض بأى سبيل . وقد بلغنى أن رجلا أتى صديقا يستقرض
منه مالا فتركه بالباب ثم خرج اليه مؤتزرا فقال له « مالك » قال
« جئت للقتال واللطم والخصومة والصخب » قال « لم ؟ »
قال « لأنك فى أخذ مالى بين حالين .. اما أن تذهب به واما أن
تمطلنى به ، فلو أخذته على طريق البر والصلة لاعتددت عليك
بحق ولوجب عليك به شكر ، واذا أخذته من طريق السلف كانت
العادة فى الديون والسيرة فى الاسلاف الرد أو التقاضى ، واذا
تقاضيتك أغضبتك ، واذا أغضبتك أسمعتنى ما أكره ، فتجمع
على المطل وسوء اللفظ والوحشة وافساد اليد فى الاسلاف وأنت
أظلم ؛ فأغضب كما غضبت ، فاذا نقلتني الى حالك فعلت فعلك ،
وصرت أنا وأنت كما قال العربى « أنا تتق وصاحبى متق » فما
ظنك بتتق من الغيظ مملوء من الغضب ، لأنى متاق من الموق
مملوء من الكفران .

ولكنى أدخل الى المنزل فأخرج اليك مؤتزرا ، فأعجل لك
اليوم ما ادخرته الى غد ، وقد علمت أن ضرب الموعظة دون ضرب

الحقد والسخيمة ، فتربح صَرْفَ ما بين الأملين ، وفضل ما بين
الشتين .

وبعد ، فأنا أضن بصدائني لك وأشح على نصيبي منك من
أن أعرضه للفساد ، وأن أعينك على القطيعة ، فلا تلمني على أن
كنت واحدا من أهل عصرك ، فإن كنت عند نفسك فوقهم وبعيدا
من مذهبهم فلا تكلف الناس علم الغيب فتظلمهم .
وسكت الأصمعي قليلا ثم مضى يقول :

— وما زالت العارية مؤداة والوديعة محفوظة فلما قالوا
« أحق الخيل بالركض المعار » بعد أن كان يقال « أحق الخيل
بالصون المعار » فسدت العارية واستد هذا الباب ، ولما قالوا :
شمر قميصك واستعد لنائل

واحكك جبهتك للقضاء بثوم
واخفص جناحك إن مشيت تخشعا

حتى تصيب وديعة ليتم

وحين أكلت الأمانات الأمانة والأوصياء ورتع فيها المعدلون
والصرافون ، وجب حفظها ودفنها ، وكان أكل الأرض لها خيرا
من أكل الخئون الفاجر والليث الغادر ، وهذا مع قول أكثم بن
صيفي في ذلك الدهر « لو سئلت العارية أين تذهبين ؟ قالت :
أكسب أهلي ذما !

وأنا اليوم أتنهى عن العارية والوديعة ، وعن القرض والقرض ،
وأكره أن يخالف قولي فعلى . أما القرض فلما أنبأتك ، وأما
القرض فليس يسعه إلا بيت المال ، ولو وهبت لك درهما واحدا

لقتحت على مالى بابا لا تسده الجبال والرمال ، ولو استطعت أن
أجعل دونه ردما كرددم يأجوج ومأجوج لفعلت . ان الناس فاعرة
أفواههم نحو من عنده دراهم ، فليس ينعمهم من النهس الا اليأس ،
وان طعموا لم تبق راغية ولا ثاغية ولا سبد ولا لبد ولا صامت
ولا فاطق الا ابتلعوه والتمهوه .

أتدرى ما تريد بشيخك ؟ انما تريد أن تفقره ، فان أفقرته فقد
قتلته ، وقد تعلم ما جاء في قتل النفس المؤمنة !

ثم نهض الأصمعى مغضبا وقد أحس أن الجاحظ وصله الى
غير ما يليق ، وكلفه بما قال شططا . فهو قد يكون حريصا ، وهو
قد يقول على سبيل التندر « نعم الادم الجوع » الا أنه في صنيعة
هذا لا يقترف أى مشين ، وهذه الحياة لا يعرف الانسان ما تلخره
له ! فربما كان الحرمان ، وربما كان التشريد ، وربما كان الفقر ..
فليس بد من أن يطمع فيما يبغضه الى الناس ذلك الأسمر الغليظ
ذو العينين الجاحظتين .

ولعله حين فارق مجلسه لم يكن يعرف أن الحديث عن حرصه
سيمتد ، والا لكان جلس وتحمل عبء التحدى حتى النهاية .
والواقع أن الجاحظ أبى الا أن يخوض فيما بدأ فيه ، ولهذا
راح يقول :

— لقد شهدته والله يوما يقبل على جلسائه يسألهم عن
عيشهم وعما يأكلون ، فأقبل على الذى عن يمينه فقال « أبا فلان
ما ادامك ؟ » قال « اللحم ! » قال « أكل يوم لحم ؟ » قال

« نعم ! » قال « وفيه الصفراء والبيضاء والحمراء والكدراء والحامضة والحلوة والمرة ؟ » قال « نعم ! » قال « بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب . كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا وكان يقول : مدمن اللحم كملمن الخمر ! » .

ثم سأل الذي يليه قال « أبا فلان ما ادامك ؟ » قال « الآدام الكثيرة والألوان الطيبة » قال « أفى ادامك سمن ؟ » قال « نعم ! » قال « فتجمع السمن والسمين على مائدة ؟ » قال « نعم ! » قال « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان اذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدورها فى قدر واحدة وقال : ان العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضا ! » .

ثم يقبل على الآخر فيقول « أبا فلان ما ادامك ؟ » قال « اللحم السمين والجداء الرضع » قال « فتأكله الحشواترى ؟ » قال « نعم ! » قال « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أترونى لا أعرف الطعام الطيب ؛ لباب البر بصغار المعزى ألا تراه كيف ينتهى من أكله ويتحل معرفته ؟ » .

ثم يقبل على الذى يليه فيقول « أبا فلان ما أدمك ؟ » فيقول « أكثر ما فأكل لحوم الجزور ، وتتخذ منها هذه القلايا ، ونجعل بعضها شواء » قال « أفتأكل من أكبادها وأسنتها وتتخذ لك الصباغ ؟ » قال « نعم ! » قال « ليس هذا عيش آل الخطاب ..

كان ابن الخطاب يضرب على هذا ، أو ما سمعته يقول : أتروني لا أقدر أن أتخذ أكبادا وأفلاذا وصلاتق وصنايا ؟ ألا تراه كيف ينكر أكله ويستحسن معرفته ؟ » .

ثم يقول للذي يليه « أبا فلان ما أدمك ؟ » فيقول « الشبارقات والأخبصة والقالوذجات » قال « طعام العجم وعيش كسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السمن » .

حتى أتى على آخرهم ، وفي كل ذلك يقول « بس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب ، كان ابن الخطاب يضرب على هذا » فلما انقضى كلامه أقبل عليه بعضهم فقال « يا أبا سعيد ما أدمك » قال « يوما لبن ، ويوما زيت ، ويوما سمن ، ويوما تمر ، ويوما جبن ، ويوما ققار ، ويوما لحم ، عيش آل الخطاب » .

ولما انتهى الجاحظ من روايته وأغلق فمه الكبير توزع الحاضرون بين معجب به ومشفق على الأصمعي ، غير أن حديثه الطريف برغم ما فيه من تعريض بأستاذهم أغرى واحدا بحكاية عنه فمضى يسردها عليهم بقوله :

— تمشى قوم الى الأصمعي مع تاجر كان اشترى ثمرته لخسران كان فاله ، وسأله حسن النظر والحطيطة ، فقال الأصمعي « أسمعتم بالقسمة الضيزى ؟ هي والله ما تريدون شيخكم عليه . اشترى منى على أن يكون الخسران على والربح له ، هذا وأبيكم تجارة أبي العنيس ، اذهبوا فاشتروا على طعام العراق على هذا الشرط .. على أنى والله ما أدري أصادق هو أم كاذب ، وها هنا واحدة وهي لكم دونى — ولا بد من أن أحتمل لكم اذ لم

تحتملوا لى — والله ما مشيتم معه الا وأتتم توجبون حقه
وتوجبون رفده . لو كنت أوجب له مثل ما توجبون لقد كنت
أغنيته عنكم وأنا لا أعرفه ولا يضربنى بحق ، فهلموا تتوزع
هذه الفضلة بيننا بالسوية ، هذا حسن ممن احتمل حقا لا يجب
عليه فى رضى من يجب ذلك عليه « فقاموا ولم يعودوا ، فخرج
إليه التاجر من حقه ، وأيس مما قبله .
ويرتفع ضحك من هنا وهناك ، ثم ينهض القوم متساقلين !

معرض

ويأتيه نبأ يشغله عن متابعة الصراع بين الأخوين ، وانكسار
الأمين في معاركه الأولى ، وطلب المأمون أن يخاطب بأمر
المؤمنين بعد أن عقد للفضل بن سهل من جبل همدان الى التبت
ومن بحر فارس الى بحر الديلم ، وبعد أن ولّى أخاه الحسن بن
سهل ديوان خراجة .. يأتيه نبأ موت سفيان بن عيينة ، صديقه
وأستاذه المحدث ، الذي شفع له عند المهدي أيام الشدة .. يأتيه
هذا النبأ مع أخبار هزائم العرب وانتصار طاهر بن الحسين
— قائد المأمون — في الأهواز وواسط والمدائن حتى نزل صرصر.
ولقد بكى فيه كل شيء ، وأعلن في قصيدة رثاء سخطة على
الشامتين ، ثم تعرض فيها للزنادقة والملحدين على أساس أنهم
غالبية الجيش المأموني الذي يجتاح العراق ويوشك أن يظا
البصرة :

فليُك سفيان باغى سُنَّة

ومستيت لثارات وآثار

أمت مجالسه وحشا معطلة

من قاطنين وحجاج وعمار

مَنْ لِلْحَدِيثِ عَنِ الزُّهْرِيِّ حِينَ ثَوَى

وَاللَّاحِدَاثِ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ

لَنْ يَسْمَعُوا بَعْدَهُ مَنْ قَالَ : حَدَّثَنَا الزُّ

هْرِيُّ ، مِنْ أَهْلِ بَيْدَاءٍ وَأَمْصَارٍ

لَا يَهْنَأُ مِشَامَتُ الْمَسْرُورِ مَصْرَعُهُ

مِنْ مَارْقِينَ وَمِنْ جُحَادٍ أَقْدَارٍ

وَمِنْ زَنَادِقَةٍ جَهَمَ يَقْوَدُهُمْ

قَوْدًا إِلَى غَضَبِ الرَّحْمَنِ وَالنَّارِ

وَمُلْحَدِينَ وَمُرْتَابِينَ قَدْ خَلَطُوا

بِسُنَّةِ اللَّهِ اهْتَارًا بِاهْتَارِ

واعتزل بعدها الناس شيئا وهو يستشعر وهنا ، فيحل تلاميذه

يساحته وهم يطعمون أن يملئوه عزما ويسمعوا منه في الوقت

نفسه . ولقد ظل حفا بهم وظن بالأيام خيرا ، وأنشأ يقدم ما يقدر

عليه ، وتنقل بهم بين الشعر واللغة والأخبار والمعارك .

وفي ذات مرة يطعن رجل على شعر أبي عطاء السندی ، فيأبى

إلا أن يضع الحق موضعه فيقول :

— أخبرني أبو جندل بن الراعي قال : لما دفن يزيد بن عمر بن

هيرة قال أبو عطاء السندی :

عليك بباقي دمعها لجمود

إلا أن عينا لم تجد يوم واسط

جيوب بأيدي ماتم وخدود

عشية راح الدافنون وضرجت

أقام به بعد الوقود وفود

فإن تمس مهجور الفناء فطالما

بلى ، إن من تحت التراب بعيد

وأنك لم تبعد على متعهد

أفيقال لهذا لا يحسن !

وفي مرة أخرى — وكان مجلسه يجمع التوزي والرياشي وأبا حاتم والخليل بن أسد ورجلا خراسانيا اعتاد أن يزوره على وفاء لم يلقه من أغلب الحمراء — وقف عليه أعرابي من بني أسد يقول له :

— ما معنى قول الشاعر :

لا مال إلا العطاف تؤزره أم ثلاثين وابنة الجيل
ولم يكن في حاجة إلى أن يشحذ ذاكرته أو يفكر ، وكأنها كان
ينتظر المبادرة من الأعرابي ليندفع ينشد باقى الشعر :

عَصْرَتُهُ نُظْفَةً تَضَمَّنَهَا لَصِبٌ تَلَقَّى مَوَاقِعَ السَّبَلِ
أو وجبة من جناة أشكلة إن لم يرغها بالقوس لم تُنَلْ (١)

ويقرر أن صاحب الشعر وهو صعلوك انما وصف صائدا
فأخبر أنه لا مال له إلا العطاف وهو السيف ، فقد قال الشاعر :

رَأَيْتُكُمْ يَا بَنِي عِيَاذِ عَدُوْتُمْ
على مال ألوى لا سنيد ولا ألف
ولا مال لي إلا عطاف ومدرع
لكم طرف منه حديد ولي طرف (٢)

فعجب الأعرابي وقال :

-
- (١) نطفة : ماء صاف ؛ لصب : مضيق واد ؛ جناة : مايجنى ؛
أشكلة : ذات لونين مختلفين ؛ لم يرغها : لم يخدعها .
(٢) ألوى : شديد الخصومة ، السنيد : الدعى ، المدرع : الدراعة
أو الدرع والجمع مدارع .

— ما رأيت عضنة كالיום .
وفي مرة ثالثة وكان المجلس هو هو فأشبهه اليوم أمس ، وقف
بسياحته أعرابي يتساءل قائلا :

— أنت الأصمعى ؟

قال :

— نعم !

فقال الاعرابى :

— أنت عالم أهل الحضر بكلام العرب ؟

أجاب برقة وعذوبة :

— كذلك يزعمون .

فقال الأعرابي كأنه يختبر :

— ما معنى قول أمية بن أبى الصلت :

وما ذاك الا الديك شارب خمرة

نديم الغراب لا يمل الحوانيا

فلما استقل الصبح نادى بصوته

ألا يا غراب هل رددت ردائيا

فقال الأصمعى :

— ان العرب كانت تزعم أن الديك فى الزمان الأول كان
ذا جناح يطير فى الجو ، وأن الغراب كان ذا جناح كجناح الديك لا يطير
به ، وأنهما تنادما ذات ليلة فى حانة يشربان فنقد شرابهما ، فقال
الغراب للديك « لو أعرتنى جناحك لأتيتك بشراب » فأعاره جناحه

فطار ولم يرجع ، فزعموا أن الديك انما يصيح عند الفجر استدعاء
لجناحه من الغراب .

فضحك الأعرابي وقال :

— ما أنت الا شيطان !

وفي مرة رابعة يستزيره رجل فيمكنه من زيارته ، وقد وجد
الأصمعي عنده دأبا وشغفا بالعلم ، وفيما هو آخذ بمحادثته
يقول له :

— زعم أبو زيد أن الندى ما كان في الأرض والسدى
ما سقط من السماء .

فغضب الأصمعي وقال :

— فما يصنع بقول الشاعر :

واقْدَأْتِ أَيْتُ الْبَيْتِ يُخْشِيْ أَهْلُهُ

بعد الهُلُوْ وبعد ما سقط الندى

أفتراه سقط من الأرض الى السماء ؟

وكان الأصمعي بكل هذا يؤكد أنه لا يزال يقوى على ما يعجز
عنه غيره ، وأنه أحرص ما يكون على تجريد لسانه لتقويم المعوج
من تلك الحياة ، ولم يكن يبجد مقوله في هجاء الا اذا عرض
الكفر ، وذكر العرب بشر .. في هذه الحال لا يغريه خوف
بسكوت ، ويستنهضه الغضب الى شيء جرىء ربما كان من
السهل أن يطيح به !

ويعجب الرجل الخراساني بهذا العلم ، وكان لقن أنه لا شيء
اذا قيس بأبي عبيدة ، فيقدم عليه سائلا :

— أين كتبك يا أبا سعيد ؟

وهنا يشير الأصمعي الى شيء في زاوية الحجرة .. شيء يستقله

الخراساني فيقول دهشا :

— ليس الا !

قال الأصمعي :

— لا .. وانه من حق لكثير

ولم يخبره أنه وكل بكتبه ابن أخيه عبد الرحمن وابن أخته

أحمد بن حاتم الذي أصبح منذ مرضته أقرب الناس اليه ، حتى

قال لتلاميذه عنه :

— ما يصدق عليّ الا أبو نصر !

الشيخ في المربد

— استبدلت الخلافة الفضل بن سهل بالفضل بن يحيى ،
فماذا يفعل الفضل بن الربيع ؟

قال ذلك أبو عبيدة وهو يعلم أنه يغيظ الأصمعي ؛ فقد
اتضح على وجه التحقيق مقصد المأمون وكان عبد السبل والمنافذ
الى بغداد ، وأغرى الناس بخلع الأمين ، ثم قبل من الفضل بن
سهل كل محاولاته لجعل الملك كسرويا . على أن ما آلم الأصمعي
حقا هو أخذه بأسباب الحديث على أساس أن الأمر قد استقر
نهائيا للمأمون ، وفي هذا معنى أن ما يقدم ابن الربيع من تدبير
لن يمنع المقدر من الوقوع ، وسيمضي الأمين هذا الذي يذكر
الأصمعي أن الرشيد قال له يوما :

— لا تعلمه ما يفسد عليه دينه :

فأقام معه شريكا للكسائي فيه حتى أقرأه القرآن ، وفقهه
في الدين ، وروى له أيام العرب وأخبارهم ، وعلمه اللغة ليصير
على ما ينبغي أن يكون عليه أمير يرشح للخلافة .
لهذا تألم الأصمعي ، ثم تألم أيضا لأن الأمين — وهو يحارب

أخاه — كان يصدر عن رغبة حقيقية في تجنب الأذى ؛ فقد قال لقائده على بن عيسى بن ماهان :

— امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى وقطع الشجر وانتهاك النساء ، ومن خرج اليك من جند خراسان ووجوهها فأظهر أكرامه وأحسن جائزته !

ثم كان الالم الأكبر ، وذلك أن ينتصر الحمراء .. كل ما كان الأصمعي يحاول ألا يقع يوشك أن يقع ؛ فلم يخص الداعون للمأمون ناحية دون ناحية الا جعلوا منها طريقا الى كسر الخليفة الذي يلتف حوله العرب .. كان الفضل بن سهل مثلاً يقول للمأمون :

— أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم

وأخواله هم الفرس ، وكان الخراسانيون يشيرون اليه بآبن الأخت ، وكان الموتورون يصيحون :

— فليقض على بنى هاشم فهم سند الأمين !

ثم كان كثيرون من أعداء بنى هاشم يتعجلون النهاية ليرسوا قسدهم على شيء جديد ؛ فليس يغنى شيئاً أن يسهموا في المعركة وهم لا يأمنون أى جانب ، وان يكن انتصار أحد الجانبين لا يغنى انتصارهم هم ، ولكنه على أية حال اضعاف للجهة التي يعملون فيها .

* * *

هكذا راح الأصمعي يفكر ، وأمامه أبو عبيدة وقر من شيوخ الجامع قصدوا المبرد ينفقون فيه ساعات المساء الرطبة . وكانت

البساتين ترسل عبقها ، والدور البيض تستحم في ألوان الغسق ،
ومن بعيد كانت الجمال تتهادى في أناة يحدوها أعراب لم يكن
يعنيهم شيء مما يجري خارج بلدهم هذا الهادئ .
وحين ألقى أبو عبيدة عبارته تلك التي لا شك فكر فيها
طويلا قبل أن يرسلها على ذلك النحو من التشفى والازدراء ،
قال الأصمعي :

— على ما في قولك من غمزة نمر بها أقول دع الأمر الآن ،
فأحق ما نصبر عليه مالا يكون ثمة سبيل الى تغييره .
فتساءل التوزي وكان حاضرا مع الرياشي ودماذ وأبي غسان
وأبي قلابة الجرمي وقد ألبجته الحرب الى البصرة :
— أتدعو الى أن نكف عما نخوض فيه ؟
أجاب الأصمعي :

— هو ذاك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .
فصاح أبو عبيدة :
— الآن تقول ذلك يا رجل وبالأمس قلت ليس شيء له ثبات
ولابقاء حتى

فقاطعه الأصمعي قائلا :
— يا معمر ، أما بلغك قول عبد الله بن المقفع ليحسن تعاهدك
نفسك بما تكون به للخير أهلا ؟
قال أبو عبيدة :
— بل أحفظه كما أحفظ القرآن .
فاتفجر الأصمعي ضاحكا وصاح :

— ان كان كذلك فأنت لا تحفظ شيئا !

وقد كان من المعروف للجميع أن أبا عبيدة يهمل حفظ الآيات المنزلة ، بل ربما أخطأ اذا قرأها نظرا . وهذا من الأشياء التي أثارت عليه الأصمعي حين علم أنه وضع « المجاز » في الوقت الذي يتوقى فيه هو تفسير شيء من القرآن . ولما ادرك أبو عبيدة ان الأصمعي نال امنه على هذا النحو من السهولة قال غاضبا :

— قد جبلت على مكر لا يوصف ، فما تزال تتحين الفرصة كلما حزنك أمر حتى تخرج الى ما تريد أنت لا الى ما نريد نحن .
اقتنا تكلم عن خليفة جديد يا أبا سعيد !

قال الأصمعي ببساطة :

— وأنا أشغل نفسي بما تهيات له .

فتسلخ أبو قلابه وكان من المخلصين لأبي عبيدة وقال :

— فليكن .. لنجعله يا أبا عبيدة حديثا عن العلم ، وعما يريد

أن ينال منك به .

فتساءل الأصمعي :

— تعنى كتاب الله ؟

قال الجرمي :

— مجاز أبي عبيدة .. اسمعوا يا شيوخ البصرة ، قال لى

الأصمعي بعد أن قدمت له المجاز ونظر فيه « قال أبو عبيدة في

أول كتابه (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) أى لا شك فيه ، فما

يدريه أن الريب الشك ؟ » .

قال دماذ وكان من المنقطعين لمعمر أيضا :

— وماذا قلت له ؟

أجاب الجرمى :

— قلت له أنت فسرت لنا الرب بالشك في شعر الهذليين :

فقالوا تركنا القوم قد حصروا به

فلا ريب أن قد كان ثم لحيم

قال دماذ :

— وماذا قال أبو سعيد ؟

ضحك الجرمى وهتف بسخرية :

— لم يقل شيئا ورد الكتاب .

ولم يكن الأصمعى يتوقع من أحد أن تسرد هذه الواقعة الآن ، وهى اذا كانت تكشف عما كان يأخذ به نفسه من عدم التعرض لتفسير القرآن فانها قد تظهره متحاملا على زميله ، ومع ذلك فقد آثر أن يمضى فى الشوط الى النهاية ، فقال بهدوء :

— ان لى رأيا خاصا فى هذا العلم الذى أقحم أبو عبيدة نفسه فيه ، وليس يجدى العاقل بشيء يكتب فيفرح اذا كان كثيرا ويحزن لقلته ولكن ما يفرح حقا أن يكون نافعا .

قال أبو عبيدة بعد أن طال صمته :

— أتغنى أنى أطلب بلا غناء ؟

قال الأصمعى .

— أعنى أن الحرص فى هذا أولى .

فضحك أبو عبيدة وقال :

— فأنت اذن النحيل ضيق العطن .

فقال الأصمعي وقد رأى أنه لابد أن ينزل إلى مستوى حديثه :

— ولكنني لست المولى ابن الحائك .

قال أبو عبيدة محتدا :

— ان غدا لناظره قريب ، وحتى يأتي الغد دعوني أحك لكم

هذه الحكاية لترى ماذا يفعل العربي ابن باهلة ، ولو كان أبو زيد
حاضرا لأضحككم بها .

قال الأصمعي كعادته كلما أنكر شيئا :

— جفيل بما عندك حتى لا يوقعك في بلاء لا تخلص منه .

فصاح أبو عبيدة :

— بل أرويه والله !

ولم يقدر له أن يروي شيئا ، لأن الأمور جرت على غير
ما كانوا يحدسون ؛ فقد أقبل أبو حاتم السجستاني مضطربا وعلى
وجهه غبرة ، ثم لم يكده يستوى في مجلسه حتى قال :
— لقد سقطت بغداد في يد طاهر بن الحسين ، وقتل الأمين .

الثورة في البصرة

فتح الطريق بعد طويل وأخذت فلول المحمدين تذوب في السواد ، وأقبل على البصرة مئات ، وظهر فيها ذات يوم الحسين ابن الضحاك الخليع مولى الباهليين . وكان الأصمعي يتجنبه لسوء خلقه كما تجنب صديقه أبا نواس ، الا أنه يسعى اليه ليسمع منه عن تفاصيل المعركة ، فقال الخليع في أسلوب مباشر ولكنه حزين: — لقد ضاع كل شيء .. الأمين الذي سمى بالملخوع مرة وبالمخدول مرة أخرى يمزق جيشه الأول طاهر بن الحسين ، ورجع الجيش الثاني وقائده ابن مزيد لا يرجو الا أن يرأب الصدع بين جنوده ، ثم حوصرت دار السلام أربعة عشر شهرا ، واستطعت أن أرى الموت في كل يوم .. أينما نظرت كان ثمة موتى وصرعى ، ورائحة الدم تزكم الأنوف !

سأل الأصمعي :

— والامام الجديد ؟

قال الحسين بأسى :

— لا تسلنى عنه ، فهو في مرو بين أخواله الخراسانيين كأنما

يخاف المحمدين وآل هاشم في بغداد .. انهم حاربوا ببسالة وسقط

منهم الألف ، ولكن هناك آلافا أخرى ، أتدري .. لقد مات
النواصي وكان الى آخر لحظة مع الأمين ، في حين ظل العجوز
سلم الخاسر مع عبد الله المأمون ، ويوم طوق طاهر المدينة
انطلقت أقول :

أمين الله ثق بالله تعط الصبر والنصره
لنا النصر بعون الله والكرة لا الفره
وكأس تلفظ الموت كريها ، طعنها مره
سقيننا وسقيناهم ولكن بهم الحره
كذلك الحرب أحيانا علينا ولنا مره
آيات طويلة أفستنى المأساة أكثرها ، غير أنه لما قتل أمير
المؤمنين انبرى الحسن يشد أروع شعره :

طوى الموت ما بينى وبين محمد
وليس لما تطوى المنية فاشر
فلا وصل الا عبرة تستديها

أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده

فلم يبق لى شئ عليه أحاذر
أرأيت يا أبا سعيد قوله فى البيت الثالث ؟ لعمري انه ليكيينى
كلما أشدته تماما كما يكيينى قول أحد المأمونيين :

انظر المخلوع كلكله وحواليه المقاول
فتوى والترب مضجعه غال عنه ملكه غول
وصمت وهو يمسح عبرته ، ثم قال فجأة :

— أتدرى كيف وقع على مقتل أمير المؤمنين ؟ ربما
لا أستطيع الآن أن أصف لك نار الغصة عليه ، ولكنى أقول فيه :
ما خير أسرته وإن زعموا انى عليك لمشت أسف
هيئات بعدك أن يدوم لنا عز وأن يبقى لنا شرف
قال الأصمعى :

— يا أبا على ، والله لم أعرف سوى اليوم معنى أن يقول
القائل من المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ
أخاه وإفضاء كل واحد منهما الى صاحبه بيته ، وإن تكن خففت
عنى بعض ما سلبنى قرارى .
قال الحسين الخليل :

— كنت أجد البلاء فى الدنيا انما يسوقه الأعداء ، فعرفت
أن الدنيا لا تأخذ أحدا بهذا المقدور .. فليكن حذرنا أبا سعيد ،
وخف أنت على نفسك ، ففى بغداد من يسعى بك لشر ، وليس من
شئ لهم فيه محمدة الا فيه لك مذمة ، ويستنكرون ما تقول على
آية حال .

فاتقض الأصمعى ثم صاح :

— يا أبا على ، والله لن أترك ما أنا فيه ؛ أما الحمراء فلن
تظفر منى الا بمثل ما أعطيتها قبل حتى وإن تكن اليوم أخوال
الامام ، وأما العلويون فهم فى مخاصمتى حتى يرفعوا .
قال الحسين :

— ان المأمون يجاهر بعلويته أبا سعيد ، والعلويون اليوم

يطمعون فيه طمع من تسميهم الحمراء ، وبلغنى أنهم يرمعون أخذ الكوفة .

وحطت فترة صمت راح الأصمعى فيها يستعيد مكنونه فى صور شتى ، وبدا له أن الأزمة أخطر ما يصورها له ذلك العائد من بغداد . بل لعلها تنسج خيوط النهاية الرهيبة لكل العرب ، فإذا كان الناس يتحدثون بينهم أن ابن سهل غلب الامام حتى راح يرم الأمور على هواه فإن معنى هذا اختلال الأمور .

اذ مع ابن سهل الطمع فيما طمع فيه آل برمك ، ومع واقع ما حدث ما يقوى هذا الطمع . وكأننا الامام الجديد حريص على أن يزكى البلاء فتمتحن رعيته بالشر كله .

وكان الذى حدث أن عام ١٩٩ لم يشرف على نهايته الا وكانت الكوفة تشق عصا الطاعة بقيادة محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا العلوى ، وكان القيم بأمره أبو السرايا .. يقتل ابن طباطبا ويقيم مكانه ولدا من آل على بن أبى طالب ، ويزحف باسمه على البصرة ، ويوقع بأهل واسط .

وقد حرص أبو السرايا على أن يسترضى البصريين عبثا ، فلما آيس منهم نكل بهم ، ووجد من شيعتها من يعضده . وأما الأصمعى فقد توارى خشية أن يلحق به أذى علوى أو مأمونى ، وسلك من أجل هذا مختلف المسالك ، ولكنه لم يأمن العثرات قط . وفى سنة مائتين تصحو البصرة على نبأ يقول ان أبا السرايا ترك الكوفة هاربا ، فكان لابد أن تعلن البصرة ولاعها لهرثمة بن أعين قائد المأمون . وكان ما أثار دهشة الأصمعى أن يأمر المأمون

هرثمة بالقضاء على كل ما للعلوين من نشاط ، فيتم ذلك بأسرع
مما يتوقع أحد ، ويموت أبو السرايا وغيره ، وفي الوقت نفسه
يباع المأمون لعلی الرضا بولاية العهد !
ولم يجد الأصمعي ما يفعله في تلك الحقبة الصاخبة المليئة
بالتناقض الا أن يعود الى أوراقه وينسق الشتيت منها ، ويستعد
لسنوات أخرى يعيشها بعد أن تصور أنه ميت منذ بعيد .

المخطط الشعبي

وفي أحد الأيام يسمع الأصمعي أن الفضل بن سهل وقد أطلق عليه ذو الرياستين يجلس على كرسي مجنح ، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون . فلا يزال فوق ذلك الكرسي حتى تأخذه عينا الخليفة ، واذ ذاك ينزل ثم يمشي ، ومن خلفه من يحمل الكرسي الى موضع لصق مقعد المأمون فيضعه ليجلس الفضل فيه ، كما اعتاد أحد وزراء الأكاسرة أن يفعل !

ثم يسمع أن غم المأمون — وهو ابراهيم بن المهدي — يثور به حين غير السواد ، فلا يملك الا أن ينشد :

يا بن بيت النار موقدها ما لحاظه سراويل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مظلوم
ثم يقعد في الجامع ويقول لتلاميذه وهو يدرك حقيقة الخطر الذي يتهلده :

— اني والله لأخشى أن تذهب هذه الدولة بما دبره الجوس !
ولكن الظروف لم تسعفه بشيء ، فأثر أن يعتكف في داره ويحدد يومين لزوارة .. يجلس اليهم ، ويناقشهم ، ويقرأ عليهم مدوناته .

ثم كان ذلك اليوم .. أحد أيام صفر سنة ثلاث ومائتين ، لو لم يلعب القدر فيه لعبته لتغير كل شيء ؛ فقد مات من كان المأمون ضالعا معه في سياسته العلوية ، ومن قبل كان مات ذو الرياستين نفسه !

فأين أصبحت الدولة وقد تلاشى خطر المجوس والعلويين ؟
هكذا راح الأصمعي يتساءل ..

وخلال هذا خلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدي ، فخلا طريق الامام الجديد الى دار السلام ، واحتل فعلا قصر الخلد العظيم !
كان ثمة قلق وموت ومحاولة حياة ..

وفي هذه الفترة الفريدة .. في تلك المرحلة الخطيرة من تحرك التاريخ ، ينتهي الأصمعي الى وضع تخطيط عام للموقف !
واذا هو فلسفة صنعتها سنوات طوال من البحث والدرس والتجربة .. فلسفة تقرر أن العرب ضحية ظروفهم ، وأن هذه الظروف بقدر ما واثت الموالي لم تسعف سكان الصحراء الا بالنزر الهين ، ومع ذلك فقد تغلبوا ، وكان يجب أن يتغلبوا !

أما عناصر الغلب فهي اللغة والدين والتاريخ .. وباللغة يقترن الشعر والمنقول من الخطب والأسجاع والأمثال ، وأما الدين فمحوره كتاب الله وأحاديث رسوله وتقوله الصحابة وتابعيه ، وفي التاريخ تثار العصبيات ويبحث الماضي مقترنا بجفاة الأعراب وعنجهية البدو .

ولكل أولئك جانب آخر ؛ فمن أحب أن يتبحر في اللغة ويصل الى قمة بلاغتها فليقرأ « كتاب كاروند » ومن شاء أن

يتزود بالعقل والعلم فليعكف على « خدای نامه » أو « كلیلة ودمنة » والخطب شيء في جميع الأمم حتى الزنج منها ، وهذه اليونان تعجز وتفحم ، والفرس أعذب الناس كلاما ومنطقا ! ومع ذلك فقد برز ابن المقفع والبرامكة ، وروع بشار — وهو مولى — شعراء جيله ، وتبعه مولى آخر هو أبو نواس ، والنظام أستاذ المعتزلة مولى .. مفكر وخطيب وشاعر ، وكثير من أصحاب اللغة والشعر فيهم اليهودي كأبي عبيدة والفرغاني كخلف الأحمر والفارسي كسيويه .

ثم قلة عربية ، يقولون فيها الخليل بن أحمد ، ولكن علمه مأخوذ عن العجم ، وهو نفسه يمانى كما كان المبرزون في اللغة والأدب .

وفيهما السيد الحميرى .. يمانى آخر ، وقد سب من كان على شاكلة الأصمعى فكرة وعقيدة ومذهبا .

وفيهما غير هذا وذاك ممن يحاول العرب الخُلص أن يخرجوهم منهم ، أفلم يقل أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعريتنا .

وأما الأصمعى نفسه .. الأصمعى الباهلى حافظ اللغة وعالم النحو وراوية الشعر والأخبار والآداب ، فهو لا يقدم ولا يؤخر شيئا ، وعلمه مع ذلك مأخوذ عن موال .. أفلم يتشدد بروايات يرتفع سندها الى حماد الراوية ؟ ثم ألم يقل هو عينه ذات يوم بعد أن نفى اليه حماد :

— كان حماد أعلم الناس اذا نصح !

وكذلك روى عن مولى آخر هو أستاذة أبو محرز خلف ،
وهذا الأستاذ نفسه روى عن حماد ، ويقول أبو عبيدة انه سمع
أبا محرز يقول :

— كنت آخذ من حماد الرواية الصحيح من أشعار العرب
وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك متى ويدخله في أشعارها .
أجل هو كذلك !

ثم صعب عليه أن يعي ما يقال أن الخليل أخذ عن العجم مع
أنه يتهم أبا عبيدة — الذى جمع أشعار النقائض وبعض أشعار
الأولين — بأنه ربما أنشد البيت فلم يقم وزنه حتى يكسره .

ان الحمراء تحكى عنه أنه أراد أن يقرأ العروض على أستاذة ،
ولما شرع فى تعليمه تعذر عليه حتى يئس منه الخليل ، ويقولون
انه سأل أستاذة عن « معصوب الوافر » فقال له .

— يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر :
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع



فى ذهنه اذن أن ثمة مخطأ للإيقاع بالعرب .. يقضى الحمراء
فيه على ترائهم وعاداتهم ليصلوا الى السلطان !
وفى سلوكه الخاص ألف مبرر لبيادلهم العداة ويظفر بهم فى
كل مكان ، ويوم نهى عن أن يتبادل الناس كتاب المجاز فلا أنه
كان يحس أن أبا عبيدة ليس أهلاً لهذا العمل لأنه ليس مبرراً
من الهوى .

ثم يوم قرأ له بعض ما سجله فى النقائض أيقن أنه يشوه المثل

الجاهلية ، ولهذا أيضا كتب الكتب في أيادي الأزدي ومناقب باهلة
ومثالب باهلة وأدعياء العرب ولصوص العرب وفضائل الفرس
وروستقباذ .. وكل هذه هدفها الكيد للعرب !

وكان يقرأ على زواره من أخبار عيس ما سجله في كتابه الضخم
عن عنتره « حدثني غير واحد من الأعراب أن سبب مقتل زهير
العيسى أن ابنه شأس بن زهير وفد الى بعض الملوك ، فرجع ومعه
جباء قد حبى به ، فمر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة وأبيات من
غنى على ماء لبنى عامر أو غيرهم ، فاغتسل فناداه الغنوى :
استتر ! فلم يحفل بما قال ، فقال : استتر ويحك فاليوت بين
يديك ! فلم يحفل ، فرماه الغنوى رياح بن الأسك بسهم ،
أو ضربه فقتله والحي خلوف » .

وقال له واحد من الحاضرين :

— لقد أملى علينا أبو عبيدة هذا الشيء نفسه .

وعادت الى الأصمعي خفته القديمة فقام واقفا وهو يصيح :

— كيف ؟

ثم عاد الى وقاره ليستمع الزائر يقول :

— هي عندي في قرطاس وفيها تصوير بارع لكل ما حدث
مذ كان شأس عائدا من لدن النعمان يحمل الطنافس والكسي
حتى قعد يريق الماء عليه وهو عريان يشبه الثور الأبيض ثم وهو
يخر مجندلا .

وتبسم الأصمعي قليلا ثم قال :

— كل شيء أقوله فائما هو بديهية كما يرويه الرواة لا كما يرسمه الوهم .

واستمر يضحك وهو يستطرد :

— ان كان ينبغي الحق فيه ، غير أنه لا يكون حتى يروى ما سمع دون تكلف . لقد كنت أكتب كل شيء لأقوله كما سمعته ، وأخذ على بعض الأعراب ذلك حتى قال :

ما أنت الا الحفَظَه تكتب لفظَ اللفَظَه

وقال لي آخر :

— ما تدع شيئا الا نمصته !

ومن أجل ذلك عدلت عما شرعت فيه من أخبار عنصرة تاركا كل تقولي فيه للبانات الشادين ، يجدون فيه من نزهة الخواطر وغنية العقول ما عليه أقوى وبه أَرْضَى .. فهل كذلك أبو عبيدة ؟ ان كان فأنعم به ، والا فله دين ولى دين .

الموت

وفي أحد الأيام أتاه نعي أبى عبيدة ففجع ، وأيقن أن قد
أزفت نهايته .. فقد ارتبطت حياته به ، وصار بالنسبة اليه مثل
ما كان جرير بالنسبة الى الفرزدق ، شيطانهما واحد وطريقهما
واحدة . وقد يكون في هذه الطريق ما فيها الا أنها لا تزرع الجسد
ولا تنبت الضغينة ، بل لعلها كانت مجرد مجال للتفوق واحقاق
الحق .

كان ذلك في سنة تسع ومائتين وقد ذهب الى لقاء ربهم أعلام
كبار ، منهم النضر بن شميل وقطرب والامام الشافعي الذي قرأ
الأصمعي عليه ديوان الهذليين وديوان الشنفرى .

ولم يكن حزن الأصمعي على موت هؤلاء مثل حزنه على
موت أبى عبيدة . كان حزنه عليه عميقا جارفا اكتسح كل الصور
التي جمعت بينهما ، وهدّ قواه ، ولم يعد يتذكر الا القليل .. من
ذلك انشاده قول حاجب بن زرارة يوم جيلة :

شتان هذ والعناق والنوم والمشرّب البارد في ظل الدوم

فقال :

— ما ابن الصباغ وهذا ؟ وانى لأهل نجد دوم والدوم

بالحجاز ؟ حاجب بن زرارة نجدى فأنى له دوم ؟ كان يجب أن ينشده « فى الظل الدوم » أى الدائم .

ومنه أيضا ذلك المشهد الذى يجمعه به وهو على رأسه يمسح ذلك البيت الذى سطره على أحد عواميد المسجد :

وحكاية الكامخ ، وحكاية الفرس

ثم أقوال شتى كان يرددها حين قدم عليه كثيرون يعزونه وفيهم من يجب ومن يكره .. المولى الهجين والعربى القح .. الشاعر والعالم ، ومع أولاء أبو قلابة الجرمى الذى أعلن عداؤه الصريح للأصمعى ، على أساس أن الأصمعى سثنى حسن الاعتقاد وهو شيعى رافضى .

لقد انتهر أبو قلابة فرصة الاجتماع الكبير فأراد أن يعبث بالأصمعى ، ومن ثم عرض عليه أرجوزة صنعها الشاعر عبد الصمد ابن المعدل وفيها يقول :

تهزىء منى وهى رود طله

ان رأت الأحناء مقفولة

قالت أرى شيب العذار احتله

والورد من ماء اليرثا حله

عرضها على أنها لأحد الأعراب ، فلم يطالع الأصمعى فيها الا القليل حتى دفعها اليه وهو يقول :

— ويحك ، هذه لبعض الدجالين دلسها عليك !

ثم راح يبين له مواضع التدليس فيها ، حتى اذا غلبه الخزي ففض عجلان ينصرف ، فقال الأصمعى :

— اذا خرج الناس من أن يكون لهم العقل يحسنون به
التفكير فليعلم المتحدثون أن أحدهم وإن أبلغ ليس زائداً على أن
يكون قرد النجار .

فقال بعضهم :

— تعنى القرد الذى ذكره ابن المقفع ؟

أجاب :

— هو ذاك !

قال آخر :

— ولكنه من الحمراء !

فقال الأصمى :

— وأبو عبيدة منهم أيضاً ولكن فيهما غناء ، وما جرى على
لسان أحدهما فكان صدقا فهو مقبول . وقد سمعت أبا عبيدة
يتحدث فكان البحر وقرأت له كتباً فوجدت فيها الخير لما يوافق
والشر لما يؤذى ، ثم بلغنى عنه ما يستوى فيه الحمقى والأكياس ..
لقد كان رحمه الله جماع هذا العصر ؛ فخلف الأبيض والأسود
لترى فيه ما ترى فتكثر اللجاجة !

قال قائل :

— أنت تذمه .

قال الأصمى :

— لست الذام جعلت فداك ، ولكنى لا يمنعنى كبر شأن
المرء من الإشارة الى ما أراه فيه ، ومع ذلك فليس أحسن من أن
هول فيه ما قال منصور النمرى فى يزيد بن يزيد :

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض

فحسبك منى ما تجن الجوانح

كأن لم يمت حتى سواك ولم تقم

على أحد الا عليك النوائح

لئن حسنت فيك المرائي وذكرها

لقد حسنت من قبل فيك المدائح

فما أنا من رزء وان جل جازع

ولا بسرور بعد موتك فارح

ثم تشعب الحديث وتنوع .. من رثاء هذا الى رثاء ذاك ، ومن

ذكر لمتمم بن نويرة الى ذكر الخليع ، وكان زواره يحكون ويحكى

هو لهم ، حتى ذكر الخنساء وقد رآها عمر بن الخطاب وبها ندوب

في وجهها فقال :

— ما هذه الندوب يا خنساء ؟

قالت ، على ما أخذ الأصمعي يروى :

— من طول البكاء على اخوى .

قال عمر :

— أخواك في النار .

فقالت :

— ذلك أطول لحزني عليهما ، انى كنت أشفق عليهما من

النار وأنا اليوم أبكى لهما من النار .

ثم انطلق كعاداته الى شيء آخر ، فقال فجأة :

— لم يتبدى أحد مرثية بأحسن من ابتداء أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملی جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا

وبعدها قول زميل القزاري :

أجارتنا من يجتمع يتفرق ومن يك رهنا للحوادث يغلق

ولكن أم المرائي قصيدة متمم في أخيه مالك :

لعمري وما دهرى بتأين هالك ولا جزع مما ألم فأوجعا

لقد غيب المنهال تحت ردائه فتى غير مبطان العشيات أروعا

وراح صوته الهادى يردد الأبيات حتى أبكى الحاضرين ،

فقاموا ينصرفون على هم يجيش في صدورهم ، وتلوح لهم قامة

الأصمعي الضئيلة وقد قوسها العجز وعيناه مع ذلك تضيئان .

النهاية

لم يدر الأصمعي أنه يعيش سنوات بعد أبي عبيدة ، فلما رأى الأيام تدخر له مزيدا من العمر عكف على الكتابة يساعده كل من ابن أخيه وابن اخته ، عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب وأحمد بن حاتم الباهلي ، وكان أبو حاتم يكثر من التردد عليه يدون عنه ويصحه الى المسجد الذي لم يشأ أن ينقطع عنه .

وتحدثت حياته بذلك ، الا حين يزور الأبله التي كان يعشقها ، والا حين يطرق قصر سعيد بن سلم يزوره ويملا عليه وحدثه بعد اعتزاله . وفي احدى الزيارات وقعت عيناه على أمة عجوز حدثته بود ، ولما انصرفت عنه بمقدم الأمير علم أنها لباب .. وكان زوجها قد ودع كما ودّع غيره !

وهكذا ، الا أن ولاية الأمور ظلوا يخطبون وده ، فلم يكن يفد عظيم على البصرة الا أدى له حق الزيارة ، ثم دعاه الى دار السلام .

وقيل له ذات يوم ان المأمون لما رجع الى بغداد وقر بها استدعى قاضيه يحيى بن آكثم وقال له :
— وددت لو أني وجدت رجلا مثل الأصمعي ممن عرف

أخبار العرب وأيامها وأشعارها فيصحبني كما صحب الأصمعي
الرشيدي.

ثم طوب بأن يستعد للرحلة الى دار السلام ، فاحتج
بشيخوخته وضعفه — وكان في الحق قد أصبح عاجزا — وأن
يكن لاعتذاره وجه آخر يقوم على أساس أن المأمون الذي قرب
العلوين أصبح معتزليا يقول بخلق القرآن ويجبر الناس على أن
يقولوه .

كان يدرك أنه لم يعد يصلح للمنادمة ، ولكن الحافز الى
اعتذاره هو العقيدة ، هو الرأي ، وأنى له أن يدين بما يدين به
معتزلة البصرة وبغداد !

على أنه لم يسفر عن قطيعة مطلقة ، وانما كتب للمأمون كتابا
يَعده فيه بأن يكون رهن مشيئته كلما اعترضه مشكل . أمير
المؤمنين يكتب سائلا ، فيكتب الأصمعي بالجواب !

وقد شاعت هذه الحكاية كما شاع غيرها ، فلم يكن لشيوعها
أى أثر في مسلكه مع الناس وظل على اتصال بهم ، وعندما كانوا
يسألونه عن حاله كان يتمثل بأحد أبيات لبيد :

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال كل الناس كيف لبيد

ثم يقول :

— هذا حال من صحب الدنيا حتى أتعبته !
وجلس ذات يوم الى تلاميذه فلحظوا شحوبه واهتزاز كفيه
فقالوا :

— طاريء زائل وعافية ترجوها لك .

فراح ينشد قائلا :

إذا الرجال ولدت أولادها

واضطربت من كبر أعضادها

وجعلت أسقامها تعنادها

فهي زروع قد دنا حصادها

ثم أوى الى فراشه بعد أيام مشلولاً والى جانبه أبو حاتم ،
لا يسمعه يقول شيئاً واضحاً ، الا حين تصله بعض كلمات من
كتاب الله ، ثم انتزع لسانه من حلقه ليقول في حرارة :

— اللهم خفف حسابي بين يديك !

وكانت عيناه تلمعان ، وفي محاولة ضخمة قال :

— يا أبا حاتم ...

ووقع النداء في نفس تلميذه موقعا طيبا ، فالأصمعي لم يعد

ينادي أحدا قط ، وقال أبو حاتم السجستاني :

— لبيك يا أبا سعيد .

وعاد الأصمعي يحاول أن يفك عقدة لسانه ليقول :

— أتراني أخطأت في حق أبي عبيدة ؟

أجاب السجستاني :

— والله لا أظن .

قال الأصمعي :

— فهل اتهمت غيري بكذب ما ؟

أجاب السجستاني :

— ولا هذا أيضا .

ثم عاودته الموضة فأنشأ يهذى ، ومزت لحظة قبل أن يهدأ فقام أبو حاتم الى بيته . ولم يكد ينصرف حتى نهض الأصمعي فجأة يلب على الأرض فيتوضأ ويصلى ، ثم يقعد على سريره يستغفر ربه ، وعندما أقبلوا عليه قال لهم وكأنها أحسن أنه عوفي تماما :
— أفتسمعون منى أم تقرأون على ؟

قالوا :

— بل نسألك فتجيب .

وكان لعابه قد تجمع في ركن فيه فمد يدا مرتعشة يمسحه ويقول :

— اسألوا

ولكن عيون تلاميذه لمحت المنديل يسقط من بين أصابعه وتبعث منه شهقة .. وفجأة رأوا رأسه ينزلق الى الوسادة في اعياء على حين راح بدنه يهتز في عنف ، وبدا في ضوء القنديل الشاحب عودا ذابلا تريد رياح الخريف أن تكسره .
ولأول مرة تخبو عيناه ، وارتفعت يداه ليرتفع معهما صوته قائلا :

— يا أحمد .

كان ينادى على ابن أخته ، فوثب هذا اليه فقال له :
— هذه الكتب ...

وتوقف ، فقد أخذت الغرفة تدور به والفراش يميل ، وخيل اليه أن الجدران توشك أن تنقض عليه ، وهنا قال بعض تلاميذه :

— سلّمت يا أبا سعيد .

وفي هذه اللحظة عاد صوته يزحف من فمه متاقلا :

— هذا .. هذه الكتب اقرأها لهم !

وأطبق جفونه بعض الوقت ثم فتحها ، فاذا دمعان تجاران
بين أن تنحدرا أو تجمدا ، وهمس في حشجة :

— أطلقا تم القنديل ؟ اقترب يا أحمد ..

ووضع أحمد أذنه عند فم خاله ، فأحس الجميع بالأرض
تغور . لقد زحف الموت الى عروقهم فبردت منهم الأطراف ،
وعلقت بحلوقةم الغصص ، على حين ارتفع صوت أحمد يقول :

— تكلم .. لا لن تموت ، أبا سعيد .

غير أن شفتي الأصمعي كاتتا قد أبطقتا الى الأبد ، وظلت عيناه
مفتوحتين ولكن جسمه كان هامدا .

كان ذلك في ليلة من ليالي عام ٢١٧ هـ . وفي الصباح كانت
البصرة كلها تتناقل الخبر المزن . لقد مات مفخرة العرب ،
ومعجزة العلم ، وخرج الجميع يشيعونه ، وقد اندس بين محبيه
بعض شائيه . منهم أبو قلابة وكان ينشد لأحد أصدقائه همسا :

لعن الله أعظما حملوها نحو دار البلى على خشبات
أعظما تكره النبي وآل البيت الطيبين والطيبات

وفي جانب آخر كان ثمة شاعر يردد أبياتا أخرى تقول :

لا در در نبات الأرض اذ فجعت

بالأصمعي فقد أبقت لنا أسفا

عش ما بدا لك في الدنيا فلست ترى
في الناس منه ولا من علمه خلفا
والنعش محمول على الأكتاف بين الحشرات والتفجع ،
ودموع ابن أخيه وهتافه :

— انا لله وانا اليه من الراجعين .

حتى اذا وصلوا الى جبانة بنى أصمع كان النعيب يرتفع الى
عنان السماء ، وهنالك أودع الجثمان قبره وصلى عليه الامام
الفضل بن اسحاق العباسي . وان هي الا أيام حتى راح القوم
يتناقلون أبياتا لمحمد بن أبي لعتاهية يقول فيها :

أسفت لفقد الأصمعى لقد مضى

حميداله في كل صالحة سبهم

تقضت بشاشات المجالس بعده

وودعنا اذ ودع الأئس والعلم

وقد كان نجم العلم فينا حياته

فلما اقضت أيامه أفل النجم

وفي أحد الأيام دعا الخصيب بن أسلم أبا نصر أحمد بن حاتم
الباهلي الى أصبحان ليفيد مما عنده من كتب الأصمعى ، فنقل
أحمد مصنفات خاله الى تلك المدينة . حتى اذا عزم على الحج خار
أين يحفظ تلك المصنفات ، ثم اهتدى الى أحد المشتغلين بالعلم
واسمه عبد الله بن الحسن ، فجعلها عنده ، وسافر .

وكان سفره ايذانا بشيء لا يريده . فقد أقدم محمد بن عبد الله

ابن الحسن على استنساخ المصنفات جميعا ، فلما عاد أبو نصر وعلم بما تم وبضياع بعض الأصول أبرق وأرعد ، فجمع له عيد الله عشرة آلاف درهم من أهل البلد ، ووصله الخصيب بعشرين ألفا أخرى !

وهكذا هان الرجل الذي وهب حياته كلها للعلم ، ولكن دوران آرائه في كتب خلفه ونقل أجزاء مصنفاته الى تآليف العلماء الذين أتوا من بعده واستشهاد الكبار منهم بآرائه في اللغة والتاريخ والنحو والبلدان والشعر .. كل أولئك كان تقديرا لم ينله الا قلة ، وسنظل نقرأ للأصمعي في الأثبات ، ويلقن الناهضون بأعباء الأدب أن أبا عبيد القاسم بن سلام مثلا « أخذ كتب الأصمعي فبوب ما فيها ، وأن أبا حاتم يروي فحولة الشعراء عنه ، وأن الجاحظ الذي حمل عليه وهو حي وميت ينقل عنه عشرات بل مئات من الروايات .

ثبت المراجع

يجد القارئ في هذا الثبت اشهر المراجع مقدمة بكل ما يعين على الانتفاع بها ، فثمة الطبعة والجزء والصفحة ، وثمة محاولة ترتيبها بحسب اسماء الشهرة لمؤلفيها .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (المنيرية سنة ١٣٥٧) : ١١٨-١٠

(٢) احمد كمال زكي : الحياة الأدبية في البصرة (دار الفكر بدمشق

سنة ١٩٦١) ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ؛

٧٩ ؛ ٨٧ ؛ ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ؛ ٢٢١

؛ ٢٢٦ ؛ ٢٣٤ ؛ ٢٨٢ ، ٣٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ؛

٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ؛ ٤٨٦ ؛ ٥٠٠ ؛

٦٠٠ ، ٥

(٣) الأصمعي : الأصمعيات (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٥) ٣ ، ٤ ،

٥ ، ٨ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ٢٤١ ؛ ٢٦٨

الجيل (طبعة فينا سنة ١٨٨٨) .

فحولة الشعراء (المنيرية بالأزهر سنة ١٩٥٤) ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،

١٥ ؛ ١٦ ، ٢٧ ؛ ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٥٤ وما بعدها ؛ ٦٧

وما بعدها .

النبات والشجر (طبعة بيروت سنة ١٨٩٨) ٥ ، ٦ ، ٢٦ ،

٣٣ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٥ .

(٤) ابن الأنباري : نزهة الألبا في طبقات الأدبا (ط) - مصر سنة
١٢٩٤ (٣١ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ : ١٣٩ -
١٤٥ ، ١٥٠ - ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ : ٢٢٩ -
٢٦٢ ، ٢٣٢

(٥) الجاحظ : البخلاء (الكاتب المصري سنة ١٩٤٨) ٤٥ ، ٤٦ ،
١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٦ : ١٩٧ : ٢٦٤ ؛
٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٣٣ : ٣٧١ .
البيان والتبيين (التجارية سنة ١٩٤٧) ١ : ٥٤ ، ٨٠ ،
١٢١ ، ٢٠٨ ، ٢٤٥ ، ٣٣٣ ، ٣٦ : ٢ ، ٩٧ ، ١١٨ ، ١٦٣ ،
٢٠٨ ، ٢٧٣ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣ : ٥ ، ٣٤ ، ٧٩ ، ٢٢٠ ،
٢٣١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٦ ، ٣٦١

(٦) ابن الجراح : الورقة (طبعة المعارف ١٩٥٣) ٢٩ - ٣٢ ، ٦٠

(٧) ابن حزم الأندلسي : جمهرة أنساب العرب (طبعة المعارف ١٩٦٢)
٢٤٥ وما بعدها

(٨) المصري : زهر الآداب (ط) - القاهرة سنة ١٢٩٣ (١ : ١٢٦ ،

١٥٩ ، ٢٩٠ ، ٣٨٦ ، ٢ : ٢ ، ٢٨ ، ١٩٨

(٩) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (طبعة القاهرة ١٣٤٩) ١ : ٧٠ -

١١٧ ، ٣٢٧ وما بعدها ، ١٠ : ٤١٠ - ٤٢٠

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان (النهضة المصرية سنة ١٩٤٨)

٣٤٤ : ٢ - ٣٤٩

(١١) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء (المعارف سنة ١٩٥٢)

٨ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ٢٠٤ ، ٥٧٢

(١٢) السيوطي : المزهري (ط . الحلبي سنة ١٩٥٨) ١ : ١٦٧ ، ٢ :

٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ،

٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨

(١٣) السيرافي : أخبار النحويين البصريين (ط . الحلبي ١٩٥٥) ٢٣ ،

٢٨ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٥ - ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٧٠

(١٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية)

٩ : ٩٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٥٢ - ١٥٦ ، ١٦٢ ،

١٦٧ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ١٠ : ٤٢ ، ٥٤ ،

٦٢ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٩٥ - ١٠٠ ، ١٠٩ ، ٣٤٢ ، ٣٦٤ - ٣٦٦ ،

(١٥) ابن طيفور : تاريخ بغداد (لبيزج سنة ١٩٠٨) الجزء السادس

في أكثر مواضعه .

(١٦) أبو الطيب اللغوي : مراتب النحويين (نهضة مصر سنة ١٩٥٥)

٢٢ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ - ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢

(١٧) عبد الجبار الجومرد : الأصمعي (دار الكشف بيروت سنة ١٩٥٥)

٥٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧

(١٨) ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر

سنة ١٩٥٣) الأجزاء الستة في أكثر المواضع من كل جزء .

(١٩) عبد العزيز النوري : العصر العباسي الأول (دار المعلمين العالية

بغداد سنة ١٩٤٥) ١٣٣ وما بعدها .

(٢٠) أبو علي القالي : الأمال (دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦) ١ : ١١٧

١١٨ ، ١٥٦ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٦٧ ، ٢ ، ٨ ، ٢٤ ، ٤٨ ، ٣ :

١٨٧ ، ٢٨٢ ، ٤ : ١٢٦

(٢١) أبو الفدا عماد الدين اسماعيل : تاريخه (طبعة بولاق ١٢٨٠)

٢ : ٢٣

(٢٢) أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني (طبعة ساسى الأجزاء العشرون
فى أكثر المواضع .

(٢٣) ابن قتيبة : المعارف (بتحقيق ثروت عكاشة)

٣٨١ - ٣٨٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٩٩ ، ٥٤٣ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، .

الامامة والسياسة (ط . الحلبي سنة ١٩٥٧) ٢ : ٩٨

وما بعدها ، ١١٩ ، ٢٠٢

(٢٤) القفطى جمال الدين أبو الحسن : انباء الرواة على انباء النحاة

(دار الكتب سنة ١٩٥٢) ٢ : ١٩٧ - ٢٠٥ .

(٢٥) القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة انساب العرب (الشركة

العربية سنة ١٩٥٩) ٤٠ ، ٤١ ، ١٧٠ وما بعدها .

(٢٦) المسعودى : التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨) فى مواضع

كثيرة .

(٢٧) ابن النديم : الفهرست (المكتبة التجارية)

٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ،

٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦

(٢٨) ياقوت الحموى : معجم الأدياء (مطبعة هندية بالموسكى سنة

١٩٢٣) ١ : ١٩ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٨٦ ، ٢ : ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ،

٤٢٧ ، ٤ : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٤ : ١٧٩ ،

١٨١ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٢٢٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٨٥ ،

١٨٨ ، ٥ : ١٤ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٥ : ٥٧ ، ١٣٨ ، ٦ : ٦٥ ، ٨١ ،

٨٦ وما بعدها

الفهرس

صفحة

المقدمة ٣

الباب الأول

في بغداد

١١ - ١٦٩

١	-	البادية	١٢
٢	-	المدينة الكبيرة	٢٣
٣	-	معتك الحياة	٣٠
٤	-	بدء الحيرة	٣٨
٥	-	الشعر .. الشعر	٤٦
٦	-	المهرب	٥٢
٧	-	جواب البوادي	٦١
٨	-	بين هذيل وامرئ القيس	٧١
٩	-	يوم الأستاذ الأول	٨٢
١٠	-	الدرس الأول	٨٧
١١	-	الجواد المنتحر	٩٤
١٢	-	في أعقاب الأزمة	١٠٠
١٣	-	الفاجعة	١٠٦
١٤	-	يوم عادي	١١٢

١٢٢	١٥ - بعد سنوات
١٢٧	١٦ - متاعب
١٣٣	١٧ - الحلقة تضيق
١٣٨	١٨ - مؤامرة
١٤٣	١٩ - المهدي
١٤٨	٢٠ - العودة
١٥٣	٢١ - مع الريح
١٥٨	٢٢ - مع الحسن
١٦٤	٢٣ - كتاب من بغداد

الباب الثاني

في بغداد

١٧١ - ٢٦٨

١٧٢	١ - الغريب
١٧٦	٢ - الفضل بن الربيع
١٨٣	٣ - الفرج
١٩٧	٤ - القافلة تسير
٢٠٢	٥ - أول درس
٢٠٩	٦ - على غير موعد
٢١٨	٧ - ولي العهد
٢٢٥	٨ - يوم الشيع
٢٣١	٩ - اسحاق الموصلي

٢٣٩	عواصف
٢٤٧	الحصاد
٢٥٤	بداية النهاية
٢٥٩	ثورة الرشيد
٢٦٤	النكبة

الباب الثالث

العودة الى البصرة

٣٢٢ - ٣٦٩

٢٧٠	الرجل الحزين
٢٧٥	شذرات في اللغة
٢٨٠	دنيا الشعر
٢٨٦	التاجر البخيل
٢٩٤	مرض
٣٠٠	الشيوخ في المربد
٣٠٦	الثورة في البصرة
٣١١	المخطط الشعبي
٣١٧	الموت
٣٢٢	النهاية
٣٢٩	المراجع

